2262
.1951
.399

2262.1951.399
'Afīf
Zīnāt

ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073835330

زينات

تأليف

حسين عفيف

مكتبة النهضة المصرية

منيبة أبوحمدي

'Afif, Husayn

كانوا وكنا ، وللردى سبقونا.

رواية

زينات

Zinat

أو

التكفير

فازت فى مسابقة وزارة المعارف للقصة

تأليف

حسين عفيف المحامى

الثمن عشرون قرشاً

ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

الطبعة الأولى

١٩٤٣

اهداء

إلى ذلك الحلم القديم

2262
.1951
.399

ليس أدباً ما خلا من الأنفاس.

حسين عفيف

الفصل الأول

« زينات » جافاها النوم . شيء ما ، بَلْبَلَ فكرها الرقيق . ومن عجَبٍ أنها لا تعرفه . أو لم تشأ أن تتغلغل إلى نفسها لتعرفه . وكل الذى لاحظتْه ، أنها مذ علمتْ بأن « مختاراً » فى طريقه إلى مصر ، عَراها ذلك البَلبال .

ومختارٌ هو ابن عمها ، مات أبواه وهو لم يزل فى المهد ، فكفله أبوها وآواه فى بيته ، حتى إذا ما سلخ فى دراسة الطب مرحلة — وكانت يومئذ فى الثالثة عشرة من عمرها — أرسله إلى أوروبا ليُتِمَّ تعَلُّمه .

. . .

زيناتُ جافاها النوم . ومنذ الصباح دب فى خلايا جسمها نشاطٌ عبقري . فهى دائمةُ التَّطواف فى حجَر البيت ، لا تدخل حجرة إلا لتبرحها إلى غيرها ، ولا ترتمى على مقعد إلا لتهبَّ منه واقفة . وعندما جلستْ إلى

البيان تعزف « فالْسَ » الدانوب الأزرق ، قامت دون أن تكْمل أغنيَتها المحبوبة . كانت تحس بقوة تدفعها ، ولكنْ لا تدرى إلى أين . والذى لا يَعرف وجْهته لا يقرُّ فى مكان ، لأنه لا يلبث أن ينهض ليُتِمَّ البحث . كانت قد شربتْ من كأسٍ سحرية ضاعفت فى شرايينها الحياة ، ولا تدرى من أى فردوس جاءوا بالكرْمة التى عَصروا منها خمرها .

فلما أتى المساء وأرادت أن تعتقل هذا النشاط خلْف أسوار الكرى ، حَطَّم الأسوار واندفع يتألق فوق عينيها الساهرتين . وزاد أن أسْرَى بها فى الليل مسافات ، إلى أن حلّق فوق الباخرة « سوسن » ، التى تُقِلُّ العائدين من أوربا . فرأتها تسير مُزَيَّنةً فوق العباب ، وأحست بنسيم البحر البارد يلطم خدها ، ونشقت رائحة الملح المذاب فيه .

. . .

دقت الساعة منتصف الليل ، وما تزال زينبُ يجافيها النوم . وهٰذِى حَمامات الكرى تحلق فوق

أهدابها وتأبى أن تهبط ، ثم تتجمع فى سربٍ جميل وتخرج من النافذة . ثم ما تلبث أن تعود لتكرر ما فعلت . غير أنها كانت فى كل مرة تُطِيفُ بها ، تجود عليها بلمسةٍ من طرف الجناح ، ينكسر لها جفنها الكحيل ، فتأخذها سِنَةٌ قصيرة ، ترى فيها الباخرةَ سوسنَ تترجرج فوق اللجج ، ومن بين ركابها فتًى رسم الضنى عليه ظلاله الشاحبة ، وهو يَشْخص ببصره إلى الشاطئ . ثم تفيق وتختفى الباخرة ، لتعود فتتراءى لها فى الخيال سابحة فوق بحور الغيب .

. . . .

كل هذا كان يجرى وهى لا تفقه له معنى . لقد كانت حدثة ، وتلُفُّها تلك الأكمام التى تَلُفُّ البراعم فتحجب أسرارها . أجل ، فإن سبعة عشر عاماً لم تكن كافية لتُفتّح قلب زينبَ الغرير ، على الرغم من ذلك الحب الذى كانت تحمل جرثومته طفلة ، فظل ينمو فى مخبئه بعيداً عن مرمى بصرها ، مثلما ينمو العطر الكمين فى الزهرة ، فى انتظار اللحظة

التى تتفتح فيها ليفيض على حواشيها .

ولو أنها أمسكت بشمعة ونزلت تنقب فى خفايا نفسها ، لظفرت بالسر كما يظفر الغواص باللآلئ من أعماق البحار . ولكنها كانت ترهب الظلام ، فآثرت أن تبقى على السطح تتقاذفها أمواج الشكوك .

. . .

وأقبل الفجر يجرجر وراءه مواكب الضياء . وتصايحت الديكة فى زهو كأنها موكولة بإيقاظ الكائنات ، وراحت تصب فى سمع زينات أذانها المنعش كأنه أقداح من القهوة . على حين تزاحمت العصافير على الغصن المجاور لنافذة مخدعها ، وقد أخذت تثب وتزقزق . وبين حين وحين يلوح منها فى الجو مجنح ، أو يدخل الغرفة ضال ما يلبث أن يعود أدراجه .

ثم غرد بلبل . وغنت حمامة وأجابها من أقصى الروض قمرى . كما جاءت يمامة فحطت على كوة فى حائط قريب ، ومضت ترتل تسابيحها القانتة . فكأنما قلب الفجر محراب وهى عبد قائم لصلاة .

وتسربت البهجة إلى قلب زينات ، وبددت ما ساورها فى وحشة الليل من قلق . فقامت فاغتسلت بماء الصباح البارد ، ثم وقفت أمام المرآة ترجِّل شَعرها . وكان الضنى قد رقَّق لونها فأبَان عن حسنها الروحانى . كما أذْبَل عينيها السهادُ فزاد من فتورهما الساحر . ولاحظت هى ذلك فابتسمت وودت لو عانقت نفسها . وإنّ من الجمال لَما يَسْبِي الغريب . وإنّ منه لَما يُعشَق حتى من أهله . وكأيٍّ مِن حِسانٍ عَشقن أنفسهن وتدلَّلهن . وكأيٍّ منهن أصابها من سحْرها مَسٌّ .

وعادت تتملى حسنها . وخجلتْ إذ رأت أنه فضّاح . وكذاك يعلّم الحسنُ الخجل .

ثم عادت تخالسه النظر فانتشت وتَمَشَّى فى لحظها التيه . وكذاك يعلّم الحسنُ الدلال .

وسالت لهذا الحسن ينابيعُ قلبها . وفاض بها فمضت تلتمس إناء آخرَ تصب فيه . وكذلك يلد الجمالُ الحب . وكذلك أولُ ما يتعلم العذارى العشقَ فى أنفسهن .

وساقَها كالطير إلهامٌ مبهم . فهامت على وجهها من وادٍ لواد . إلى أن استقر بها المطاف عند حديقة الدار فوقفت .

ورَنَتْ إلى بحيرةٍ مُخْضَلَّة الشطآن هنالك . وكان قد انعقد على مائها ضبابُ الفجر ، فحجب براعم اللوتس النابتة على سطحها . وقابلتْ بين هذا الضباب وضباب نفسها ولم تَفهم . وقابلت — ولم تَفهم أيضاً — بين قلبها المُغْمَض والبراعم . فارتمت على مقعدٍ قريب كنحلةٍ مَهيضة الجناح .

ثم سطعت الشمس ، وأخذت أشعتُها تتلصص خلال الغصون ، وتمزّق الأكمام من فوق البراعم الآمنة .

وراقبت الفتاةُ تفتُّحَها تحت أنامل الضوء . ثم أحست كأنما قد تسلل إلى صدرها شعاعٌ مماثل ، وأخذ يفتّح البرعم النابت فيه . وخيل لها أنها تستمع إلى صوت أكمامه وهي تتمزق ، فتَسرق الأشعةُ أسراره المعطّرة وتلقِي بها على جوانبه .

وفاح العطر من أعماق زيناتَ حتى وصل إلى أنفها

فأسكرها . وفى غمرة هذه السكْرة حدثها بكل شىء . فلما انتبهت أيقنت أنها بدأت تدرك .

ورجعت بها الذكرى أربعةَ أعوام ، حين كانت تجلس ومختاراً فى هذه الحديقة ينسقان الزهر الذى جمعاه فى البكور ، وينْظمان منه عقوداً تُحَلِّى بها جِيدها . يومئذ كانت تحس فى جواره كأن شيئاً يَسرق روحها . وعندما سافر خيل لها أنها شيعت هذه الروح ، وصامت عن الأكل أياماً دون أن تدرى لمن نذرت هذا الصوم . كانت لم تلمس بَعْدُ الداءَ الذى تنتابها أعراضُه . كانت كبرعمٍ معصب العينين ، يرتعش لنسماتٍ لا يراها ، ويهشُّ لأنداء يجهل كنهها .

ولكنها الآن تفتحتْ ، وراحت تبصر المغنطيس الذى طالما جذب قلبها وكاد يقلقله من موضعه . ومَثَلَ أمامها مختار . ولأول مرة لاحظت أن له قواماً جميلا ، وعينين تَنفثان السحر . وإذ كانت قد شيعت روحها فى أثره ، فإنها الآن لَتُحِسُّ بأن عوْدته قد ردَت إليها روحها .

وبَيْنَا هى جالسة تفكر ، لمست ثغرَها فَراشة واختفت على الأثر · وخيل لها أن هذه الفراشة ليست إلا لمحة فرت من ثغر مختارٍ الباسم ، وسافرت عَبْرَ البحار إلى فمها وزاغت فى ثناياه ، ثم استقرت بصدرها الذى يتناوح الشوقُ فيه ، كشمعةٍ مضيئة تتذبذب فى مَهَبِّه .

وكأنما خدشت هذه الفكرة حياءها ، فجرد للذود عن نفسه جيوشاً من الدمِ راحت تنثر الورد على خدها . وكما يَخِفُّ الندَى ليكلل الأزهار ، طفرت الدموع من عينيها وأخذت تكلل الورد الذى تَبعثر فيه .

ولم تكن هذه الدموع حباتِ اللؤلؤ التى تتزين بها لتستقبل دنياها الجديدة ، بقدر ما كانت قطراتِ الشجن التى راحت تذرفها على فراق دنياها الأولى . وهكذا كانت على رغم انتشائها بالضياء ، تحنُّ إلى عهد الغمض وتغبط البراعم المغْمَضَة ، التى لم يَنزع النورُ برقُعَها بعد ويستبيح الأسرار المخبأة تحته . فراحت تأخذ من العطر الذى كان يفوح من مباسمها ، وتلقى إلى

الرياح لتحمله إلى أراضى النسيان . ولـكنها كانت كلما ألقت إليها بنفحة ، فاحت من قلبها نفَحات ، فسدَّت أنفها لـكيْلا تشم ، وأخفت عينيها لئلا ترَى .

وأحست كأنما تنوء بعبء ثقيل . وأى عبء أشق من أن يُدلّـه قلب ! كانت تفهم بالغريزة أن طـائر الحب لا يغنّى وحده ، فراحت تتساءل عما ينتوى الأليف . وهل يختارها لتشاركه الشدو ، أم يَمزج أنغامه بأنغام طائر آخر ؟ وفى هذه الحالة هل تغنّى أم تنوح ؟

ثم إن فى الحب إثماً إذا لم يُشْهِدا الله عليه . وما ينبغى لها أن تفعل فى السر ما تستحيى من الجهر به . ولم يكد تفكيرها يتجه إلى هذه الناحية ، حتى تفتّح خيالها عن دنيا من الأحلام . فلاح لها وكْرُ الهناء . ولاحت لها يد المأذون وهى تبارِك طائريه .

ولـكنها لم تلبث أن قلَّبت يديها فى يأس . كان ثمة شىءٌ فى حياتها يجعلها تتوجس خيفة من المستقبل . وقفزت إلى فكرها « جُلْـفدَان » ، أختها العانس الدميمة . ورأتها وهى تَنبت كشوكة مهجورة فى حوضٍ

للزهور . وودت لو كرهت من أجلها الفَراش الذى لا يَعطف على الشوك . فأنشأت تحدث نفسها وتقول :

— محال أن أقيم إلى شفتىِ الكأس التى حُرِمَت شرابَها أختى . نعم ، لا أنا أرضَى ولا الأهل يرضون . وإذَن فما دمامة جلفدانَ إلا حرب علينا معا .

وتمنت لو باعت نصف عمرها وأتت لشقيقتها بخاطِب . ولكنَّ الأزواج لا يُشْتَرون . وأشكل عليها الأمر ففزعت إلى ورعها التقليدى ، وراحت تبتهل إلى الله أن يحل عقدتها . وعندما فرغت من صلاتها ، كانت قد غمرتها سَكينة الإيمان .

. . .

وإنها لتجيل بصرها فى الحديقة ، إذ لمحت من خلال الغصون التى تعرش على السياج ، ذَيْنِكَ الفتى والفتاة اللذين اعتادا أن يمرا من أمام منزلها فى الأبكار والأصائل ، فيثيرا فضولها بما كان يغمرهما من سعادة تنمُّ عنها نظراتهما الحالمة ، وهمسهما الذى كان يتناهى إليها رشاشُه كما لو كان نُبَذاً اقتطعتْها النسمات من حفيف غصن بعيد .

لم يكُونا من سكان الحى ، وإنما كانا يقصدان إليه من حى ناء ، فيمن يقصده من الرواد الذين يبغون النزهة فى طريقه الحلوى الرائق ، الذى يشرف على النيل فى أبدع مجاليه .

كانا فقيرين . فالفتى قد مات أبوه من زمن ، ولم يخلِّف له من متاعٍ سوى ذلك المنزل الذى يقيم مع أمه فى طبقة منه ، ويؤجر الأخرى « لأحمدَ أفندى » والد فتاته الحسناء . ومن كراء هذه الطبقة الضئيل ، وكراء الحوانيت التى تتْبع البيت ، كان يقتات « مصطفى » هو وأمه الأرمل العجوز . أما الفتاة وكان اسمها « عفاف » ، فلم يكن أبوها إلا موظفاً صغيراً بإحدى الشركات ، لا يكاد يكفى المرتب الذى يتقاضاه منها نفقاته الضرورية .

وكأنما ألَّف الضنك المشترك بين الأسرتين ، فانعقدت بينهما أواصر صداقة متينة ، سمحت للفتى والفتاة بالاختلاط فى أى وقت شاءا كما لو كانا أخوين .

وكان من أثر هذا الاختلاط أن لمَس الهوى قلبيهما تلك اللمسة السحرية ، التى تُشيع من خدَرها المقدس فى

القلوب ، ما يجعلنا نحس معه الحياة كما لو كنا تحت تأثير حلم لذيذ .

ولكنْ لمّا كان الوقار من طبعهما ، فقد جاء حبهما من ذلك النوع العذرى المكتوم ، الذى يُؤْثِر الانطواء على الجوى على التنفيس عنه بالغزل غير المباح . فكانا كلما التقيا على الضنى فنهاهما الحياء عن البوح ، شرحا ما بهما بنظرات كلها صبابة ، ثم افترقا وفى قلب كل منهما نار تستعر .

وكان مصطفى ينتظر بفارغ الصبر إتمام دراسته الجامعية ، ليتحرر من أكبال فاقته المرهقة ، وليسقِى براعم الحب النابتة فى قلبه بالزواج من عفاف ، كيما تتفتح وتنضح حياته بالعطر . فكان لهذين الحافزين أثرهما فى إذكاء حماسته ، فراح ينكبُّ على استذكار دروسه فى صبر ودأب . ولمّا كان إلى جانب ذلك متقد الذكاء ، فقد جاز امتحانه النهائى بنجاح ، وكان ترتيبه الأول بين أبناء فرقته .

وطار الفتى فرحاً بهذا الفوز ، وأيقن أن المستقبل بدأ يبسم له ، وأن وقت الفرج قد حان . وأخذ يستمع إلى

صرير أبواب سجنه وهى تُفْتَح ، فيُشْرف منها على عالم طليق ، كله رياضٌ غَنٌّ ، تزدحم أغصانها بالزهر والفاكهة ، وتمرح فى أجوائها الطيور الغرِّيدة .

وتحت تأثير ثقته بالمستقبل ، وخوفاً من أن يسبقه غيره إلى عفافَ معبودة شباب الحى بأسره ، بادر إلى التقدم لخطبتها . ورحب والدها بهذه الخطبة ، لِمَا كان بين الأسرتين من ود قديم ، ولِمَا كان يتكهن به من مستقبل باهر لجاره الشاب النجيب .

وبعد أن أتم قراءة الفاتحة مع أحمدَ أفندى ، لم يَبْدُ أنه كان على وجه الأرض أسعد من الفتى ومخطوبته ، وقد بدآ يقربان إلى شفتيهما الكأس التى لبثا سنينَ طوالا يرنوان إليها فى ظمأ .

ومذ عقدت خطبتهما ، كانا كثيراً ما يخرجان للنزهة على ضفاف النيل مارين بقصر زينات ، حتى إذا ما تمَّت لهما الخلوة فى جوار شجرة تحجبهما عن الأنظار ، أطلقا العنان لأحلامهما ، وراحا يرقبانها تارة فى الفجر الوردىّ وتارة فى ذهب الأصيل .

وكانت زينات لا تكاد تلمحهما حتى تحس نحوهما بحنان خفي طالما حارت فى تعليله ، فتظل تتابعهما ببصرها وهى تبتسم إلى أن يغيبا عنه .

وتوالت الأيام وزينات يأخذها الطرب كلما مرا بالقصر ، حتى لكأنها أصبحت كوكباً يدور فى فلك سعادتهما . إلى أن كان ذلك الصباح الذى تفتح فيه قلبها وراح يبصر من الأضواء ما كان محتجباً عنه ، أدركت سر تلك الألفة المبهمة التى تربطها بذلك الزوج السعيد من الناس ، بالرغم من أنه لم يسبق لها به معرفة . ذلك أنها رأت فى منظرهما يومئذ ولأول مرة تأويلا لتلك الرؤى المختلطة التى كانت تطيف بقلبها مذ كانت حدثة ، كما سمعت فى نجواهما تعبيراً عن نغمات كانت ما تنفك تجيش بصدرها حبيسة ، ولا تجد القوس الذى يخرجها إلى الوجود .

فلما أدركت ذلك ازدادت شغفاً بهما ، ولم تملك حين وقع نظرها عليهما إلا أن لوحت لهما بيدها محيية ، ثم عادت وهى أخجل ما تكون لإقدامها على هذه الفعلة

الجريئة ، ولبثت وقتاً غير قصير قبل أن تهرب الحمرة التى صعدت إلى خدها .

أما العاشقان فلم يتمالكا أن أوما لهذه الفتاة الظريفة ، التى طالما لفتت نظرهما وغبطاها على جمالها وغناها . ثم واصلا سيرهما ، تشيعهما بين آنٍ وآن نظراتُ زينات وهى تنساب متواريةً بين تلافيف الشجر .

الفصل الثانى

فى الوقت الذى كانت فيه زيناتُ فى الحديقة ، كان أبواها يتشاوران فيما ينبغى أن يكون عليه الاحتفاء بمختار . واستقر رأيهما على أن تستقل الأسرة قطار المساء إلى الثغر ، فتبيت فيه ليلتها ثم تستقبل سوسنَ فى الصباح ، وتعود بالقادم فوراً إلى القاهرة .

وهنا قال « رمزىٌ باشا » :

— حالَما تنتهى أيام الضيافة ، يجب أن تسافرى إلى الضيعة بحجة تبديل الهواء ، وتصحبي معك زينات .

ورفعت « شريفةُ هانم » حاجبها متسائلة ، على حين استطرد الباشا :

— على أن مُقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثما يبحث مختارٌ له عن سكن خاص . وأظنك معى فى أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن ، وفى البيت عذراءُ فى جمال زينات . أجل ، فيما مضى كانا فَرْخَيْن لا خوفَ عليهما

من الجِـوار ، ولـكنّ الحمامة نَـبَت ريشها ، كما برزت مخالب الصقر ، وما أظن أن عشاً واحداً أصبح يصلح لإيوائهما .

وكانت مفاجأةً للسيدة راحت بعدها تقول :

— ولـكنْ ألا يحزنك بُعْدُ مختار ؟ ألم يكن بمثابة ابننا ؟ ألم يَـسِلْ لطفولته حنانُـنا ؟ كيف نتخلى عمن احتضناه صبيا فى المهد ؟

— لأننى لا أريد أن أتخلى عن ابنتى . لقد أدينا واجبنا وربينا الصقر مع الحمامة ، فبقى علينا واجبٌ آخر ، هو أن لا ندع الحمامةَ يأكلها الصقر . ولعله من حسن الحظ أن مختاراً لم يعد بحاجة إلى حدبنا بعد أن كملت رجولته . كما أنه غنىٌّ عنا بما ورثه عن أبيه .

— أراك تسرف فى الاحتياط يا رمزى . أنسيت أن لزيناتَ من ورعها تميمةٌ تقيها نَـفَثات السحر ؟

— لا شىءَ بقى من السحر على الإطلاق . حتى التمائم التى تُـجْـدى مع الجنّ لم تُـجْـدِ معه . ذلك أنه أحمى من الجِـنَّـة أنفاساً وأسطع لهبا . وصرعاه يستدرجهم نوره

حتى يحرقهم فيه . مثل الفَـرَاش يجذبه المصباحُ إلى حتفه . فلا سلامةَ إلا فى البعد عنه وإن شقّ البعاد . ومن أجل هذا اعتصم النساك بالجبال ، لأنه كان من غير الممكن أن يَعْصبوا أعينَـهم أو يقاوِموا . ذلك هو السحر لا ينجو من نفْثه أحد . بل لعل أكثر الناس تعرضاً لغزواته الورعون . لأنهم لا يتنفسون فتنتفخ صدورهم بالشوق الحبيس ، وعندئذ تكفيهم غمزة إبرة ليندفع بيغِى المتنفَّس . فعلَى الورِع قبل سواه أن لا يَرى ، إذا رغب البقاء فى محرابه . وإلا فما أسهل أن يخرجه الحسنُ من معبده ، كما أخرجتْ حواءُ من الجنة آدم . وأنا أعرف رهباناً أحبوا ، وآخرينَ ماتوا شهداء غرامهم . ومن ثم نخيرٌ لنا أن لا نضع النار بجوار الحطب ، من أن نجمع بينهما ونقول للحطب لا تحترق .

وجذب الباشا نفساً من لفافته ثم استطرد :

— ومما يجعل المباعدة بين الطائرين أوجب ، ما كنت ألْمحه من دلائل الوجد فى عينىْ مختار . لقد كانت نظراته تنطق بأنه ذاب فى سحرها . وعندما سافر لم تَخْفَ عني

يُرَحَاوُه . وما طمأننى إذ ذاك إلا علمى بأن قلب زينات كان يتحصن وراء طفولته ، فكانت صبابات الفتى تَفنى عليه قبل أن تخترق شغافه . ولولا ذلك ، وما كانت تلمسه عيناى الخبيرتان من دلائل الطهر فى حب مختار ، لفدح الخطب وجُنَّ جنونى خوفاً على ابنتى . ولعل مخاوفى تلك هى التى جعلتنى أُزين له إتمام دراسته فى لندن ، بحجة أن الاغتراب يزيد فى اطلاعه . آه ، ما أشد فجيعتى فى حبه ، حين ثارت نقمتى عليه !

فهتفت السيدة فى استنكار :

— ولكنك لم تكاشفنى بذلك فى حينه !

— ما أحسب أنْ كانت بكِ إلى مكاشفتى حاجة . فعهدى بالنساء أقدر منا على كشف خفايا القلوب .

— هب ذلك ، أفما كان يجب أن تشاورنى فى الأمر؟

— كلاَّ . لقد فضلت حَذَرَ الخلاف أن أستقل بحسمه . فأنكن معشر النساء أقل بصراً بالعواقب ، وإن كنتن أسرع فى الفهم .

— أراك كثير التوجُّس من هذا الحب .

— ذلك ما ينبغى .

— ولكنْ عَلامَ الجزع والنبتة قد غُرست فى أرض طيبة ؟ أيمكن أن تُنتج إلا الريحان بذرةٌ نَمَتْ فى قلب هذين الطاهرين ؟

— وهذا ما أجزع منه . لأن هذه النبتة لن تداعبها النسمات . إن العواصفَ لَتترصدها لتقتلعها من أرضها غضَّة ، وتَذْروها فى الفضاء أشْلاء .

فسألته وقد تجهم وجهها :

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن الشقيين هيهات أن يجمع بينهما رباطُ حلال .

— ولمَ ؟

— فكّرى قليلا . اذكرى جلفدان .

وراح يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة . على حين امتقع وجه السيدة ، لأنها تذكرت أمراً طالما فرت من مواجهته . أما الرجل فما لبث أن تابع حديثه قال :

— أجَل ، إن زواجهما محال قبل أن تتزوج

جلفدان . لحرامٌ أن نقيم عُرْساً فى بيتٍ به عانسٌ تتشوّف .

فقالت كمن تتعلق بخيط واه :

— ولـكنْ فى وسعهما أن ينتظرا .

— الانتظار يَشُفُّ المحبّين إذا عَفُّوا ، ويهوى بهم إنْ تبذّلوا . ما ينبغى أن تطول الفترة بين شبوب الحب والزواج .

ثم استطرد وهو مطرق كمن يحدث نفسه :

— إىِ والله حرام ، أن تـكون الصغرى العروسَ ومن تـكْبرها متفرجة . لهفى عليك يا جلفدان ! لَـكأنى بك عندئذ وأنت تنصتين إلى موسيقَى الزفاف ، قد انقلبتْ أنغامها نائحةً فى نايك الحزين ، فانتحيتِ بنفسك فى ركنٍ منعزل ، وأخذتِ تستمعين إلى وَلْـوَلَـته وحدك . وكأنى بهاتيك الشموع المُـوقَـدة بدلا من أنْ تُفْرح قلبك ، قد عَكستْ عليه من دون القلوب ظلالها السود ، وأقامت فى نواحيه مأتما . كلا يا ابنتى . يا طائراً خُلق بغير جناح ، ويا قلباً يَدقُّ بلا أملٍ ، لن أعترض بالأفراح جنازةَ أملك .

ولَنلبسنَّ عليه الحداد حتى نموت ، أو تنقلبَ الجنازة عرساً بمعجزة .

. . .

وفى هذه اللحظة دخلت جلفدان . كانت تَسقط على وجهها الشاحب ، تلك الأشعةُ الصفراء التى تُسيلُها الآمالُ الغاربة . وكان فى نظراتها الذابلة ، ذلك المعنى الفانى الذى يوحى به المغيب . لم تكن فى النبات بزهرة ، ولكن كانت لها رغبات الزهور . فكانت تنظر إلى الزهور المدللة وتتحسر . وكانت كلما لاحت لها منهن جميلة ، أحست بجرح يدمِى كبرياءها . فانتبذت من الزهر مكاناً قصِيّا . وكانت تمرّ بها فى عزلتها الطيور ، فلا تقف ولا تتمهل ، وسرعان ما تختفى آخذة معها لبّها . كان كل شىء يوليها ظهره ، لأنها لم تكن تسترعى انتباه شىء . وكانت الآمال تولد فى يديها مفقودة ، لأن كل شىء كان يمضى سريعاً فى حياتها . عدا أيامها المملة ، فهى الوحيدة التى كانت تبطئْ . فكانت حياتها كليْلةٍ لا فجْرَ لها . فلما طال بها الانتظار ، انعقدتْ بينها وبين السأم صداقة ، حتى

لكأن الكآبة قطعة من ملامحها . كانت تمثالا ناطقاً للصبر والعذاب . وكانت فى وجومها وصمْتها أشبه شىء بتلك التماثيل الحجرية ، التى ترمز إلى فكرة ثابتة لا تتغير . فكان الناظر إليها يخيل له أنها ليست إلا تمثال امرأة ماتت من زمن . وفى الحق أنه من التجوُّز الكبير أن نعتبر جلفدانَ من الأحياء .

وسألتْ العانسُ فى صوت حزين :

— أحقاً أبتاه أننا سنسافر اليوم ؟

وأجاب الوالد الشقى بابنته :

— نعم ، فى قطار المساء .

وعادت تسأله :

— ومتى يصل مختار ؟

وفاهت باسْمه ، وبدا أنها تتعذب . لقد كان أحدَ الآمال الغاربة التى مرت بها واختفت فى وادى العدم . لقد عَبَر بها كسواه من الآمال ، ولكنها كعادتها نفَّضت يدها منه قبل أن تحاول إمساكه . كانت تشعر أن الحب محرم عليها ، فلم تقربه ولم تحترق بناره ، ولكنها

كانت تـكتوى بنار أخرى أشد لهبا ، هى نار الظمأ إليه . وهى نارٌ صفراءُ كالعذاب المرتسم على وجهها . خالية من ذلك اللون الدموى الذى يصبغ نار الحب ، وينْبئُ عن ثورة وحياة . نارٌ كالمغيب كلها موت .

ورفع الوالد إليها بصره ، وأخذ يعبُّ من ذلك الألم الذى تعانيه ، وكأنه يكفِّـر عن عجزه أمام دمامتها . ثم أجاب :

— فى صباح الغدِ تصل الباخرة .

— حسناً . هل أهيِّئُ معدات السفر ؟

— نعم يا ابنتى . باركك الله .

ثم أدنى فمه من جبينها الـكابى ، وفى قبلةٍ نائحة كتلك التى تطبعها الريح على غصن ذابل ، سَـكب فوقه حسراته .

. . . .

.. وخرجت جلفدان . وسادت فترة صمت ، راح فيها والداها يتبادلان النظرات الـكسيرة . ثم قالت شريفةُ هانم وهى تمسح دمعها :

— وهل تصحبنا جلفدانُ إلى الضيعة ؟

وأجاب الباشا :

— الأمران سيان . جلفدانُ هنا أو هناك فى مأمن .

قال هذا وأحَس بأنه خدش كرامة ابنته . لقد صرح بأنها أهون من أن يلحقها أذى . وغُصَّ حلقه بهذه الجملة التى فاه بها عفوا . وزاد من ألمه أن الضحية كانت غائبة ، ولا تستطيع الذود عن نفسها ولو بنظرة عتاب . على أنه تذكر أنها لم تكن مما رماها به فى نجوة ، وأن الكل فى لحمها ينهشون . فأدرك أن الجرح الذى بها قديم ، وأن الأقدار قد سبقتْه إليها به . ومع ذلك فقد ندم على أنه اشترك فى طعنها . كان يود لو تعفف هو على الأقل عن ذلك . فنهض وهو محزون الفؤاد ، وجعل يصعّد الزفرة تلو الزفرة ، كأنما ظن أن الزفرات تقتلع الهموم .

. . .

والتقى بزيناتَ فى البهو . كانت فى نضارتها تحكِى الغصنَ الرطيب . وكان السحر من حوْلها كالسنا من زهرة .

كانت بمثابة ترضية من الطبيعة عما حرمته أختها .

ورآها وكبّر لله . وخاف عليها من نفث العقد ، وهمّ بأن يتلو فوقها التعاويذ . وأحسّ بأن جمالها يكلفه من رعاية الأب الكثير . ولكنه لم يأسف ، فكأيّ من أب سيم الأذى من ابنه وهو قرير .

ثم قفزت إلى ذهنه جلفدان . كانت كفسوخة في جبين أختها . فراح لسان حاله يقول :

— واحسرتا ! يعوزها الجمال الذى يكبدنى السهر عليه ! ألا ليته لم يعوزها وكبّدنى ، ألا ليت !

ومثلت أمامه ابنتاه . فأشفق على جلفدان من الجراح التى يحدثها بها جمال أختها ، وتمنّى لو لم تكن زينات ابنته فكرهها . ثم عاد فأشفق على هذه وقد جرجرها نحس الأخرى فى ذيوله ، وتمنى لو لم تكن جلفدان ابنته فكرهها . وهكذا حار أىّ الابنتين يحابى ، وعجز عن الفصل فى قضية كلا الخصمين فيهما ولد له .

ولم يكد يفيق من خيبته ، حتى أمسك بخناقه ذلك

الإشكال الآخر ، الذى بدأ يحتل له مكاناً من فكره مذ أزفت عودة مختار ، وهو كيف يقصيه عن بيته حينما يعود ؟ هل يصارحه بالحقيقة على ما فيها من غضاضة ، أم ينتحل له سبباً آخر ؟ وفى هذه الحالة ماذا يكون ؟ فلما لم يوفق إلى حل ، انصرف عن التفكير فى ذلك أيضاً ، وترك حله للزمن .

الفصل الثالث

وسْط ضباب الصباح ، كانت تسير الباخرةُ سوسن . مختالةً تحت علَمها المصرى .

وكان بين الوقوف على ظهرها شابٌ يخيل للناظر إليه أن عينيه تخترقان الحُجُب . كان يبحث عن شىء فى الغيب ، ويود لو بمعجزةٍ رآه . ولعل النور غيْر المنظور الذى كان يبعثه هذا الشىء فيبْلغ قلبَه ، أصدق دليل على أن المعجزة تحققت .

ولو أنك تعقبتَ حبل النور الذى كان الفتى مشدوداً إليه ، لرأيت فى نهايته شيئاً عجَبا : فتاةً فى ربيعها الثالث عشر ، جالسة إلى فتى فى عامه العشرين ، ينسّقان الزهر فى بستان . وفجأة تمر فوقهما أربعة أسراب من العصافير ، فتحجبهما كما لو كُنّ أربعَ غمامات . ثم تنقشع الغمامات فإذا الفتى والفتاة كلٌّ أكبر من سِنّه بأربعة أعوام .

وأوّلَ الحالمُ رؤياه فكان هو الفتى وزيناتُ الفتاة .

وكانت العصافير السنين . فقال يحدث نفسه :

— إذَن لقد كبرت الحسناء الصغيرة ، ونفَضَت السنونُ أنوثتَها . وها هي ذي تفور على جسدها كما يفور الزَّبَد على حِفَافِ الكأس ، وتنبثق منه كما تنبثق الفاكهة . وآية ذلك صوتها الجياش ، وصدرها الناهد . وأراها وقد تعلمتْ من الدل ما لم تكن تعلم ، وزادت سهامُ عينيها مضاء .

وتوقف ريثما يبتسم طرباً ، ثم استطرد :

— بروحى أنت زينات ! فلْتجرحنى كما شاءت سهامك ، فمنذ سنينَ أشتاق لهٰذِى الجراح . ولكنْ ماذا من أنباء قلبك ؟ أتعلَمَ الهيَمان وبمن يهيم ؟ أبمن كتَم فلم يَخْفَ عنك سره ؟ أم بسواه لكِ بالسر باح ؟ أم ما برحتِ خليَّة القلب كما خلَّفتك ؟ وعندئذ فمن السعيد الذى سيشغله ؟ وهل أكون أنا هذا السعيد ؟

وجعل يفكر : منذ سنينَ كان يمسك فى مصرَ كأس الهناء ، ويوشك أن يدنيها من فمه ، فإذا بالقدَر ينتزعها منه قبل أن تمسها شفتاه . فهل ضنَّ الزمان

بها عليه والزمان ضنين ؟ أم أنه أرجأها ليوم لم يكن حان ؟ كان يتحرق شوقاً لأن يعرف . وخيل له أن السفينة تبطئ في السير . وود لو استحثها لتسرع ، أو استعار للوصول جناح طائر .

. . .

وفى الضحى دنت سوسنُ من الثغر . ورآها المستقبلون منه كنقطةٍ من دُخَان . ودَقَّ قلبُ زينات دقًّا وحشيا . وخيل لهـا أنها تعتقل فى صدرها طائراً بريّا ، وأنه ما ينفكّ يَضرب بعنفٍ أسلاك القفص ليحطمها ويخرج .

ومن مكانه أخذ مختارٌ يصوب بصره إلى الشاطئ . وكان يرسله بحدَّة ، لعله يَختزل تحتـه المسافة الباقية ويسقط على الأشباح البعيدة قبل الأوان .

. . .

ووقفت السفينة بعض الوقت ريثما تُتخذ إجراءات الشرطة . وفى هذه اللحظة تمنى مختارٌ لو وصل إلى البر سبْحا . وبعد مدة خالها سنين ، واصلت سوسنُ السير

على مَهَل ، كأنها عروس تتهادى فى مشيتها . ودق قلبُ زينبَ مرة أخرى ، وأجابه من البحر قلب مختار .

. . .

وظلت تقترب وكلاَ القلبين تسرع دقاته ، إلى أن أصبحت على مسافة بدأ معها الركاب يميزون وجوه مستقبليهم . ولمح مختارٌ بينهم ضوءاً يسطع ويختفى كأنه خفق نجم . وخاله أول الأمر ألِيقَ خاتمٍ من ماسٍ فى يدِ حسناءَ بدرت منها حركة . ثم تبينه فألفاه زينب ، تلوح فى الفترات بين الجمع . وكانت كما رآها فى حلمه وهو على ظهر المركب ، عروساً مكتملة الأنوثة . وإذن لقد تفتح البرعم الذى خلفه مغمضا ، وأصبح يعرف كيف ينفث سحره مع ورقه ، ويبعث أسراره خلال عبيره . فلم يتمالك أن هتف :

— يا حبها !

لقد فرح بها عندما رآها وقد زادت بهاء ، لأن جمالها كان ينعكس على دنياه ، فيجعلها تبدو حلوةً عَبْره . ولم يجفل منه عندما ألفاه وقد أصبح أقدر على أسْر لبه ،

لأنه كان يستعذب هذا الأسر ، ويرى بين قضبانه عالَماً أفسح من الحياة . ولا هو أشفق على قلبه من الجراح التى كان يزمع إحداثها فيه ، لأنه كان يعلم أن ربّتها ستعيش فيها ، وتنتقل بين آنٍ وآن قدميها المحبوبتين ، على نغم الألم العذب الذى تبعثه .

. . .

ولمحته زينات بدورها . ورفرف بين ضلوعها الطائر . واهتز به غصنه فهزها من الفرع إلى القدم .

. . .

ورست السفينة . وأسرع مختار يهبط الدرج ، ولم يك في هبوطه وئيد الخطا . ثم أقبل يصافح مستقبليه . وكانت زينات آخر من صافح ، لأنه شاء أن لا يلقاها وهو مشغول بالتأهب لتحية غيرها . وكانت هى قد انتحت بنفسها جانباً ، كأنما قصدت أن لا يخلطها بغمار القوم ، وأن يوليها حفاوة خاصة .

وعندما تلاقت عيناهما ، تبادلتا أداء الرسالة التى كانا يتلهفان عليها . وتم ذلك خفيةً وفى مثل لمح البصر .

وهكذا تسعف العشاقَ عيونُـهم عندما يمنعهم الحياء من البوح ، أو يضيّق الرقيب عليهم الخناق . ولقد كانت رسالة وافية ، أجابت عن كل ما راح قلباهما يتساءلان عنه ، وبددت ما كان يساورهما من شك . ولا عجب فلئن عجزت عن التعبير لغة الكلام ، فإن لغة العيون لا تعجز.

وإذن فلقد ارتبط العاشقان أمام نفسهما ، ولم يبقَ إلا أن يرتبطا أمام الله . وما إن وصلا إلى هذه النتيجة ، حتى كان الإجهاد قد بلغ أقصاه بالطائر المرفرف بين جنبيْ كل منهما ، فلَوَى مؤقتاً عنقه ونام ، وبدت آثار أحلامه السعيدة فى عينيهما .

. . .

وفى القطار ، وقف مختارٌ وزينبُ يطلان من الشباك ؛ وكانت النسَمات لا تفتأ تحرك خُصَلات شعرها فتعبث بجفنه ، وتحمل إلى أنفه رائحة العطر المُطَيّبة به . نخيل له أنه يحلم ، وأن هذه اللمسات الرقيقة ما هى إلا دبيب الأطياف التى تداعب كَراه ، وذلك العطر إنْ هو إلا أنفاسها . على حين أخذت زينبُ تبصر فى المروج

الخضراء فردوسها الموعود ، وترى أحلامها الذهبية منثورة على حقول الحنطة المهيأة للحصاد ، وقد زادتها أشعةُ الشمس شبهاً بالذهب .

. . .

وفى النافذة المجاورة لها ، كان يقف شخصٌ آخر يطل على المنظر نفسه ، ولكنّ شيئاً منه لم يلفت نظره إلا اصفرار الشمس التى كانت تنحدر للمغيب ، يشيّعها طنين السواق النائحة ، الذى يبدو كأنه أنين شيخ عليل ، أخذ يتوجع فى خمولٍ خليق بهيكله الواهن . كان هذا الشخص جلفدانَ التعسة ، أثارت عودة مختارٍ فى نفسها ذكرى آمالها الضائعة ، فوقفت ترقبها فى انحدار النهار ، وتستمع لصداها فى نُواح السواقى .

. . .

وكان رمزىٌ باشا لا ينفك ينظر وهو متجهّم الوجه ناحية الشباك الذى كان يقف إليه الحبيبان . ولما طال بهما الوقوف وطال قلقه معه ، دعا زيناتَ لتطالع له بعض الصحف ، وبذلك أراح من العذاب فؤاده .

ولم يجد مختارٌ بدًّا من أن يوجه الحديث إلى جلفدان ، فحدثها حتى أثار شجونها ، ثم لم يلبث أن قادته قدماه إلى حيث ذهبت حبيبته ، فجلس قبالتها يخالسها النظر بين لحظة وأخرى . وفى كل مرة كانت تلتقى فيها عيناهما ، يتبادلان رسالة جديدة ، توثّق العهد الذى أخذاه على رصيف الميناء .

وكثيراً ما كانت نظراتهما تقع فى الفخ الذى كان ينصبه لها الباشا من تحت منظاره ، فيرتبكان فى مقعديهما ويزداد الباشا اقتناعاً بوجوب الحذر .

. . .

ودخل القطار القاهرة مع الليل . وشعر مختارٌ والسيارة تجتاز به مدينة أحلامه ، وتجوس خلال شوارعها المنوّرة ، بأن تلك المصابيح القائمة على الجنبين ، ما هى إلا أطيافٌ لآلاف من الشموع أوقدَتْ بقلبه ، وبأن تلك الضوضاء التى تحدثها المارة ، إنْ هى إلا أصداءٌ لحفل حاشد أقامه فيه . وما إن رأى نفسه عند باب عشه القديم ، حتى طالعه منه عطرٌ معروف لفؤاده ، هو عطر الياسمينة

التى تعرش على السياج . فهمّ من مقعده يترنّح كمخمور .

أما زيناتُ فكان الناظر إليها وهى تهبط من السيارة ، يَرى على رغم الظلام طيفَ ابتسامة ارتسمت على ثغرها . ذلك أنها لمَحت العاشقين الفقيرين يسرقان بعض الياسمين المطل من خلال القضبان وهما عائدان من رحلتهما اليومية ، كما يَسرقان خلواتهما من عمر الزمان . فطربت لهذا الضرب البرىء من السرقة . ورقصت لعينيها ساعاتٌ حلوة مماثلة ، تمنت لو سرقتْها هى الأخرى وعاشتها .

وإذ ولَجَ مختارٌ باب القصر ، راح يطوف بحجراته حجرة حجرة ، يستلهمها ذكريات هواه حين كان فى فجره ، ثم انتظمه المجلسُ الذى انتظم زيناتَ وأسرتها .

ما أسعده ! إنه الآن معها فى مكان واحد . يستطيع أن يُغْرِق على لحْظ عينيها الناعس فى كل وقت ، ويسكر على نغمات صوتها الحنون . ومما يزيد فى قيمة هذه السعادة ، أنها جاءت بعد ظمأ أعوام ، وتبشّر بما هو أعظم . ذلك أن نظرات الفتاة إليه — تلك النظرات المفعمة صبابة — كانت بمثابة خيوطٍ من الرجاء يَرى فى نهايتها حلمه . كما

كانت بَسَماتها له ، كنوافذَ تتفتح أمامه عن ذلك المستقبل الجميل ، الذى يتألق وسطه عشُّ الزواج ، وقد بدا وكأنه مشيَّدٌ من بِلَّوْرٍ ، أو من نورِ فرْحةٍ فرت من قلب . بهذا راح مختارٌ يناجى نفسه . وكثيراً ما أذهلته نشوة السعادة التى كانت تغمر قلبه ، عن حديث عمه الطويل ، والأسئلة الكثيرة التى كانت زوجته لا تكفُّ عن إلقائها .

وعندما أوى إلى مضجعه ، لم يغْمض له جفن . ولو أن عينيه شقَّتا الجدران ، لألفى زينباتَ مسهَّدة فى مضجعها مثله . ولكنْ بما أن النوم يقصى الحبيبَ عن فكر الحبيب ، وإنْ زوَّر عليه أحيانا فى الرُّؤَى طيفَه ، فقد بدا على العاشقَيْن أنهما سعيدان بسهدهما .

الفصل الرابع

فى صباح اليوم التالى للعودة ، بكَّر مختارٌ فى النزول إلى الحديقة ، فهبطها وما تزال الأنداء تُخَضِّل زهرها ، وفلولُ الليل تلثِّمها بالضباب ، ثم قصد إلى المقعد الذى اعتاد أن يجلس عليه هو وزيناتُ أيام طفولتهما .

وكان هذا المقعد يشرف على بِرْكةٍ منعرجة الشواطئ ، تنتهى إلى غدير يسير ملتوياً وسط مساحات « الجازون » الشاسعة . وكانت تَنبت فيها حُزَمٌ ملتفة من أعواد الخيزران ، تبدو على سطحها كأنها جُزُر . وكانت كلما تجاورت منها مجموعتان ، انحصر بينهما مجرى يغيب ماؤه وراءهما ، فلا تدرك العين منتهاه . فكان مما يزيد فى جمال هذه البركة ، أنها لا تدعك تبصر آخرها ، فيظل أمامك دائماً شىء تتوق إلى أن تراه ، وتستطيع أن تتلهى بتصوره . وكثيراً ما كنت تلمح بطة تمرق فى مجرى وتختفى خلف جزيرة ، فلا تملك إلا أن تتابعها بخيالك

إلى حيث اختفت ، وترسم لها من الصور ما حلا لك . فكنت أيان جلست إلى هذه البركة ، تفتحت أمامك آفاق من التأمل لا حصر لها .

وفى كلٍّ من البركة والغدير ، كانت شجيرات اللوتس تخترق بسيقانها الماء ، ثم تطل بزهرها على سطحه ، فيبدو كأنه مرصع بأحجار كريمة . وكان مألوفا أن تبصر على زهرةٍ من هذه ، عصفوراً واقفاً يترجح فوق الماء ، وفجأة ينشر جناحيه ويطير . أو سَرِيَّةً من النحل تحُوم حولها وتَئِزّ .

. . .

إلى هــذه البحيرة جلس مختار ، وأخذ يترقب حضور زينات ، كأنما كان بينهما موعد . لقد كان يتلهف إلى جلْسةٍ معها على هذا المقعد بعينه ، يَصِلُ بها ما انقطع من ماضيهما ، ذلك الماضى الذى كان يحفظ له فى نفسه أعز الذكريات .

فلما انقضى وقت طويل ولم تحضر ، عزا ذلك إلى خجلها ، وراح يحن إلى عهد طفولتها البرىء ، أيامَ لم

يَحُـول دون لقائهما شيء . وتمنى لو عاد به الزمن إلى الوراء أربعة أعوام ، ورأى نفسه جالساً إلى جوارها دون تحفُّـظ ، يلعبان ويمزحان تحت سمع الأهل وبصرهم . وبدأ يشـعر بأن تَرعرعها وإن كان قد أنمَى في طريقهما الورد ، قد أنبت الشوكَ فيه .

ولـكنْ ، هل كل ما كان يمكن في الماضي أصبح يستعصي الآن ؟ إنه يستطيع على الأقل أن ينْـظم لهـا عقداً من الياسمين كما كان يفعل ، وبهذا يُرضي بعض كلفه بهذا المـاضي الحبيب . وقام فجمع حفنةً من زهره الأبيض ، وجلس ينضّـدها في خيط أعدَّه من سَـعَفِ النخل .

وكان بين حين وحين يرهف السمع لعله يَسمع وقع قدميها فوق مماشي الحديقة ، كما كان يسمعه أيام كانت طفلة تَرْكَبُ رجْليها وقتما تشـاء ، ولـكنّ هاتين القدمين اللتين أصبحتا أرزن من أن توافياه في كل وقت ، طالت غيْبتهما عليه ، وأبتا أن تُـسمِعاه أحلى نغماتٍ دقّ لها قلبُـه . واستبد به الشوق . وتصورَّ قدميها ،

وكم هما صغيرتان وجميلتان ، وود لو يقبّلهما ويبكى .

. . .

وفى هذه اللحظة أطلت زينات من الشرفة ورأته وهو ينظم العقد ، فأدركت أنه لها وراحت تبتسم . لقد سرها ما رأت من اشتغاله بشأن لها . وتاقت إلى أن تنزل إليه وتتناول بنفسها العقد ، ثم تدعوه إلى أن يُلبسها إياه ، كما عوّدها فى سنين خلت . وألفت قدميها تسوقانها فعلاً إلى حيث يجلس ، ولكنّ الحياء عاودها فرجعت أدراجها إلى مكانها من الشرفة . ولو ذهبت لسبقها الحراس إلى هنالك ، لأنها كانت مذ عاد فتاها محوطة برقابة ما برحت تجهلها .

وكان مختارٌ قد أكمل تنضيد العقد وجعل يتأمله . وبحركةٍ غريزية راحت هى أيضا تتأمل جيدها ، وكأنها تُعِدُّه للبسه .

. . .

وحانت من الفتى نظرة إلى أعلى فرآها وأدرك من ملامح وجهها أنها ترقبه من زمن . فانتفض فى مقعده

كمن لمسته كهرباء ، وعجب كيف كان من الغفلة بحيث لم ينبهه نورها الوهاج ، وأرجع ذلك إلى الفتور الذى أصاب أعصابه من طول ما انتظر .

ولوَّح لها بيده محيِّيا ، فردت له التحية بإيماءة عذبة من رأسها الصغير . ثم أشار إليها أن توافيه ، ولكنها هزت كتفيها برشاقة وظلت حيث هى .

وكأنما كانت هذه الحركة بمثابة نداء حارٍّ ألهب الجذوة فى قلب مختار ، إذ لم يلبث أن وجد نفسه وقد نهض من مكانه وأخذ يصعد إلى الشرفة ويتقدم نحوها .

ولم تكد تراه حتى حدَجته بنظرة حادة ، هى مزيج من اللوم والترحيب ، وكأنها تقول له :

— لماذا حضرت ؟ إنها جرأةٌ منك . غير أنى أشتهيها .

وصافح يدها البضة . وود لو رفعها إلى فمه فلمستها روحُه الظمأى ، تلك الروح التى كانت وقتئذ قد بارحت وكْرها وطارت ترفرف بين شفتيه . ولكنه ألفى نفسه يرخيها فى حزن ، لأنه لم يشأ أن يكون لصا . حقيقة أن

الفتاة تَهَبُ قلبها حين تُحِب ، ولكنّ جسدها يبقى ملك شرفها . وهو يظل كذلك حتى يتسلمه حبيبها على يد المأذون.

بهذا ناجاه ضميره . غير أنه ما لبث أن راح يتساءل :

— ولكنْ ما لِلقبلة وللجسد ؟ إنِ القُبَلُ إلا تحايا الروح للروح . فى روحى ، أحسُّ فعْل الجاذبية مذ شُغِلْتُ بزينات ، فلا بد أن يكون فى روحها سِر المغنطيس . فأنا إذ أقبّلها أقبّل هذا السر . أقبّل الروح .

قال هذا وعاد يرد على نفسه :

— ولكن أكانت تَشُوقنى القبلة لو لم تكن يدها بهذا الجمال ؟ أفَلسنا إذَن نقبّل الجسد فيما نقبّل ؟ حقيقة أن الأرواح تتلامس ، ولكنها تتلامس خلال الأجسام . وهى لا تنفذ إلا خلال أجسامٍ جميلة ، فيها من الشُّفوف ما يمكّن للإشعاع . فكأن للجسد دوراً يلعبه . وكأنه وقد حوى عطرَنا بمثابة الورق من زهرة . ومن ثم فنحن نقبّل الجسد مع الروح . نقبّل هذا المزيج الذى لا يتحلل أبدا . وجسد زينات لم يصبح بَعْدُ ملكى .

. . .

مرت هذه الخواطر بذهنه فى مثل لمح البرق . ولعل الحركة الغريزية التى حدت به إلى أن يرخى يد حبيبته ، كانت نتيجةً لسبْق تواردها فيه ، قبل أن يتناولها بالتمحيص من جديد . وفى الواقع أن كل شىء قد مر بغرائزنا من قَبْلُ وتركَ أثره فيها . وهذا الأثر يبدو فى تصرفاتها الحاسمة ، التى تأتيها عَفْوَ الساعة ، ودون تَفَكُّر . وما الرويّة إلا طرحٌ جديد للمسائل على بساط البحث ، غالباً ما يؤدى إلى نقض ما سبق أن اهتدينا إليه من صواب . لأن من دأب العقل إذا تفلسَف ، أن يمهّد لخطئه بسلسلة من المقدمات ، قد لا تعدم بينها حلقةً مفقودة ، تفسد عليها ما تحرز من نتائج . فلو أن مختاراً لم يكن من التوفيق بحيث خرج من بحثه بمثل النتيجة التى خرجت بها غرائزه دون بحث ، لكان من الممكن أن يقف عند قوله بأن القبلة شىء روحانى بحت ، ثم يغيب عنه ما بقى من عناصر المسألة ، وبذلك يُقْدم على تقبيل زينات ، ويرتكب شططاً قد لا يقرُّ به عقله ، ولكنّ ضميره لا يفوته أن يحس به ويؤنبه عليه .

غير أن مختاراً لم يفكر . أو هو فكر بعد أن اتخذ قراره وفقاً لما أشارت به غرائزه . ولعل من حسن حظه أنه فعل ، فليس يهوّن ارتكاب الجريمة كالتفكير فيها . لأن التفكير فى الشيء ما يلبث أن يوطن النفس عليه . ولو أننا وقفنا دائماً عند حد شعورنا بالاشمئزاز من الإثم ، ولم نتورط فى مناقشة الأسباب ، لما ظهر بيننا مجرمون .

. . .

على أن مختاراً وإن كان قد انتهى من تفكيره إلى أنه كان على حق عندما أرخَى يد الفتاة وحرّم على شفته تقبيلها ، فإنه لم يجد حرجاً فى أن يرفه عن نفسه بالغزل البريء . ولم يأبه لرأى القائلين بأن الاستمتاع بالنظر حرام ، لأنه كان يعتقد أن النظر الخالص عذاب ، والعذاب مَطْهَرٌ لا يأتيه الدنَس . ومن ثم فقد دنا منها وراح يُزْلِقُ فى رأسها العقد ، حتى إذا ما استدار على جِيدٍ من رخام ، تراجَع قليلا ووقف يتأمله .

وغمر زينات شعورٌ من السعادة ، نمّت عليه بسمةٌ تلألأت على ثغرها . ولمَ لا تفرح ؟ فيما مضى ألبسها عقوداً

كثيرة ، ولكنَّ واحداً منها لم يحمل ذلك المعنى الذى راح يحمله هذا العقد . ذلك أنها وقد أحبت باتت تَرى فيه شبكة الزواج .

وإنهما لغارقان فى نشوتهما ، إذ شعرا كأن عينين متّقدتين ترمقانهما من نافذةٍ فى المنزل المجاور . ولكنهما عندما التفتا نحوهما لم يجدا شيئا . فبقيا حيث هما ، زينات تختال على صدرها العقد ، ومختار ينتزع منها عينيه. وأخيراً قال لها فى ولهٍ :

— ما أجملك فى هذا العقد يا زينة ! زينة ! أتذكرين إذ كنتُ أدللك طفلة ، وأناديك بهذا الاسم ؟

وأطرقت حياء . وعاد يسألها :

— ولكنْ لمَ لم توافينى إلى الحديقة عندما أشرت لك؟

وأجابته وهى تهز كتفيها تلك الهزة الرشيقة الساذجة :

— لا أدرى . لمْ أوافِك وكفى .

وذاب مختار فى سحر جوابها . ثم بدا له أن يسألها سؤالا آخر ، وكأنما قد أراد المزيد من دلها ، فقال :

— وهل توافيننى إليها الآن ؟

وكان ما توقعه فأجابت :

— ربما !

— ولمَ لا تقولين نعم ؟

ولم تجب . وما زادت على أن أخذت تتلهى فى فتورٍ بتمزيق ورقات زهرة . وفجأة رمقته بنظرة عناد ، ثم ولت الأدبار مسرعة وهى تبتسم ، تاركةً إياه مأخوذاً من سحر دلالها .

كانت تشعر بأن الدلال مكمِّلٌ لحسنها فتدللت . ولا عجبَ فالدَّلُّ بعضُ سحْر المرأة الدفين ، وهى إذ تعرضه تعرض أغلى كنوز جمالها .

وفيما كان مختارٌ يستدير ليذهب فى أثرها ، لمح العينين المتَّقدتين تختفيان من نافذة المنزل المجاور ، وكأنما كانتا قد عادتا ترقبانهما . ولم يشكَّ هذه المرة فى أنهما عينان . وشعر بأن فى الجو شيئاً مريبا ، وإنْ كان لم يدرِ ما هو .

الفصل الخامس

بعد أن اختفت زينات من الشرفة واقتفى أثرها مختار ، ارتمى صاحب العينين المتّقدتين على المقعد الملاصق للنافذة التى كان يُسارِق منها العاشقَيْن النظر ، وقد أخذ يصعّد الزفراتِ كأنها شوَاظٌ من نار . وفى جواره جلستْ فتاةٌ تسرّى عنه .

وقال صاحب ذيْنك العينين فى ألم صارخ :

— آه ! أىُّ نار تضطرم فى قلبى !

وغمغمت الفتاة وقد كانت أخته :

— رفّه عن نفسك يا محرز .

— وكيف أرفّه ؟ أما رأيتِ كيف كانت متهللة الأسارير عندما كان يُلبسها العقد ؟ وكيف أنها فرت لتغريه بها ؟ إنها تحبه ، لمْ يَعُدْ عندى شك . ذلك هو أسلوب المرأة : تتمنع لتستحث الرجل على اللحاق بها ، وهى لا تستحث إلا رجلا تهواه .

ثم لطم جبهته فى عنف وصاح :

— والأمرُّ من هذا أنهما اختفيا معا . وكأنى به الآن يقبّـلها ، ويمتص رحيقها فى روحه اللعينة ، كما تمتص النحلةُ عصيرَ الأزهار . آه ، رَبِّ اجعلْ لَـمَاها الذى يَبزُّ الشهدَ فى حلاوته ، والحُمَـيَّا فى سلْبها للعقول ، سمًّـا يسرى فى عروقه ، وناراً تـكوى حشاه ! مَـن لى ! مَـن لى بمَن يمكّـننى من أن أقتله ، وأشرب من دمه كما يشرب الآن من دمى !

وهتفت الفتاة :

— محرز !

— درية !

ثم استطرد :

— ماذا تنقمين علىّ ؟ ألا أقتل قاتلى ؟ أليست كل نظرة يسددها إليها تصيب منى مقتلا ؟ أواه ! أسعفينى بجرعة ماء . جرعة ماء . إنى أحترق .

— الصبرَ يا محرز !

— وكيف أصبر وقد سلبتْـنى الشقية نُـهاىْ ؟ لستُ

أدرى أى شيطان وسوس لنا بالسكنى فى جوارها ؟

— لو علمتَ المفاجأة التى أُعِـدُّها لك لهدأت من روعك .

— وأية مفاجأة بحق جهنم ؟ هل سيقبض عزرائيلُ روحه ؟

— وأنَّى لىَ أن أعلم ذلك ؟ أتظن أنّ عزرائيلَ اتخذَنى كاتمةَ أسراره ؟

— إذَنْ ففيم المفاجأة ؟

— احْـدِسْ .

— لعل الله سيسخطه قرداً فى عينها ؟

— أوه يا عزيزى ! ما أحسبنا نعيش فى بلاد السحَـرة . ولـكنْ قُـلْ لىِ : هل نفدتْ جميع السبل ، فلم يَبْـقَ أمامك إلا أن تستعدى الأقدار عليه ؟ أما من محاولةٍ تغزو بها قلبها ؟

— وكيف السبيل ونحن لا نلتق ؟

— وما رأيك فى أن اللقاء تَـهيأ ؟ أما تعلم أنك ستحدثها غداً ، وربما راقصتَـها ؟

ففغر فاه من الدهشة وهتف :

— ولكنْ هذه أحلامٌ يا درية . أحلام .

— غير أنها ستتحقق .

— أين ؟

— فى حفلة دُعينا إليها ثلاثتنا .

— أية حفلة ؟

— هاك بطاقة الدعوة .

وناولته البطاقة . فألقى عليها نظرة ثم قال :

— آه ها ! « مجدىّ » يحتفل بعيد ميلاده . وهل أتتك دعوة من زوجته ؟

— أجل .

— ومن أين لك أن زينبَ ستكون هناك ؟

— فهمت ذلك من حديث جرى بينى وبين صاحبة الدعوة بالتلفون .

— إذَن فهما صديقتان .

— وبين الأسرتين قرابة .

— قرابة ؟

وعاد وجهه يتجهم . فهتفت الفتاة به :

— ماذا دهاك ؟

— ألا تفهمين ؟ إن معنى هذا أن مختاراً مدعو .

— بالطبع ما دام من الأسرة .

— وإذن فستكون ليلةٌ مشهودة من ليالى جهنمَ بالنسبة لى .

— ولمَ ؟

— لأنى سأشهد عن كَثَبٍ عينيهما وهما تتبادلان الغزل . وقد أُبصر يده وهى تطوق خصرها الضامر ، وتهصر فى راحتها النعومة السارية فيه . أو تنتهى إلىّ من همسهما كلمةٌ عذبة تكون وقْراً فى أذنِى . فأى خير توقعتِه لى بربك فى هذه المغامرة ؟ لَكأنى بكِ ما تسوقيننى إلا إلى حتفى .

— صدِّقْنى إنه لا يعجبنى منك هذا اليأس يا محرز . من أدراك أنك قد لا تربح المعركة ؟ إنى أعلم أن لك عينين لم تعرفا الإخفاق قط .

وقال فى صوت كالأنين :

— وأين هما من عينى غريمى ؟ أما رأيتهما ؟ ما هما قط بعينين . ولكنهما ماستان ، لمائهما أديم صاف ، وتقوم للشعاع فيهما قيامة . وكأنى بكل ومضة تنبعث منهما ، تكفى لأن تخطف حشداً من قلوب .

وامتقع وجه درية . وحاولت أن تخفى رعشة سرت فى جسدها . على حين استطرد محرز :

— إنى لأشهد له ، والفضل ما شهدت به الأعداء . ما لكِ وجمتِ ؟ هل مغطسك حديثُ عينيه ؟

وجاهدت الفتاة جهاد اليائس لتحتفظ برباطة جأشها ، ثم قالت فى إعياء :

— وعلام عولت ؟

— على الذهاب إلى الحفل .

— ولم تملك إلا أن انفجرت ضاحكة رغم ما كانت فيه ، ثم صاحت به :

— وفيم الثرثرة إذن ؟

— آه يا أختاه ! إنها ثرثرة المحموم الذى لا يفتأ يهذى . أو حيرة الغريق الذى أينما تلفت ألفى لجاً

تُـورده حتْـفَه . ماذا تريدين منى ؟ لا أنا أطيق التخلف عن الذهاب ، ولا أنا إنْ ذهبتُ بقادر على النجاة . فلْأذهب إذَن وليكنْ ما يكون . فـكل شيء يَهُـون فى سبيل عينيها .

وفجأة سُمِـع فى منزل زينات وقْـع أقدام تعدو على أرض الشرفة ، أعقبتْـه ضحكةٌ كرنين أكواب فضية .

وفى هذه المرة لم يَثِـبْ محرزٌ وحده إلى الشباك ، وإنما وثبت معه شقيقته ، وأخذا يخالسان اللاعبيْن النظر بعيون محمومة . ثم لم يلبث أن تأوّه محرز ، وعاد وجه درية يمتقع .

الفصل السادس

كان حفلا مشهوداً ذلك الذى أقامه الأستاذُ مجدىٌّ وقرينته ، ودَعَـوَا إليه الأقارب والأصدقاء .

ففى ذلك اليوم لم يكد يوافى المساء ، حتى أخذ المدعوون والمدعوات يفدون على مقر الحفـل ، وقد ارتدوا ثياب السهرة وازّيّنَ النساء منهم بأبهى الحلى .

وكان من بين السيارات التى وقفت بباب الدار ، سيارةٌ فخمة نزلتْ منها شريفةُ هانم تتبعها ابنتاها ومختار .

وتشاء المصادفات أن يلُـوح على أثرها مصباحان ، ثم يقتربان فإذا بهما لسيارةٍ تُـقِلُّ محرزاً وشقيقته . فـكان يخيل لمن وقف على ما جرى منهما بالأمس ، أن هذه السيارة تسير على دِين صاحبيها فى تعقُّـب العاشقَيْن ، بمصباحيها اللذين يشبهان عينين .

. . .

وتفرّق القوم فى شُـرُفات القصر وأبهائه ، وقد

أخذوا يَسْمُرُون ويتنادرون . فهذه طائفة من الفتيان والفتيات يتحدثون عن آخر قصة شاهدوها على الستار الفضى ، ويطرون هذا الممثل أو هذه الممثلة . وتلك أخرى أخذت تتطارح النكات ، وترسل بين حين وحين ضحكاتها مدوّية . أمّا الشيوخ فجعلوا يتناقشون فى السياسة كدأبهم . على حين جلس العجائز يثرثرن فى وقت واحد ، فكان أن تكلمن جميعاً ولم يَسمع أحد .

وكنت أينما سرّحتَ الطرف فى الشباب ، ألفيتَ أقماراً جالساتٍ على الأرائك ، أو جائساتٍ خلال الحجرات . فإذا استثنينا الشيوخ والعجائز ، وإذا استثنينا جلفدان ، فإن هذا الحفل كان بمثابة معرض صغير للجمال ، احتشدت فيه نخبة شائقة من أجمل فتيات مصر وأظرف شبانها . ولكنّ الذى لا شك فيه ، أن زينـاتَ كانت أجمل الفتيات ، ومختاراً أظرف الشبان .

وبعد أن تناول المدعوون العشاء ، عزفت موسيقى « الجاز » فهرع الشباب إلى البهو الكبير ، وخاصر كل شاب فتاة ، وأخذ يدور بها على أنغام « الفالس » الحالمة .

فكان الجمْع والأقدام تتنقل بهم فى خُطاً رتيبة ، وخصورهم اللَّدْنة تتثنى على إيقاعها ، أشْبه شىء بفراشاتٍ تخطر فى بستان . وهكذا انقلبت القاعة فى طرفة عين ، إلى مسرح جميل لشِعر الجسد ، لا يقلُّ فى روعته عن شِعر الروح .

وكان طبيعيًّا أن يراقص مختارٌ زينات . وبدت الفتاة وهى بين ذراعيه ، وكأنما تذوب صبوةً فى قامته المديدة ، وعزيمته التى كانت تحركها هنا وهناك ، كما يحرك النسيمُ زهرةً أسلمته نفسها فى طرب .

ولاح على الفتى أنه ثملٌ كذلك . وكان حتما أن يثمل ، وهذه يدها الحريرية تسيل نعومتها فى جسده ، وعطر شعرها يفوح ويملأ رئتيه .

ولما كان مختارٌ من أمهر من نقل القدم ، وزيناتُ من أبرع من دَقَّ بساقه ، فلقد بدا الاثنان زينة الحلَبة ، وانتزعا الإعجاب من أعين المشاهدين .

ومال مختارٌ على زيناتَ وهو يراقصها وقال :

— لماذا تبدو الحياة أحيانا أجمل مما هى يا زينة ؟ إنى

لأحس كما لو كنتُ قد نسيت حياتى الماضية ، ووُلدت من جديد فى عالم غير هذه الأرض ، لا أرى فيه إلا رياضاً فِيحاً وطيوراً تغرد ، مع أن الحياة هى الحياة ، وأنا أنا لم أمُت ولم أُبعَث ؟

وسألته زينبُ بتدله :

— أجل ، فما هو السر ؟

وأجاب مختار :

— السر فى هذه السكْرة التى تعترينا . فى تلك الخمر المقدسة التى إذا شربنا منها ثملنا ، فتكشفَت الدنيا أمامنا عن هذه الفراديس . فهل تعرفين هذه الخمر ، التى تخلقنا هذا الخلْق العجب ؟

وأدركت زينبُ مرمى كلامه . إنها نفسها شربت هذه الخمر فتحولَت الدنيا فى نظرها إلى جنة فيحاء . إنها خمر الحب ، لأنها رأتها تَصِبُّ من عينىْ مختار ، وتتفجر من ثناياه العِذاب ، وتقْطر من كل ذرة من جسده . إنها خمر الحب ، ولذلك فهى تخجل ، فلا تجيب وإنما تنظر مطرقة إلى الأرض .

ولاحظ مختارٌ خجلها فتناسى سؤاله ، وأخذ يدور بها فى صمتٍ مع الراقصين ، وقد أسبل كلاهما أجفانه ، واستسلما لأنغام « الفالس » التى كانت تنادى أحلامهما النائية ، وتحلّى بها وسنهما السعيد .

وكان هناك مَثْنَى من الراقصين لا يكفُّ عن ملاحقتهما ، حتى إذا ما أصبح منهما عن كثَب ، حاولت درية وهى بين ذراعىْ أخيها ، أن توقع مختاراً فى شِباك فتْنتها بحبالٍ من نظراتها تلقيها عليه . ولكنها كانت كلما أرادت أن تصيده صادها عن غير قصد ، حتى تعالت دقات قلبها واضطربت خطاها . أما محرزٌ فكان يتحين الفرصة التى تغضى فيها زينات ، ليسرق منها نظرة تضع فى رجليه قيداً جديدا . وهكذا كانت كل خطوة ينقلانها فى أثر الحبيبين ، تزيد فى عِثارهما حتى بدَوَا كمن يرقصان وهما مُوثَقان . واستمرت هذه الحال طول الرقصة ، ومختارٌ فى عَجَبٍ مما يحدث ، وزيناتُ فى جهل به .

. . .

وفى ركنٍ من القاعة ، جلستْ فتاةٌ لم تشترك فى

الرقص ، تغالب دمعة توشك أن تنحدر من عينيها . لم يكن بها حزنٌ أو حسد ، لأنها سبق أن نفَضت يديها من كل شيء ، فلم يَعُدْ للآلام إليها سبيل . ولكنها الموسيقى ، تثير فى بعض النفوس أحزاناً لا وجودَ لها . ولذا لم تكد موسيقى الرقص تعزف ، حتى أخذَت الدموع تنهمر من عينىْ جلفدان ، وكأنها تكفِّر عن ذنوب لم تجنها . ذلك أن جلفدانَ كانت تحمل نفساً من تلك النفوس التى يَهيج شجنَها النغم . . وهى نفوسٌ تُعرف بأنها سبَق أن انطوتْ على حزنٍ قديم ، رمتْها به أحداثُ الزمن ، أو وُلِدَ معها كجزء من طبيعتها ، ثم نسَج عليه النسيانُ طوال أعوامٍ عِدَّة ، ولكنَّ الموسيقى التى تنادى كلِ شىء ، ما تلبث أن تمزِّق عنه الأكفان ، وتدعوه لينوح فى الفؤاد من جديد .

. . .

ولحتْ زينباتُ أثناء الرقص جلفدانَ أختَها تبكى . فأفاقت من وسَنها على نغم بكائها النائح ، وخيل لها أن أحلامها تَغرق رويداً رويداً فى دموع أختها ثم

تحتويها الظلمات .

وفجأة سكت « الچاز » فتفرّق الراقصون . وسلّت زينات يدها من يد مختارٍ وذهبت تحدث جلفدانَ وهي تتجاهل ما رأت من بكائها . على حين تقدمتْ دريةُ إلى مختارٍ وأخذت تهنئه على براعته في الرقص وترمقه في شغف .

وعزفت الموسيقى من جديد ، وزينات ما تزال مشغولة بالحديث مع أختها . وألفى مختارٌ نفسه وحيداً هو ودرية ، وقد أخذت تتطلع إليه وكأنما تدعوه ليراقصها . وإذْ كره أن يكون جافًّا معها ، مدَّ لها ذراعيه ودخل بها في الحلبة ، وجال بها مع الجائلين . ولكنّ رقصه كان في هذه المرة فاترا . وكانت كلما حدثته الفتاة أجابها في اقتضاب .

والتفتت زيناتُ بعد قليل ، ورأته وهو يراقص جارتها فجمدت في مكانها . كانت تعلم أن ما أتاه مباح في شريعة الرقص ، ولكنه الحب ، الحب المجنون الذي لا يعترف إلا بشريعته . الحب الذي يأبى إلا أن يستأثر بكل شيء في المحبوب ، حتى ظله وخواطره . الحب الذي يود لو

سجَن هذا المحبوب فى حصن منيع ، أو فرَّ به إلى الـكهوف النائية ، ليكون بنجوةٍ من العيون . ومن ثم أخذت عقارب الغيرة تلسع قلبها الغض . وأحست بكراهية شديدة نحو هذه الفتاة ، بل نحو الرقص كله .

وكان الجو قد خلا لمحرزٍ باشتغال مختارٍ بالرقص مع درية ، وفقاً لخطة وضعها الغريم وأخته ، وساعد على نجاحها أن الفتاة كانت قد بدأت تعمل لحسابها أيضا ، فجمَع أطراف شجاعته وتقدم إلى زينات فانحنى أمامها ودعاها للرقص . وكأنما قد أرادت أن تنتقم لنفسها فناولتْه يدها وانتظمت وإياه فى سلك الراقصين ، بعد أن ألقت على مختارٍ نظرة كلها كيد .

ورآها مختارٌ بين ذراعىْ فارسها الجديد — وكان قد قدمه إليه صاحب الدعوة فى بدء الحفل — فعرف فيه جارها . وبعد أن قرأ آياتِ الوله فى عينيه ، واستعرض قصةَ العينين اللتين تلصَّصَتا عليه بالأمس ، لم يشكَّ فى أن الفتى صاحبهما . فشعر نحوه بالمقت ، كما ثارت نفسه غضباً علي زينات ، وود لو انقضَّ عليها فاختطفها من

غريمه وألـقى بها أرضاً ثم صفعه على وجهه . ولـكنّ العذاب الذى كان يذوقه شفع لها عنده ، لأنه أدرك أنه قد أذاقها مثله من قبل . ومن ثم فقد اضطر إلى أن يكظم غيظه ، وجعل يرقص وهو نادم على غلطته التى ورطته فيها الظروف .

أما زينات فلم تلبث أن أحست وهى تراقص محرزاً برعشات يده فى يدها فـكشفتْ سر قلبـه وتملَّـكها الذعر . ثم سرعان ما عاودها الحنين إلى مختارٍ عندما رأته يُسْرَقُ فى حبه ، فاشتد بها الـكرب ، وراحت تلعن فى سرها غريمه صاحبَ تلك اليد الآثمة وأختَـه التى كانت السبب . فلمـا كفَّـت الموسيقى عن العزف غادرت القـاعة ميممةً نحو الشرفة ، وهى تشعر بأنها تـكاد تختنق ، وبأنها فى حاجة إلى الهواء .

وبَصُـرَ بها مختارٌ وهى تخرج محنقة ، فأيقن أن الانتقام لم يُجْدِ مع حبها ، وخَلَـصَ من ذلك إلى أنها لم تَسْلُـه فاطمأن . غير أنه لمح فى عينيها بوادر زوبعة توشك أن تهب ، وتثير الغبار فى جو علاقتهما فتـكدره .

فخرج فى أثرها يفتش عنها ليسألها الصفح .

ولاحظ الغريمان ذلك فاتقدا غيرة . وما كان من محرزٍ إلا أن أشعل لفافة وراح ينفث فى دخانها حقده . على حين تهالكت درية على أحد المقاعد وقد أدركت عاقبة اللعب بالنار . ذلك أنها كانت قد أرادت أن تمثل دوراً مع مختارٍ لتنقذ أخاها منه ، ولكنّ التمثيل لم يلبث أن انقلب حقيقة ، وأصبحت نفسها بحاجة إلى منقذ .

. . .

وعثر مختارٌ على زينات تبكى فى الشرفة ، فما ازداد إلا يقيناً بأن التشفى لم يكن بلسماً على جرحها . وفى حنان الحبيب ، تقدم يسألها وهو يتجاهل سبب بكائها حتى لا يقف منها موقف من يرتاب فى نفسه ، قال :

— مم تبكين يا زينة ؟

فكان جوابها أن أشاحت عنه بوجهها غاضبة . من قَبْلُ جَهِدتْ فى أن تكتم حبها عنه استحياء ، ولكنّ لذعات الغيرة أخرجتها هذه المرة عن صمتها . كانت تشعر برغبة مُلِحّة فى أن تعاتبه ، علّها تظفر

منه باعتذار يزيح عن صدرها الغمّة . وهى فى هذا العتاب مضطرة إلى أن تبوح . بل إن العتاب نفسه بوح . ومن ثم فقد عقدت العزم على أن تخوض المعركة ، وراحت تمهد لها بهذا الغضب الصامت ، الذى كان بمثابة الغيم الذى يسبق العاصفة .

وظل مختارٌ يكرر عليها السؤال وهى لا تجيب ، إلى أن شعر بأن تزمّتها قد خنق الجو ، فلم يجدْ بدّاً من أن ينبشها لتفضى بما عندها ، علّ الزوبعة إذا ثارت يَعقبها صفاء . فقال لها وهو واجف :

— أساءك منى أننى راقصتُ غيرك ؟ إن كان هذا فلقد كانت المجاملة تقضى به .

وأراد أن يستمر فيشرح لها الموقف ، غير أنها قاطعته بحدة قائلة :

— ومن قال لك أن تجامِل على حسابى ؟

وطاب نفساً بغيرتها عليه ، فأخذ يُربّتُ يديها فى حنو ويقول :

— يا لك من طفلة ! أثمّةَ من يستحق أن تغارى

منه ، يا أفتن من فى الوجود ؟

فنحّت يده وهى تقول له :

— دعنى ! واذهب إلى من كنت تراقصها .

وضحك لسذاجتها وقال :

— ومن عساها تكون ؟ إنى لَأنسى حتى شكلها ، كما نسيتُ كل الحسان من قبل . أقْسم ما طلعتْ فى سمائى مليحة ، إلا غرقتْ من توها فى موجة حبك ، وابتلعها النسيان . أنتِ أنت ، ليس إلاّكِ موجودٌ فى حياتى .

وارتجفت تحت وقع كلماته ، إذ كانت هذه أول مرة يكاشفها فيها بالحب . حقيقة أنها كانت تقرأ آيات هذا الحب فى صوته وفى نظراته ، ولكنها كانت تتشوف إلى كلمة صريحة تنقع غلتها . وإنها إذ تَسمعها الآن ، لَتطرب لنغمتها وتطلب منها المزيد . ولذلك راحت تقول له وكأنها تستحثه على أن يستمر :

— لا أصدق . لا أصدق .

وهتف فى توسل :

— رحماك يا زينة ! لا تقولى هذا . ألا تصدقين من أحبك طفلة ، وراح يكتم صبوته ويتعذب ؟ ألا تصدقين من تفتح قلبه حدثاً على نورك ، فشب وما يؤمن فى الحسان بسواك ؟ أنت يا من لك جدة الشعاع الأول ، ورواء قطرة الندى المبكرة ؟ إنى أحبك يا زينة ! وحق عينيك الساحرتين ، هاتين النجمتين المغلفتين بجفنك الكحيل ! وحق شعرك الحالك كالليل ، على جبين كالنهار ! وحق فمك هذه البسمة السرمدية ، المملوءة لألاء ! وشفتك السفلى ، تلك الياقوتة المدلاة — أحبك !

وسكت . وكان القمر يطل على الشرفة فيغرق العاشقين فى أشعته الزرقاء ، ونغمات « التانجو » تتناهى إليهما خافتة من البهو ، بما تحمل فى ثناياها من أحلام . وفى وسط هذا الجو الشعرى الجميل ، وعلى أضواء القمر الشاحبة ، لمح مختار ابتسامة ساحرة ترتسم على ثغر زينات وتزرى بضوء القمر ، ثم سمعها تقول بنغمة كانت أحلى من نغمات « التانجو » :

— حسناً ، لقد صفحت عنك .

وتنهد مختارٌ مِلْءَ صدره ، ثم قال لها :

— شكراً لك . لقد رددتِ عليّ هنائى .

وأراد أن يعاتبها على رقصها مع محرز ، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع أن يتهمها إلا إذا اتهم نفسه ، وهو الذى دافع عن موقفه من قبلُ فى تهمة مماثلة ، فآثر أن يلتزم الصمت . إلا أنه لم يجد حرجاً فى أن يستفسر منها عن سر العلاقة بين الشاب الذى راقصها والعينين اللتين كانتا ترمقانهما أمس . فقال لها :

— ألم تلمحى أمس ونحن فى الشرفة عينين ترقبانها ؟

— أذكر ذلك . ولكننى لا أدرى أكانتا عينين حقا أم شُبِّهتا لى !

— حسناً . فإذا ثبت أنهما عينان ، وأنهما كانتا تطلان من منزل جارك ، ألا تجدين صلة بينهما وبين ما حدث الليلة ؟ ألا ترجحين وقد حرص محرزٌ على أن يراقصك ، أنه كان صاحب تينك العينين ؟

فأجابت وقد شعرت بأنه يتهمها :

— ربما . ولكننى أقسم لك إننى بريئة من كل ما يريبك .

وترددت ، أتحدثه بما كان من اختلاج يد هذا الشاب وهو يراقصها ، أم تكتم ذلك لئلا تثير بلابله ؟ واختارت السكوت . على حين راح يسألها :

— منذ كم سكن فى جوارك ؟

— منذ أقل من شهر .

— وهل زرتِ أخته ؟

— كلا . ولكنها لا تفتأ تلح علىّ فى ذلك كلما لمحتنى من النافذة .

— لا أريد منك أن تزوريها أبدا .

وبدأت تحس بقيود الحب وتستعذبها ، فهمست فى خنوع :

— حسنا .

— وثمة شىء آخر ، هو أن لا تقفى بنافذة تطل على هذا الجار .

فأجابت ، وقد شعرت بسلطانه عليها كما لم تشعر به

من قبل :

-- لن أقف .

وشاء أن يجاذبها أطراف الحديث فى شئون أخرى ، ولـكنها سبقته قائلة :

— ألا نعود يا مختار ؟ إنى أخشى أن يفتقدنا القوم فلا يجدونا .

وتردد قبل أن يوافقها على قطع هذه الخلوة الجميلة ، ولـكنها عادت تقول له :

— مختار ! أتوسل إليك ! إذ ماذا يقولون إذا رأونا هنا وحدنا ؟

ونهض العاشقان . وفيما كانا يقصدان إلى البهو ، صادفا محرزاً ودرية فى طريقهما إلى الشرفة . فرمقهما مختارٌ شزراً ، وأسرَّ فى أذُن زينات :

— أرأيت كيف يلاحقك ؟

— أفٍّ ، كم أمقته ! وأمقت تلك الفتاةَ أختَه !

. . .

واستأنفا الرقص . ولـكنَّ كلا منهما كان مُـبَلْـبَل

الفكر بسبب المزاحم الذى ظهر فى أفق حبه .

وعند انتهاء الرقصة ، أقبل مجدىٌّ وأخذ يحدث مختارا . على حين اشتغلت زينات بالتحدث إلى زوجته .

وإنْ هو إلا قليل ، حتى تعالت أنغام لحن محبوب من الجميع ، ومن مختارٍ على الخصوص لأنه طالما سمعه من حبيبته ، هو لحن « الدانوب الأزرق » . فانطلق الراقصون يحركون أقدامهم على إيقاعه وقد أخذوا ينشدون مع النغم . وترنّح مختارٌ نشوان . وأجال بصره فى الحضور يبحث عن زينات . وفى اللحظة التى رآها فيها وأوشك أن يدعوها للرقص ، ظهرت والدتها فى البهو وأومأت إليها أن تتْبعها ، فلبت الإشارة على التو . وعندئذ لم يجد مندوحة من الجلوس وحده ، يتعقب بفكره عصفورته الشاردة ، ويبعث بالرسل من الأشواق فى أثرها .

وبعد هنيهة عادت زينات ، فخفّ نحوها وبسط لها ذراعيه ، ولكنها انكمشت عنه فدهش ، ثم ما راعه وقد رفع إليها عينيه إلا أن رآها كاسفة البال .

فسألها وهو يمسك بقبضة يدها البضة ويعود بها

إلى الشرفة .

— ماذا بك ؟ ألا تودين أن ترقصي معي ؟

فتنهدت وقالت في أسى :

— من قلبي أود ، ولكنْ . . .

— ماذا ؟

— أمي نهتني . أتذكر إذ نادتني من القاعة ؟ لقد كانت تقول لي : ما ينبغي أن ترقصي .

— معي ؟

— مع أي أحد .

— أحسب أني المقصود بالمنع .

— ربما .

وبعد فترة صمت عادت تقول :

— أجل ، أمي نهتني يا مختار . وكل شيء ينهاني عنك .

— كل شيء ؟

— نعم ، فضميري ينهاني أيضا . أواه ، ما كنت أود مطلقاً أن أقف منك هذا الموقف . أين صلاحي وأين

بقواى ؟ أين غمضى القديم الذى يشبه غمض البراعم ، حتى أسمح لنفسى أن أخلو بك وأعاتبك فى شأن من شئون الهوى ، ثم أنصت إليك وأنت تلقى فى أذنىّ بهذه الكلمات المريبة ؟ دعنى أنهض ، فلَشَدَّ ما أنا خجلةٌ من نفسى ومنك !

وهمت بأن تنهض ، ولكنه وقف فى طريقها وقال ، وقد أحس بأن كلمات أمها قد ردَّتها إلى عهد براءتها الأولى :

— بل ابقْ يا زينةُ وهدئى من روعك . لن تخجلى منى بعد اليوم . ولن ينهاك عنى أحد . لقد عزمت على أن أبدد من جونا الرِّيَب ، وعندئذ نظفر بالحب المباح . لن نَسرق خلواتنا كما نسرقها الآن ، لأنها ستغدو ملْكنا . ولن نغنّى كلماتنا المحبوبة فى غفلة من الضمير ، لأنه لن يؤنبنا عليها . سنَنْقل خطواتنا فى وضح النهار . وننطق بأحاديثنا جهرا .

— وكيف السبيل وهذه الأشواك فى طريقنا ؟

ولم يفهم مختار . واستطردت :

— أوه ! الأشواك ! الأشواك ! إنى أراها نابتة فى كل مكان . وأكاد أحس وخزها فى قدمى .

— أيةُ أشواك ؟ غداً أقتلعها . غداً يصبح أزهاراً طريقُنا ، وندوس عليه بأقدامٍ من ذهب . سألقَى أباكِ من فورى ، وأنتزعها كلمةً من فمه ، لن تَزرع فى طريقنا إلا وردا .

— كلا ، لا تفعل . لا تفعل بِربك .

وظن مختارٌ أن تحذيرها من قبيل الخجل فهتف :

— بل سأفعل . وعندئذ لن يكون أسعد منا . أرأيتِ إلى هذه الفراديس التى نبتت فى حياتنا ، والتى حدثْتك عنها أثناء الرقص ؟ إننا لن نقنع بعد اليوم برؤية زهورها ، بل سنقطف من هذه الأزهار ونلقِى على أجسامنا . وسنجوس خلال مماشيها ونجلس فى خمائلها . وسنقف على ضفاف غدرانها ونقذف بأنفسنا فى مائها ونستحم . كل هذا الذى نراه اليوم أحلاماً تداعبنا من بعيد ، سيصبح ملْك أيدينا .

وذابت زيناتُ فى سحر العالم البديع الذى كان

مختارٌ يضعه بين يديها ، ولكنها لم تلبث أن جذبت نفسها منه ، لأنها كانت تعلم أنه لن يكون ملْكها ، وراحت تقول فى إصرار :

— كلا . كلا . لا تقابل أبى .

وفر لون مختارٍ عندما رأى إصرارها . وبدا فى اصفراره كالفَنَن الذاوى . ثم قال :

— لست أدرى لماذا تنهيْننى عن لقاء والدك ؟ أفى الأمر شىء أجهله ؟

— نعم فى الأمر أشياء .

— وما هى ؟

— أعفنى من ذكرها .

فهتف فى غضب :

— وكيف أعفيك ؟ أسرٌ علىّ وأنا الحبيب ؟ وفى أمر عتٌ إلى الهوى ؟ تالله لقد بدأت أرتاب فى حبك !

ونظرت إليه فى عتاب وهى تقول :

— ترتاب ؟

— نعم أرتاب . إن معنى تَكتُّمك أن فى الأفق

غيرى . ومن يدرى ، فربما كان جارك . ألم يأت بتصرفات مريبة ؟ وإلا فلمَ يتعقبنا ظله فى كل مكان ، وكأنه يسير فى رِكابنا ؟

وصرخت فى قنوط :

— مختار ! إنك تظلمنى .

— إذَن تكلّمى . ما هذه المعمّيات التى تضعيننى فيها ؟ إن صَيْدَ الظلام لا يكون إلا شُكوكا . ولقد امتلأتْ بالشك جعبتى .

ثم رمقها بنظرة صارمة أجفلت أمامها ولم تملك إلا أن هتفت :

— وكيف أتكلم ! أواه يا جلفدان ! لن أقيم عرساً فى مأتمك .

وخرت تبكى .

ووقف مختارٌ مصعوقاً فى مكانه ، وقد أدرك سر الأشواك التى تقف فى طريقهما . وإنها لأشواك هائلة ، تسفك دمَ كل من يحاول قصفها . ألم تَنبت من الدمِ لتذود عن روابطه ؟ ألا تقاتِل إذَن بسلاح الدمِ

تبتغى الدم ؟

وراح يحدث نفسه ويقول :

— ما أنبلك يا زينات ! إنك تأبين أن ترفعى إلى فمك الكأس المعسولة ، على حين تجرع أختك العلقم ليلَ نهار . ولكن ماذا يكون مصير حبنا ؟ إنى أراه معلقاً بمصير جلفدان . وجلفدانُ لا يعلم إلا الله متى تتزوج . فواحسرتاه علينا وألف حسرة !

وأحسَّ بالوهَن يدب فى أوصاله . وبَصُرَ بآماله تتسرب من بين يديه كما تتسرب العصافير .

أما زيناتُ فكانت تحدِّث نفسها أيضاً وتقول وهى تشهق بالبكاء :

— رحماك يا جلفدان ! اصفحى عنى . لقد أقحمتُكِ فى حديثى ، وما كان ينبغى . واتهمتُك بأنك عقبة فى سبيل سعادتى ، مع أنك من الذنب بريئة . إن الأقدار التى تحاربنا معاً ، قد شنت عليك الحرب قبلى . ومن يدرى أنك لا تحملين العبئين

عبثك وعبءَ من نُـكبوا بسببك ؟ رحماك يا جلفدان !
رحماك يا جلفدان !

واستمرت تنتحب .

. . .

وعادت أنغام « الجاز » تعزف . لأنه كان فى بقعة أخرى من الدار ، قومٌ سعداءُ يرقصون .

الفصل السابع

بعد أيامٍ قضاها العاشقان فى بُرَحاء ، التقيا عَرَضاً فى حديقة المنزل . وما إن تبادلا التحية ، حتى قالت زيناتُ فى التياع :

— إنى مسافرةٌ غداً يا مختار .

واضطرب الفتى وهتف :

— أحقٌّ ما تقولين ؟ إلى أين ؟

— إلى ضيعتنا «بأوسيم» . إنى منفيةٌ هناك . وإلى أجل غير مسمى .

— منفية ؟ أتُرَى سِرّنا ذاع ؟

— أجَل فاح عطْر حبنا . وهوَى الأبناء فى أنوف الأهل زكام . لقد لاحظوا شحوبى ، ولم يَخْفَ عنهم اصفرارك . فلما كان أمْسِ مساء ، استدعتنى أمى وتصنعتْ المرض ، وزادت أن زعمت أننى نفسى بحاجة إلى تبديل الهواء ، ثم اقترحت أن نسافر معا . اقتراح

معقول ، لولا أنى قرأت الباعث عليه فى عينيها .

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

— أذاكرى أنت يا مختار ؟

وأجاب الفتى المضنى :

— وما شغلى غيْرك ؟ نعم سأذْكرك يا زينة . سأذْكرك كلما غرد طائر ، فأبْلغَنى منك رسالة . أو نشرتْ زهرةٌ عطرها ، فنشقتُ فيه أنفاسَك . سأذكرك كلما سمعتُ حديثك فى خرير الجدول ، أو أنصتُّ فى حفيف الغصون لهفهفة شعرك . سأذكرك فى كل وقت ، وأراك فى رِكاب كل شىء جميل . فى مواكب الضياء التى يجرجرها الصبح ، وفى القمر المطل على المروج مَسَاءً ، سأراك ، نعم سأراكِ يا زينات .

— وأنا أيضا سأذكرك . وسأبعث إليك بشوق الجريح فى مغرب كل شمس . وبالتحايا مع الطيور العائدة إلى أوكارها . فإذا ما رأيتَ الدماء فى الشفق تسيل ، فاعلمْ أنها أشواقى . أو طَرَق سمعَك نوحُ حمامة ، فاعلمْ أنه بَثِّى تُرَجِّعه . وسأقطفُ الأزهار فى الصباح ،

وأضعها فى الجدول ليحْملها إليك . وأضمِّخ بالعِطْر النسيم السارى ، لِيَمْلأ به جوَّك . ارقبْني يا مختارُ فى كل شىء . وانظرْنى فى كل شىء . وإذا ما رأيتَ كوكبا يتهاوى ، فاعلمْ أنى خررتُ صريعةَ حبك ، ولا ترقبْنى بعد ذلك .

— فِداؤكِ روحى يا زينات ! بل ستعيشين وتعودين وشيكاً إلىّ . ونحيا معاً كما يحيا على أيكةٍ غَرِدان . إننا لم نقنط من رحمة الله . ولمْ نُلْقِ للرياح بأزهار الأمل . ابتهلى إليه سبحانه ، عساه يزيل الأشواك من طريقنا . من يدرى فقد تتزوج غداً جلفدان ؟ وعندئذ نبنى أيضاً عشنا .

— إنى أبتهل فى كل وقت . فكلما زاد بىَ الكرب ، رفعتُ كفَّىَّ إليه بالضراعة ، واستعنتُ على شقائى بالصلاة .

— وإنه تعالى لَرحيم . ولسوف يرحم يوماً شكوانا ، ويجزينا خيراً عن صبرنا .

— استودعك الله يا مختار . فقد لا يتاح لى غداً وداعك .

— فى حراسة الله .

وتركته ومضت فى سبيلها . وفيما هى تصعد درج الحديقة ، رفعتْ عينيها إلى نافذة درية وتنهدت . كان قلبها يتساءل :

— أتُرى تلاحقه الفتاة بغزلها كما فعلت فى الحفلة ؟ وهل يَنشد السلوى عندها ؟ حقا إن النافذة مغلقة الآن ، ولكنْ من يدرى فقد تُفْتَح غداً ، وتصبح السماءَ التى يطلُّ منها كوكبه .

ثم ازدردت حسرتها وتابعت الصعود . وإنها لكذلك إذ لمحت العاشقيْن الفقيرين فى طريقهما إلى شاطئ النهر ، فحيتهما بكآبة ، وغبطتهما على سعادتهما التى كانت تَفيض على ثوبيهما البسيطين عما لم تَفِضْ به على ملابسها الحرير . وكانت قد بلغت البهو فدَلفت فيه وهى تبدو فى ذلها أفقر من أى إنسان . ما أرخص السعادة وما أغلاها ! إنها قد تُشْتَرى بمجرد خفقةٍ مشتركة بين قلبين تغمض عنهما عين الزمان . ولكنّ ذلك الذى قد يتم من تلاقى نظرتين ، ربما كلَّف المرءَ عمْرَه ولم يُدرَك .

أما مختارٌ فأحسَّ وهو واقفٌ يشيعها ، بأنه يشيع نور عينيه . فتهافت على مقعد قريب ، وأخذ يتصور آلام الفراق ، وغُربتَه بعد أن ترحل حبيبته . لن تغرب شمس الغد ، حتى تكون فى بلد وهو فى بلد ، ويعود التنائى سيرته الأولى . أجَل هى والشمس ستغربان معاً ، وتسكبان شعاع المغيب الأصفر على وجهه الشاحب . فيا ما أشقَّ الفراق على الأحبة ! ويا ما أمرَّ الحياة فى غياب الحبيب ! غداً لن يُظله السقف الذى يُظلها . ولن يَنْشَق من النسيم الذى تتنفس فيه . غداً لن يغنّيهما طيرٌ واحد . ولن يقطفا من زهرٍ واحد . سيكون لها طيرها وله طيره . ولها زهرها وله زهره . وهما اللذان ما طاب لهما عيش إلا معا . كأن أحدهما عينٌ والآخر إنسانها ، أو فؤادٌ والثانى حَبّتُه . أو كأنهما الطيور تزهد فى الشدو وحيدة ، أو القُبَل لا تتم بفمٍ واحد . وكيف لا وحبٌّ واحدٌ يعيشان له ، وقلبٌ واحد يخفقان به . فبأىّ يَدُقُّ ينبض فى الآخر عرْق ، وأيّان يخفق تسيل ببدنهما حياة .

وتطرّق به الفكر إلى السبب الذى من أجله ستسافر. ما من شك أنها ستُقْصَى بسببه. وشعر بأنه يضايق القوم. وأنهم أخذوا ينزحون عن دار هو فيها. ومما زاد فى ألمه، أن الدار كانت دارهم. وأنه وهو ذلك الغريب، راح يطردهم منها ويفسح فيها لنفسه. فعافَ ذلك الوضع الذى أرادت الأقدارُ أن تضعه فيه، وقرر فى نفسه أمراً اعتزم أن ينفذه.

فلما كان الغدُ انتظر حتى شيّع مركبة زينبَ إلى أن غابت عن الأنظار، وقبّل ذرات التراب التى تطايرت خلفها، ثم هرول إلى عمه فلما دخل عليه قال:

— أىْ عمّاه!

ورفع الباشا عينيه وقال فى اقتضاب:

— إيهِ!

وكان متجهم الوجه منقلب السحنة. وأدرك مختارٌ السبب. وود لو تمهل عمه قليلا، فإنه ما أتاه إلا ليريحه.

واستطرد الفتى فقال:

— إنى أستميحك عذراً فيما جئتُ أعرضه عليك.

ووضع الباشا يده على قلبه . لقد خشى أن يكون قد جاء خاطباً زينات . وكان مجرد ورود هذه الفكرة إلى ذهنه ، كافيا لأن ينغصه ، لأنه يوقعه فى ذلك الحرج المعهود الذى لازمه مذ كبرت ابنتاه . تانك الابنتان اللتان شبّتا كغصنين متجاورين ، فلما ترعرعتا مالتا كلٌّ إلى ناحية ، مع أن ماءً واحداً يرويهما وعصيراً واحداً ينسكب فيهما ، وبقى الجذع الذى يحملهما معاً يحاول عبثاً جمْع الشمل ، ويحمل من العبء ما تحملان وأكثر . وأخيراً أفلح فى أن يُسيغ ريقه فغمغم :

— تكلم يا بنىْ .

وأنصت واجفاً ينتظر الحديث . وقال الفتى مخاطباً عمه :

— لقد احْتَضَنْتَنى طفلاً وحنوتَ علىّ حُنُوّ الأب ، فأسوْتَ جراحى وخفّفتَ عنى اليتْم الذى عاجلتْنى به الأقدار .

وعقّب الباشا :

— وهل كنتَ إلا ابناً لنا ؟

على حين قال مختارٌ متابعاً حديثه :

— وفتَّحتَ لإيوائى منزلكَ وأوسعْتَ لى فى حجراته ، فلمْ تُشعرنى بغربةٍ وأنا الغريب .

— وهل كنتَ غير أهلٍ وابنِ أهل ؟

— وعلَّمْتَنى فأحسنتَ تعليمى وصيَّرتَنى رجلاً فى الرجال .

— علَّمكَ اجتهادكَ .

— والآن وقد زودتَنى بكل ما يتزود به المرء ليبدأ كفاحه فى الحياة ، فإنى ليخلق بى أن أعتمد على نفسى فى كل ما اتصل بى من شئون ، وإن تطلَّب ذلك أن أهجر مهدى العزيز ، وأقيم فى سكنٍ خاص .

— تعنى بذلك أنك تريد أن تتركنا ؟

— إذا أذنتَ يا عماه .

ووجم الرجل ، وخشى أن يكون مختارٌ قد فطن إلى أنه قد بات غير مرغوب فيه . وسرعان ما ارتسمتْ أمام عينيه صورة الماضى . فذَكَرَ أخاه المائتَ من عشرينَ عاما . وكيف أنه أوصاه خيراً بابنه وهو يلفظ

أنفاسه الأخيرة . ثم ذَكَر مختاراً اليتيم . وكيف حُرِم حَنانَ أبويه فراح يستجدى حنانَ الغريب . ورآه وهو يحبو بين يديه طفلا ناعم الأظفار ، فيستدرُّ الحنان من قلبه ، حتى استطاع أن يحتل فيه مكاناً وقَعَ فى حبته .

ذكر كل هذا فاغرورقتْ عيناه بالدموع . وتأثر مختارٌ لبكاء عمه فبكى . وليس يحز فى النفس كمنظر شيخ يبكى ، ويسكبُ القليل الباقى فيه من عصارة الحياة .

ومرت بين الاثنين فترة صمت ، كان مختارٌ فيها يذوب شفقة على عمه ، الذى رآه يعانى أمامه من الحرج والعذاب ما ينوء به شيخٌ فى مثل سِنّه . ولمْ يكن العم بأقل إشفاقاً على ربيبه والمعطَّر بذكريات صباه . لقد ذكَر حبَّه اليائس ، وذكر ضَعف قلوب الشباب أمام سحر الغيد ، وكيف أنه وهو شابٌ اكتوى مرة بنار الحب ، فكان يشعر كأن يداً خفيَّة تصب اللهب فى جوفه . ذكر هذا وعَذَر . ولمّا عذر رثى وترفَّق . على أنه لم يلبث أن ذكَر زينات . وزيناتُ ابنته وفلذة كبده ، وهى

توشك أن تتردّى فى حفرة . ومن ثم فإنقاذها مقدّم على كل شىء ، وهو ما لن يكون إلا بإقصاء مختار . وهكذا لم يتردد فى الثبات على رأيه الأول ، ولكنه بقى حائراً على أى صيغة يبديه . مما لا شك فيه أنه لن يطعن كبرياء امرئ ربّاه ذات يوم . ولكنْ ما دام ليس من طعنه بد ، فليمسك السكين بيدٍ وبالأخرى البلسم . أجل ، لا بد من مجاملة مختار . يجب أن لا يدعه يترك الدار إلا وهو يشعر بأنه يتركها بمحض اختياره ، ولو أدى به الأمر إلى أن يخدع نفسه . فيا رُبَّ خدعةٍ أدخلها المغلوب على نفسه ، أبرأتْـه من جِراح . وإذَن فليسقِـه السم فى عسل . وإذَن فليُمَـوِّه الحقائق عليه . فرفع إليه عينيه المكدودتين ، وراح يقول له فى لهجة عذبة :

— ولكنّ ذهابك سيشق علينا يا مختار . إن عِشرة عشرين عاما ليس من السهل أن تُنسَى . فهلاّ فكرتَ قليلا فى الأمر يا ولدى ؟

— فكرتُ فيه يا عماه . وهدانى تفكيرى إلى ما جئتك فيه . وشجّعنى عليه أنه لا ينمُّ عن عقوق . فما كان

بُعدُ الدارين لِيُنقِصَ من الوداد . هبني يا عماه لم أزل مغترباً فى طلبِ العلم ، أو هبني زاولتُ عملا فى الريف ، أفكان هذا يُنسيني مهدى ، ومَنْ هُمْ لى كأمى وأبى ؟

— حاشا يا بنىّ أن أتهمك بالعقوق ، ولكننى أشفق عليك من الوحدة ، وأخاف أن يرهقك العبء .

— الأعباء يا عماه تخلق الرجال . وإنى ما جئت ألتمس منك ما ألتمس ، إلا طلباً لهذه الأعباء . أريد أن أُثبت أن تربيتك أثمرت ، وثمار التربية رجال . ولن يكون الرجل جديراً بهذا الاسم حتى يُختبر فى معركة . ولقد عولتُ على أن أخوض معركة الحياة لأجرب نفسى . وأمسِ وقع اختيارى على غُـرَفٍ بشارع فؤاد ، أروم أن أتخذ منها عيادة وسكنا . ولعله من الخير للطبيب أن يقيم حيث يعمل ، فإن ذلك لما يحفظ عليه وقته . فإذا أذنتَ يا عماه وما إخالك إلا تأذن ، ذهبت غداً لاستئجارها .

— الرأى لك يا بنىّ ما دمت تصر .

ثم انكب على مكتبه وحرر ورقة أعطاه إياها وهو يقول :

— هاكَ إذْنًا بألف جنيه من متجمِّع دخلك لتؤسس بها عملك الجديد . فسِرْ يا بنيّ على بركة الله ، واذكر دائمًا أن دارنا دارك .

وأخذ مختارٌ الإذن وهو يقول :

— شكرًا لك يا عماه . ما لي غِنًى عنك ولا عن دارك .

ثم تناول يده فقبلها وانصرف .

وجعل يفكر وقد خلا إلى نفسه : الآن قد كَتَب بيده وثيقة اغترابه ، وغدًا يسير إلى المنفى بقدميه . ولكنّ ذلك خير على أى حال ، من أن كانت تأتيه مكتوبة ويُرغَم على توقيعها صاغرا .

. . .

وفى اليوم التالى حزم متاعه وذهب إلى السكن الجديد . وأجال بصره فى حجراته الخاوية فلم يجد زينات . وحاول أن يستمع إلى صوتها العذب فلم يسمع إلا أصوات قوم كلهم غرباء . بعضهم خدمٌ وبعضهم من الحمالين الذين كانوا ينقلون الأثاث . فاستوحش ، وأحس بالغربة

فى بيته ، وهو الذى لم يكد يهنأ برد غيبته . فمنذ أسبوع عاد إلى الفردوس الذى طُرِدَ منه من أربعة أعوام ، وها هو ذا يُطرد منه مرة أخرى ، ولمّا تمضِ على مُقامه فيه غير أيام معدودة . فلم يتمالك أن هتف :

— أواه يا زينة ، لمَ فرقَت الأيامُ بيننا ؟ بل لمَ فرّقَتْنا روحاً عن جسد ؟ فإنى وإنْ كنتُ هنا فبأوسيمَ قلبي . وأنتِ وإنْ كنتِ بها فهاهنا قلبك . ألا ليتَ الزمان يَعِفُّ حين يقسو ، عن حَفْر المهاوى بين المرء ونفسه !

ثم تطرّق به الفكر إلى محرز . حقا إنها الآن بِنَجْوَةٍ من عينيه ، ولكنها ستعود يوماً ما ويبث حولها أشراكه . وقد ينجح فى غزو قلبها ، إذ من دأب العيون أن تسلو البعيد ، وتألف من المناظر ما تَقَعُ عليه .

وكاد القلق يذهب بصوابه . لولا أنه لم يلبث أن استبعد فكرة غدر حبيبته به ، وقد سقاها هواه حتى أترعها . فعاد يتجلد . وأدرك أن الخور ليس من شيم الرجال ، ولا هو مما يكفل النجاح فى شيء . وهو بَعْدُ

يجب أن ينجح من أجل زينات . فزينات له وإن طال الأمد . وهى لا شك تبنى عليه آمالها ، وترى فيه بطلها المنتظر ، وما ينبغى أن يخيب ظنها فيه .

وهكذا آلى على نفسه أن يولى مهنته كل عناية ، عساه يصيب منها النجاح الذى يأمل . ولم يسمح لآلامه أن تهوى به ، لكنه راح يتسامى بها ، ويسخرها فى رفع تمثال المجد الذى صمم على أن يقيمه لنفسه . والآلام قوة هائلة ، إن أحسن المرء استخدامها أتت بالمعجزات . فهى كذلك البخار المضغوط الذى يسير القاطرة ، فى وسعنا أن نصعده فيذهب هباء ، وفى وسعنا أن نكبته فينفجر بنا ، ولكن فى وسعنا أيضاً أن نجعله يدفعنا إلى الأمام .

وسار إلى الأمام تدفعه آلامه . وحالفه النجاح من أيامه الأولى ، إذ استطاع أن يحوز ثقة مرضاه ، فلهجوا بالثناء عليه . وأدر الثناء عليه الصيت . قليلاً فى أوله كالقطر . ولكن القطر ما يلبث أن يصبح غيثاً ينهمر .

الفصل الثامن

بعد جولة فى حقول « أوسيم » ، عادت زينات إلى بيتها الريفى . ومرّ من تحت نافذتها راعٍ فى مغرب الشمس . وتعالت فى السكون بحّات نايه الشاكى . جريحة تشكو إلى الشفق الجريح . وأنصتت زينات للشكوى ، ورفرف بين جنبيها ذبيح . كانوا عندما شرّدوها ذبحوه . ليتهم تركوها وما قتلوه !

وراح الراعى ينفخ فى نايه ، وكأنه ينفخ دماء قلبها ويخضب بها السحب . فكانت كلما انبعثت نغمة حاملة معها ذلك النداء الذى ترسله إلينا آمالنا الغاربة ، خطفت جانباً من هذا القلب المشوق لأن يلبى .

وعندما أخذت الولولة تبتعد بابتعاد الراعى ، خيل لها أنها تذهب معها إلى ذلك المكان المجهول الذى تغرب فيه الآمال . حتى إذا ما غاب صداها ، وغاصت البقية الباقية من قرص الشمس وراء الأفق ، كان كل شىء من رشد

زينات قد ذهب ، ولم يبقَ منها غير هيكلٍ مُسْنَد الرأس إلى حافة النافذة ، هيكل عذراء ذبحتها سكّين الفراق .

. . .

في هذا الوقت كانت تجلس والدتها في غرفة مجاورة ، تقرأ كتاباً جاءها من زوجها . كان قد أرسل ينبئها بأن مختاراً رحل عن الدار ، ومن ثم لا بأس من أن تعود مع زينات ، على أن تكتم عنها أمر هذه الدعوة ، وإلا فطنتْ إلى أن سِرها قد افتضح ، فينثلم حياؤها . وهو بَعْدُ يحرص على هذا الحياء ، لأنه يعتقد أنه البرقع الذى تخفِي وراءه النفسُ سوءاتها ، فإذا ما انهتك مرة أمام الناس ، وأبانَ من عورات صاحبه ما كان يجهد فى إخفائه ، لم يجدْ بعدئذ شيئاً يُبْقِى عليه ، فما يلبث أن يخلع العذار .

وألقت شريفةُ هانم بالكتاب وهى تقول :

— رأىٌ سديد يا رمزى . فلأزعمْ لها أنى سئمت الريف ، أو لأستدرجْها حتى تبوح هى بذلك ، ثم أقترح

عليها العودة . ولـكنّ شيئاً آخرَ ما ينبغي أن أخبرها به ، وهو أن مختاراً ترك دارنا . فإن من الأنباء ما يؤخر الإبطاءُ في إذاعته الشقاءَ المكتوب على الجبين . وكل يوم يتأخره الشـقاء ، يضيف يوماً إلى عمر هنائنا . فلْتجهلْ إذَن زينات ما يسوءها حتى تعرفه في حينه . ولأتركْ لها ليلةً تنامها فرحة ، ثم ليكنْ فرحها بعدئذ أكذوبة ، فماذا يضير الأكاذيبَ ما دامت تُدخِل السرور على نفوسنا ؟ حقا إن الأكاذيب مآلها أن تنكشف ، ولـكنّ الحقائق أيضاً يتقلص ظلها ، ولا شيءَ على هذه الأرض يستطيع أن يمنحنا الهناءَ الدائم .

. . .

وقامت فدخلت على زينات . وألفتها على حافَة الشباك شبه نائمة . ولم يخفَ عنها ما تعاني من تباريح ، فربّتت خدّها فأفاقت وهتفت مذعورةً :

— أماه !

وراحت الأم تسألها :

— ماذا بك يا بنيّة ؟ أنومٌ ولمّا ينقض على

الغروب نصف ساعة ؟

وأجابت الحسناءُ المسربلة بهمومها :

— لا شيء يا أماه . إنه الخمول الذى تبعثه فى روحى الأيامُ المملة . لا جديدَ هنا يُذهِب الصدأ عن النفس . فنى الصباح صياح الديَكة ، وفى الغروب وَلْوَلَة مزامير الرعاة ، حتى إذا ما كان الليل ، فثمة ذلك السكون المخيم الذى يشبه سكون القبور . ووسط هذا الجو الذى لا تغيير فيه ، تسير حياتى على نهج واحد . فإذا ما فرغتُ من التنزه فى الحديقة ، خرجتُ للتجوال فى الحقول ، وهكذا دواليْك كأننى نحلة ما يعنيها إلا الدوران حول نفسها . فهل هذا مكان يستجمُّ المرء فيه ؟ تالله إن هذا الريف ما يُورِث إلا السقَم . انظرى كيف شحبَ لونى وبرزت عظامى ، وأصبحتُ كمومياء .

واحتوتها الأم بين ذراعيها كأنما لِتُنَحِّىَ عنها الشر . ثم قالت وهى تحدق فى وجهها الجميل :

— ماذا دهى الريف عندك يا زينات ؟ أنسيتِ سابق كلفك به ، وارتياحك إلى المُقام فى ربوعه ؟

— لا ، ولكنى سئمته . لا شيءَ يأخذ بلب الإنسان إلى الأبد . إن النغمة الواحدة ، تطربنا لمرة واحدة ، ثم تَغرق حِدّتُها فى نشوتنا ، فنروح نلتمس نغمة جديدة لم تَفْنَ فى حواسّنا بَعْد . نغمةً لم نغنّها من قبل . وهذه الأسرار التى تُذْهلنا عن أنفسنا حيناً ، تبدو تافهةً بمجرد أن تُحَل ، ولذا فنحن نحتاج كل يوم إلى سر مغلق نستمتع بفض غلافه . وإنّ يوماً لا يطْلع علينا بمفاجأة تهزنا من الأعماق وتُذهب عن أنفسنا الملل ، لا كان ولا عشناه . ولقد ملّت نفسى يا أماه من طول ما مرت علىّ الأيامُ متشابهة ، فإذا لم تبادرى بالعودة بى إلى المدينة ، فسأرغمك على أن تعودى بى إليها جثة هامدة . آه ، إن الفناء ليدبُّ إلىّ مسرعا وسْط هذا العالم الفانى .

وضحكت الأم لهذه الحدّة الساذجة . ولم يَفُتْها أن الصبيّة تكذب لتسوّغ طلب عودْتها . ولكنّ هذه المغالطة كانت عين ما تشتهيه السيدة . ألم تأتِ لاستدراجها كى تطلب هى العودة ، وها هى ذى تطلبها

متذرعة بسبب لبق ؟ إذَن فلقد كان الظرف مهيأ كى تقول لها :

— ما دمتِ تلحّين فى طلب السفر ، وما دام المُقام هنا يؤثر فى صحتك الغالية ، فلا يسعنى إلا أن أنزل على إرادتك .

وانتفضت الفتاة بين ذراعىْ أمها ، وهتفت وهى ترفع إليها عينيها الواسعتين :

— أحقا يا أماه ؟ ومتى يكون ذلك ؟

— كما تريدين . ليكن غداً إذا شئتِ .

— حسناً . ولْيكنْ صباحاً يا أماه . بل ليكن مع يقظة الطير . بل مع رَذّ الندَى على زهر البكور . بل ونجمُ الصباح لمّا يختفِ وراء تباشير الضوء . شكراً يا أماه ! تعالىْ أقبّلْك يا أماه .

وراحت تغمر أمها بالقبلات . ثم تركتها واندفعت إلى النافذة . كانت تلقِى نظرة على الطريق الذى سيعود بها غداً إلى القاهرة ، وتستحث الليل الرابض فى جوف السماء ، أن يجرجر أذياله على عجل ، ويفسح

مكاناً لنور الصباح .

ثم طفقت تتنقَّل من حجرة إلى أخرى كطفلٍ مجنون بصباه ، وهى تهتف فى قلبها :

— مختار ! إنى عائدة . كم ذا تكون فرحتك بى عندما ترانى أمامك فجأة ! سأهبط عليك كما يهبط النبأ السار . أو كما يهبط الندى على وادٍ ذى زرع . وستنفذ إلى قلبى بعينيك مرة أخرى ، وتملؤه نوراً بسناهما . غداً يا مختار ، ستضمِّد جراحى وأضمد جراحك . وسيُورق فى قلبى غصن الأمل من جديد ، ويعود يُنْبِت فى خدّى الورد ، فما ترانى شاحبة هكذا . لن أحمل همًّا بعد اليوم ، حتى همَّ التفكير فى الزواج بك . حسْبى أن أراك من الزحام ، كما لو كنتَ قمراً وأنا أحد الناس . وأصغى إليك مع غيرى ، كما لو كنتَ طائراً وأنا زهرةٌ غارقة وسط الحشْد . لقد علَّمنى نأيُك قيمة النظرة المجردة التى لا تطلق لاعجاً ، والأحاديثِ البريئة التى لا تشفِى الأُوام .

ولم تَنَم ليلتها ، وظلت تناجى نفسها بهذه الأفكار .

وبين حين وحين تنهض من فراشها لتلقى نظرة على الميل ، وتستحثه أن يذهب .

. . .

وفى الصباح ، ارتدت زينات ملابسها ووقفت فى الشرفة تطل على الحقول وتترع عينيها بمنظرها الجميل . فأحست بأنها عادت تحب الريف بعد أن كف عن التفرقة بينها وبين حبيبها . وكأنما كبر عليها أن تنكرت له بالأمس فطفقت تناجيه فى تدلّه وتقول :

— كلا ، إنى أحبك أيها الريف . أحب منك هاتيك السهول الفسيحة ، المصبوغة خضرةً على مدى البصر ، تشقها جداول كأنها أسلاك من الفضة ، وتطل عليها السماء بثوبها الأزرق الموشّى من السحب بأفواف ، والذى تلونه كل يوم فى الفجر وفى الغروب بعصير الورود النابتة فى قمم الجبال ، وتبدله فى المساء بآخر للسهرة ، وقد رصعته بنجوم كأنها الماسات ، لتستقبل به القمر حين يطلع من خلف الربا ، ويساقط على خدها قبلاته ، فإذا الغصون من الأرض تناغيهما

والجنادبُ تزفهما ، والنسيمُ يَسرق عطر الزهور لِيَنْضَحَهما به ، ويَخْلُسُ البَلَلَ من على صفحات الماء ليرطِّب به خلوتهما .

وتوقفت لحظة ثم عادت تقول :

— نعم لهذا أحبك . ولكل ساذجٍ فيك وخلاب . مِن سَواقٍ تقوم على الضفاف يجرُّها أبقارٌ معصوبة ، كلما تدفَّق من عيونها الماءُ كشلالات ، فَأْتَلَفَ خريره الشاكى مع نُعار العَجل الحزين ، فثمةَ أغنيةٌ خالدة . وقطعانٍ من الغنم ما بين ذاهبةٍ فى الصباح إلى المراعى ، وعائدةٍ إلى حظائرها فى الغروب ، إمَّا عدت تضاحكتْ على وَبَرِها أشعةُ الشمس ، وَحَدَتْها مزاميرُ الرعاة الشادية . وصبايا يتبعثرن فى الحقول فى مواسم الجَنْى ، وما يفتأن وهنَّ يحصدن الثمار يتغنين بأناشيدهن الريفية المحبوبة . وأُخَرَ يتجمعن حول منابع الماء يَملأن الجِرَار ، ثم يسرن بها بين صخب خلاخيلهن وقد فار على حافاتها الزَّبَدُ كأنه قهقهة إنسانٍ سعيد .

ثم استدركت :

— كل هذا على شريطة أن لا تأخذنى من حبيبى .
آه ، مَن لى بشهر أقْضيه فيك بصحبته مَن لى !

وكان موعد الرحيل قد حان وجعلتْ أمها تناديها ، فهرعت إليها وهى تنزل الدرَج قفزاً ، ثم استوت بجانبها فى المركبة التى انطلقت بهما إلى القاهرة .

وفى هذه المرة كان كل شىء باسماً فى الطريق ، خلال عينىْ زينات . فكانت الحقول الخضراء تبدو كوجوهٍ مستبشرة . وكانت قطرات الندى التى تخضّل النباتات النامية على الجنبين ، تلُوح كنقط عصَرها عليها الهناء . ولم يعدْ طنين السواقى ينساب نائحاً فى أذنيها كما كان يفعل وهى قادمة إلى الريف ، وإنما كان هذه المرة أشبه شىء بغمغمةٍ مرحة يهذى بها سكران . لقد تحوّل كل شىء فى عينها بتحول إنسان هذه العين .

. . .

وأخيراً وقفت المركبة أمام باب القصر ، فنزلتا منها . وما إنْ بلغتا الدهليز ، حتى أقبلت جلفدانُ والخدم يحيونهما . وتلفتت زيناتُ فلم تجد مختاراً فيمن حضر ،

فانسلّت من بين القوم ، وبعد أن ألقت نظرة واجفة على نافذة جارتها ، واطمأنت إلى أنه لا نجْمَ فيها يرنو إليه مختار ، راحت تجوس خلال الحجر باحثة عنه وهي تهمس :

— مختار ! هأنذا عدت فهلمّ إليّ ! هلمّ إليّ ولا تبطئ ! تعالَ انظرْ ضناي ! تعالَ انظرْ ذبولي ، واسقني من هذا الماء الذي يعيد إليّ نضرتي ، ماءِ طلعتك الوضيئة ، الذي يتفجر من جبينك كما يتفجر الينبوع ، ومن عينيك .

وإنها لتُهيبُ به بهذه الكلمات ، إذ حانت منها نظرة إلى غرفته فألفتها خالية من الأثاث . فتوقفتْ عن السير وشهقت شهقة كادت تزهق لها روحها ، ثم راحت تقول وهي تجيل بصرها هنا وهناك :

— مختار ! مختار ! أين أنت ؟ ما لحجرتك خاوية ؟ أجبْ يا مختار ، يا حبيبي ! أين أنت ؟

وردّدَ الصدى نداءها . وانسكب في أذنيها يقول : « أين أنت » ، ثم لا يجيب . كان يتكلم بلغة الفناء ،

الذى لا علك حين يفوه إلا أن ينتكس راجعاً إلى معناه ، فلم يزد على أن حكى كلمة فانية .

فضربت بكفها صدرها وصرخت :

— ويلى !

ثم انطلقت تعدو وتتخبط كمذبوحة ، وهى تردد بصوتها الملتاع :

— مختار ! يا حبيبى ! أين أنت ؟

واتفق أن مر أحد الخدم فاستوقفته سائلة :

— أين مختار ؟

وأجاب الخادم :

— إنه لم يعد يقيم هنا يا سيدتى . منذ أن اتخذ له عيادة ، آثر أن يجعل إقامته فيها ليكون عن كثب من مرضاه .

ومضى الخادم لسبيله . وظلت زينات تحملق فيه وكأنها لا تصدق ما أخبرها به . ثم اندفعت تفتح الحجرات مرة أخرى ، وتنظر فيها وهى تقول :

— مختار ! هل ذهبت حقا ؟ لمن جئت إذن ؟ ولماذا

لم أبقَ فى أوسيم ؟ واحسرتاه ! إنها كانت فرْحة ليلة ، ليلة واحدة ، ثم لمْ تتمّ . يا حبيبى يا مختار ! عندما زفّت إلىّ أمى نبأ عودتى ، خلْتُ أن يوم اللقاء قريب ، وإذا بنا ننتقل من فراق إلى فراق . فيا ربّ حتام هذا الشقاء ؟ وحتام التنائى بين الأحبة ؟

ثم أدركها الإعياء فارتمت على مقعد وأخذت تبكى وتقول :

— أرْجَفَ الخادم يا مختار ، عندما زعم أنك ذهبت برغبتك . إذ كيف تذهبُ ونور عينيك هنا ؟ يَصب من لحظى وثناياى وجبينىِ الوضاح ؟ وهل يتخلى عن نور عينيه إنسان ؟ فيا حبيبى خبّرنى : أتخيرتَ الرحيل أم أرغموك ؟ لهفى عليك ! هل أعادوك يتيما كما كنت ، لا عين ترعاك ولا أهل يؤنسون وحدتك ؟ وكل ذلك من أجلى أنا ؟ آه ، لا كانت زينات إذَن ، إنْ كان لابد أن ينالك منها سوء ! ليتنى ! ليتنى أستطيع أن أنتقل إليك وأسهر على خدمتك ليتنى ! ولكن اطمئن ، فسأوافيك بقلبى حيث أنت ، وألازمك ليلَ نهار . فإذا

ما جلستَ وحدك فى المساء يا حبيبى ، أو رحتَ تبرم بصمت بيتك الموحش ، فاذكرْ أنني بجانبك ، أؤنسك وأسرّى عنك ، وناديى باسمى وبادلْنى الحديث . أواه يا مختار ! لقد قتلونا وايم الله ! عندما ضن الزمان علينا بالأمل ، بقى لنا أن أراك وترانى ، وتحدثنى وأحدثك ، ولكنّ تلك البقية قد أبوْها علينا أيضا . فليت شعرى ماذا أقل من النظرة كان يبقَى لنا ؟ وهل كان حتما أن نفقد كل شيء كى يرضَى ذوونا ؟ أواهُ مختار ! يا من بعدتَ وما أطيق بعادك ، وهجرتَ فاضرمتَ فى أضلعى النار — كيف احتمالى وخطبى فيك لا ينفع الصبر معه ، وليالىَّ من بَعدك طوال ؟ ألا أدركْنى ! أدركنى يا حبيبى ! ففؤادى تضعضع وجسمى وهَى . والضنى قد كسانى فرعاً لِقَدَم .

الفصل التاسع

أمضى مصطفى وعفافُ أوقاتاً ناعمة بعد أن تمت خطبتهما . وفى انتظار فوز الفتى بوظيفةٍ حكومية تؤهله لها أوّليته فى الامتحان ، لم يحلما إلا بالسعادة والثراء ، وكادا ينسيان أيام فقرهما الأولى . ولم يَدُرْ بخلدهما أن الشقاء يتعقبهما من وراء ستار ، كأنما قد عقد بينه وبينهما محالفة يأبى إلا التمسك بنصوصها .

ذلك أنه ظهرت نتيجة التعيين فى المنصب الوحيد الخالى بالمصلحة التى كان مصطفى قد قدم طلبه إليها ، فإذا بالذى يظفر به شخص آخر . وعقلت الدهشة لسان المسكين ، عندما وجد أن هذا الشخص زميله «عاكف» . إنه يذكر عاكفاً هذا . فهو ذلك الفتى الخائب الذى لم يستطع النجاح إلا فى الملحق ، فبأى حق يقدم عليه وهو أول فرقته ؟

واظلمّت الدنيا فى عينيه وحار ماذا يفعل ؟ أيسلك

سبيل الأعمال الحرة ؟ ولكنه مُعْدِمٌ والبدء يحتاج إلى مال . أم يلتمس عملا فى مؤسسة أهلية ؟ ولكنَّ فى البلد أزمة تَبطُّلٍ عمَّت كل الميادين .

إذَن لم يبقَ أمامه إلا أن يعمل خادماً فى قهوة ، أو يجول بائعاً أوراق النصيب . وبذا ينفض يده من مستقبله إلى الأبد ، ومن عفافَ أمنيَّة فؤاده ، ويكون قد بذل بلا ثمنٍ تلك الساعات الطويلة التى أنفقها فى طلب العلم ، وتلك الدماءَ الغالية التى استنزفها جدُّه المتواصل . حقيقة أن كل الأعمال شريفة ، ما دام تنوُّع المهن ضرورة حتمتها طبيعة الجماعة ، ولكنْ يبقَى مع ذلك أنها تتفاوت فى نواحٍ أخرى . وإذَن فمن الغبن أن يقنع منها بالتافه ، مع أن بيده الإجازة التى ترشحه للمجد . ألا ما أظلم الحياة ! لا بل ما أظلم القائمين بالأمر فيها !

تتابعت كل هذه الخواطر بذهن مصطفى . على أنه أمَلَ أن لا تكون العدالة قد انقرضت بتاتاً من هذه الأرض ، فبدا له أن يذهب إلى رئيس المصلحة ويرفع إليه شكواه لعله ينصفه . وراقت له الفكرة فلم يتردد ،

وبادر إلى تنفيذها من فوره .

. . .

ومَثَلَ مصطفى بين يدىْ الرئيس ، ولم يكن إلا رمزىّ باشا . فلما فرغ من شرح مظلمته له ، سأله الباشا فى تهكم :

— وهل جئتَ تحاسبنى ؟

فرد الفتى عليه وقد ساءه تهكمه :

— عفواً ، بل جئت أستجدى . أستجدى حق !

وغلى الدم فى عروق الرجل ، إذ أدرك أن الفتى يوبخه . فقال له فى حنق :

— اسمعْ يا بنىْ . لماذا لا تلجأ إلى الأعمال الحرة بدلا من الوقوف بأبواب الحكومة ؟ أليس من خَوَر العزيمة أن يفر شابٌ مثلك من ميدان النضال ؟

وهكذا كان أسهل على الباشا أن يَصِمه بالخوَر من أن يَصِمَ نفسه بالظلم !

ووقفت هذه الجملة فى حلق مصطفى . وكاد يثور لكرامته ، ويلقِى على الباشا درساً فى وجوب احترام

الناس حتى لو لم يكونوا من حملة الألقاب . ولكنه ما لبث أن أخذته رهبة المنصب فتراجع . ثم قال وهو يزدرد الإهانة دون أن يقوى على القذف بها فى وجه خصمه :

— ما كنتُ بالفاتر الهمة أيها الباشا . ولكننى لا أملك النواة . لا أملك القروش التى أُبْذرها لتُنبِت جنيهات .

— آه ! هذا ذنب حظك .

— حظى لم يذنب . لقد سلمنى بدَلَ الذهب وثيقة به ، وبذلك خرج الأمر من يده ، وانتقل إلى أيدى من وُكِلَ إليهم إيتاء الحقوق . إن فى كل خلية بذهنى الممتاز ، دائناً يدين الوطن .

فشعر الباشا بالخزى . ولم يجد ما يستر به حرجه إلا أن يبتسم ساخرا بحدَّته ، ثم انكب على أوراقه يفحصها . لم يكن يُعْوِزُه المنطق الذى يُفْحِم به فتى حَدَثا ، ولكنْ كان يعوزه الحق . وسلاح الباطل مفلولٌ أبدا ، حتى لو كان فى يد فارس .

أما مصطفى فراح يقول كمن يلقى بآخر سهم فى جعبته :

— رحماك أيها الباشا ! إننى فقير وأعول أمًّا مريضة ، فاعملْ شيئا من أجلى .

ولكنه لم يجد جوابا فانصرف . غير أن لهجته كانت قد فعلت فى ضمير الباشا فعلها .

. . .

وصادفه فى أحد أرْوِقَة الديوان موظفٌ شَيْخٌ من موظفيه كان صديقا حميما لوالده . فحياه ولما لاحظ أنه مهموم سأله عما به فقص عليه قصته .

فلما فرغ منها قطب الشيخ جبينه وراح يتمتم فى استياء :

— قاتل الله المحاباة ، آفةَ الجماعات من قديم ! تعساً لهذا ! كل شىء وقفٌ على ذوى الجاه ومن لاذ بهم ، كأنه لا حقَّ لسواهم فى الحياة !

— قد فهمت . إذن فما كفٌ يمتُّ للباشا بقرابة أو نسب ؟

— أجل ، إنه خاطِبُ ابنته . إن لدى الباشا ابنة دميمة حار كيف يزوجها . ولما علم بذلك الخبيث « رجب » — وهو موظف معى بالقلم يتقن فن الزُّلْفَى للرؤساء — لم يشأ أن تفلت من يده الفرصة ، فجاءه بهذا الخاطب على أن تكون الوظيفة ثمنا لزواجه . لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن بعض البنات أصبحن سِلَعاً تباع ، والزواج بهن صار رشوة .

— هذا فظيع ! وأفظع منه أولئك الذين يتزوجون منهن دون رغبة ، ويبذلون رجولتهم لقاءَ وظيفة . ماذا أغلى من الرجولة ، حتى نُهْدرها فى مخادع نساء لا نطيقهن ؟

— على أى حال لا تَقْسُ على العذارى يا بنىّ . فلعل الخير الذى لا تخلو منه هذه الظاهرة ، أنها تجبر خاطر الدميمات العوانس ، وتأتى لهن بأزواج ممتازين . إذ أن عاكفاً شاب وسيم ، تتمناه أجمل العرائس .

— ولكنها تكسر خاطر الحسان الفقيرات ، لأنها تترك لهن الحثالة ، مع أن حسنهن يكسبهن الحق فى

النُّخبة . ليست الدمامة ذنبا ، ولكنّ الطيور يجب أن تقع على أشكالها . وقديماً رشَّحَت الصفاتُ ذويها لِمَا تستحق .

— دعنا من هذا . ما رأيك فى أن للباشا ابنة أخرى فى وسعك أن تتزوجها وتظفر بوظيفة ؟

وهتف مصطفى :

— أنا ؟

— أجل . ولن تُذِلّ فى هذه الصفقة رجولتك كما أذلها عاكف ، لأن الفتاة التى أعنيها آية فى الحسن .

وإذ كان مصطفى يعرف بيت الباشا ، من طول ما مر به هو وعفاف ، فقد طافت بذهنه الفتاةُ التى ما رأتهما منه إلا تبسمتْ . فأمّن على أنها حسناء . ولكنه لم يتردد فى أن قال :

— لتكن « فينوس » أخرى يا عمى ، فإنى خطَبت فتاة أحبها وتحبنى ولا أرضى بها بديلا .

— ذاك وهْمٌ يا بنىّ من أوهام الشباب ما يلبث أن يزول .

— ليكن فإن الجمال فى هذه الأوهام . وهَبْها تزول فماذا غيرها يبقَ ؟ إننا أنفسنا نعيش إلى أمد ، وما كان للفانين أن يعيّروا سواهم بالزوال . وفضلا عن ذلك فإنى لا أقبل أن أتردَّى فيما يتردى فيه الشبان وأشترى رزق بزواج ، حتى ولو برَّح بى الجوع .

— لست أرى المغالاة فى التعفف من حسن الرأى . عليك يا بنىّ إذا أردت أن تعيش ، أن تتطبع بطباع العصر الذى تعيش فيه ، وإلا رحتَ ضحية مثاليَّتك .

— ضحيةَ مثاليَّتى ! ألا بئس عصرٌ تصبح المُثُلُ فيه نكبة على الإنسان !

واستطرد محدثه :

— ثم ماذا عليك لو أقنعت نفسك بأنك لن تصاهر الباشا إلا طمعاً فى جمال ابنته ؟

— وأخدع نفسى ؟

— لا خداع لأن الفتاة جميلة حقًّا ، وحسنها وحده خليقٌ بأن يكون مَطمعا . فكّر يا بنىّ فى الأمر ، فكثيراً ما يَكسر التفكير شوكة العناد .

— فيم أفكر يا عمى ؟ أفى الاتجار برجولتى ؟ أم فى الغدر بمن منحتنى قلبها فكانت كريمةً ووثقتْ بى ؟

— أما أنك تتجر برجولتك فلا ، لأنك ستتقاضى مقابلها من زينات أنوثة .

فقاطعه مصطفى ساخرا :

— وهل هذا اسمها ؟

— نعم .

— وما اسم الغادة الأخرى ؟

— مخطوبة عاكف ؟ جلفدان .

ثم عاد يتمم حديثه قال :

— وأمّا عن الحِنْث بعهد مخطوبتك ، فلست أنكر أنه شىء بغيض ، ولكنه ما زال أهون الضررين . إذ فى وسعها أن تنتظر إلى أن تجيئها الأيام بسواك ، ولكن أمك ، أمك المريضة ، إن المرض لن يمهلها حتى يبسم لك الدهر . ثم كيف تتزوج وأنت على فقرك هذا ، إلا إذا كنت تريد أن تجيع زوجتك ، وهو أمر إن ارتضيتَه ما إخالها ترضاه ؟ فها أنت ذا ترى أن هذا الزواج محال

أن يتم ، ما لم يُـوَاتِكَ الحظ وتوفق إلى عمل ، وهو ما أراه معجزة فى هذا الزمان بالنسبة إلى فقير . إذ لن تعدم كلما تقدمتَ إلى وظيفة ، مزاحماً من ذوى الحظوة يقْتنصها منك . مِن وضيعٍ يَجعل المصاهرة سبباً لها . أو ثرىٍّ فى غِنًى عنها ولكنه لا يَقْنَع .

وشعر الفتى باليأس . لقد تذكر حبه الذى أصبح فى كفة القدر ، وأمّه التى يبيع المرضُ فى جسدها ويشترى . فتنهد مِلْءَ صدره وقال :

— تَبًّا لهؤلاء ! إنهم يودون التهام كل شىء ، كأنهم ورثوا الأرض وما عليها . وما هم بجياعٍ ولكنّ الجوع فى خُلُقهم . إنهم غيلانٌ آدمية ، تأخذ لِلَذة الأخذ وله وحده . حتى إذا ما اكتظت بطونها بما تلتهم ، لَفَظَت ما لم تستطع هضمه فى ذلك الترف الذى تنغمس فيه . حسْبهم الله ! مَن حوّلوا أقوات الناس إلى دُمًى يلعبون بها ، وتركوهم فريسة للجوع !

واتفق أن خرج الباشا من مكتبه ومر بهما . كان فى حالة يرثى لها من العذاب . يدل الخزى البادى فى

عينيه ، والغـبْرةُ التى تعلو جبينه ، على أنه يعانى أزمةً تَـمُتُّ إلى الضمير . فأطبق مصطفى فمه . وتراجع الشيخ يفسح لرئيسه .

وحيا الباشا مرءوسَـه وهو مار . ولم تخفَ عليه شخصية من كان معه . فأدرك أن بينهما معرفة . ولأمر ما شعر بأنه قد يستغلها فى مهمة لم تتَّـضح له خطوطها بعد ، كأنما كان ضميره يحدِّثه فى الخفاء بأنه لن يدعه حتى ينصف من ظلمه ، وعندئذ قد يحتاج إلى من يبعثه فى أثره ليأتيه به .

وكان منظر الباشا قد حرك فى نفس مصطفى عوامل الحقد ، فراح يستعدى عليه السماء . وبعد قليل شوهد يهيم على وجهه فى شوارع المدينة لا يلوى على شىء .

. . .

ومنذ ذلك اليوم انقبضت نفسُ الفتى ومخطوبته عن زينات ، فكانا يعانيان مشقة كبيرة فى رد التحية إليها ، كلما مرا بها فأومأت كعادتها لهما .

وما ظلمتْـهما زيناتُ وإن ظلمهما أبوها. ولـكنها النفس كما تنجو أحياناً من عقاب ، تؤخذ أخرى بجريرة غيرها .

الفصل العاشر

كانت العقيدة السائدة عند أغلب الحكام الذين عاصروا رمزى باشا ، أن وظائف الدولة تركة قد آل إليهم ميراثها دون شريك ، فكان طبيعيا أن يحصروا تقسيمها بينهم ، ضاربين حولها نطاقاً يحول دون تسرب الطبقات الأخرى إليها ، مهما نادى أفراد هذه الطبقات بأنهم يرثون فيها معهم ، لأنها لم تؤل إليهم عن آبائهم وإنما عن الوطن أبى الجميع . فكنت إذا تعقبت طائفة الموظفين ألفيتها شبكة متصلة الحلقات ، تربطها جميعاً روابط القرابة أو النسب ، وقل أن تجد بينها حلقة قائمة بذاتها لا ينتظمها هذا العقد الجهنمى ..

إلا أن رمزى باشا لم يكن من هذا النفر . فقد كان يمقت المحاباة أشد المقت ، ولا يبرم أمراً إلا إذا اعتقد بعدالته . ولعل هذا كان يرجع إلى عمق شعوره الغريزى بالعدالة ، عمقاً لم يستطع معه أن يؤثر وحى البيئة فيه ،

ذلك الوحى الذى كان ينادى ويصرخ فى صدور الـكثيرين من أبناء طبقته : كل شىء يجب أن يكون لنا ولذوينا .

فلما دخل عليه رجب أفندى يعرض عليه خاطباً لجلفدان ، ويلمح له من طرف خفى بالثمن الذى يطلبه الخاطب ، شعر أول الأمر بالاشمئزاز من هذه الصفقة ، وكاد يرفض المضىّ فيها ، لولا أنه سرعان ما تذكر ابنته العانس ، ثم ما قد يترتب على عناسها من عناس الأخرى ، فطغى عليه حنانه الأبوى ، ووجد فى هذا العرض فرصة ذهبية لإزالة نحسهما ، فلم يلبث أن قبله على مضض وعيّن عاكفاً فى الوظيفة الخالية .

غير أنه لم يكد يخلص من إشكال ابنته حتى وقع فى إشكال آخر ، هو تأنيب الضمير من جراء المظلمة التى أقدم على ارتكابها . كان يشعر بأنه وإنْ أسدى إليها خدمة ، فقد أسداها إليها بالجور على إنسان آخر ، وتلك جريمة لا يكفى لتسويغها حب الآباء للأبناء .

على أن منظر الفريسة التى أرداها فى سبيل هذه الابنة ،

لم يلبث أن غرق فى موجة الفرح التى غمرته لتخلصه من عناسها ، وغرقَ معها مؤقتاً صوت الضمير . فلما قابله مصطفى وأعاد على عينيه مشاهِدَ المأساة التى قام فيها الباشا بدور المجرم ، انجابت الأمواج عن الغريق ، وراح الباشا التعِس يتمثل فى جثته المسجّاة شناعة الجرم الذى اقترفه .

ولم يكن بُدٌّ من أن يذود عن نفسه هذا العدو المخيف ، ألا وهو الضحية التى راحت تستمطر عليه اللعنات من ضميره ، فانبرى يحاول الإجهاز عليها بذلك المنطق المزيف الذى جادل به مصطفى عندما جاء يشهر فى وجهه سلاح الحق .

وهكذا يتمثل الآثمُ فى ضحيته عدوه اللدود بعد أن تخر مضرجة بدمائها ، فيمعن فى القسوة عليها ظاناً بأن هذا يمحو كل أثر لها فى الوجود ، فلا يعود يتعقبه منظارها المخضب بالدم ويلقِى الرعب فى قلبه . ويَنْسَى أن الضحية وإن اختفت ، يبقَى ظلها إلى الأبد وقد احتل عينىْ قاتلها وأخذ يذكّره بإثمه على الدوام .

وإذَن فهل ظفرتْ نفسُ الباشا بالسـلام بعد أن أجهز على فريسته ؟ كلا ، لقد كانت كل طعنة يطعنهـا بها تزيد كمية اللعنات التي يصبها عليه ضميره . ولذلك ما كاد مصطفى يخرج من لدنه مكسور الخاطر ، حتى وجد نفسه محاطا بجيش من ألد أعداء المرء ، ألا وهو صرخات الضمير حينما يسخط .

. . .

وإنه لـجالس يتلقى الطعنات من ضميره ، إذ سمع نقراً خافتاً بالباب ، دخل على أثره رجل منحنى القامة من طول ما اعتاد أن يطأطىء رأسه ، وقد حرص على أن يَزُرَّ سترته ويغضَّ من بصره . ثم اتجه إليه يقدم رجْلاً ويؤخر أخرى ، وقد ارتسمت على فمه تلك الابتسامة البغيضة التي لا تفارقه أبدا ، حتى إذا ما دنا منه مال على يده فقبَّلها ، ثم وقف معقود الذراعين على صدره كما يقف العبد أمام مولاه . كان هذا الرجل رجب أفندي الذي مثَّل دور الخاطبة بين عاكفٍ وابنة الباشا .

تُرَى فيم جاء ؟ وشعر الباشا نحوه بالمقت والاحتقار ،

ولكنه كان مضطرا إلى أن يداريه ، وإلا فضحه هنا وهناك . ثم إنه لم ينس أنه أسدى إليه جميلا على كل حال ، وإن كان السم يكمن فى أطوائه . ومن عادة العين أن تنكسر أمام من أولاها معروفا .

وتكلف الباشا الابتسام وسأله :

— ماذا يا رجب ؟

ومهد رجبٌ لحديثه ببضع ضحكات ذليلة متقطعة ، اعتاد أن يطلقها دائماً قبل أن يطلب أمراً أو يشى بأحد زملائه ، ظناً منه بأنها تجعل حديثه مقبولا . ثم أسرّ إليه بحاجته .

كان يطلب ترقية لا يستحقها . ولكنّ الباشا المدين له بزواج ابنته اضطر إلى أن يطبق فمه ، وما كان منه إلا أن أمر له بما شاء .

. . .

وخرج رجبٌ متهللا ، بعد أن عرف كيف يربح القضية من زملائه . ولكنه لم يكد يغادر الحجرة حتى ازداد ضمير الباشا تعذيباً له . لقد تورط فى جريمة جديدة ،

بحرمان الموظف الذى تخطاه ليرقّى رجبا .

وهكذا تلد الجريمةُ الجريمة ، حتى تتكون من حلقاتها سلسلة يُشْنَق فيها المجرم أخيراً يوم يثوب إليه ضميره . فتُرَى ما هى الحلقات القادمة ؟ وإلى أى مدًى سيبْلغ طول هذه السلسلة اللعينة ؟ وراحت تتمثل له الضحية الجديدة مضرجة بالدماء ، وقفزت إلى جانبها ضحيته القديمة مصطفى ، والضحايا المستقبَلة التى راح يصورها له خياله ، ووقف هو بينها يمثل دور القاتل الذى أمسك بالخنجر وطعنها جميعا .

وهكذا انقلب الباشا آثماً فى نظر نفسه ، وهو الذى عاش طول عمره سليم الوجدان . وأدرك أن راحة الضمير نعمة تَغْمُرُ قلوبَ الصالحين لا يراها إلا الأشقياء . وراح يتساءل : أكل ذلك من أجل ابنتيه ؟ ألا ما أكثر ما تكلِّف الأبناءُ الآباء .

ولم يطق يومئذ صبرا على البقاء فى مكتبه ، فغادره إلى الخلوات ينفِّس فيها عن آلامه على نحو ما تقدم . وكان ما كان من رؤيته حسن أفندى يحدث مصطفى .

وكان ما كان من ارتياحه المبهم إلى هذه العلاقة بينهما .

. . .

ومرت الأيام طِوالاً عليه . وكان من شأن الصدمات التى لاقاها ، أن أحدثت هزة عنيفة بنفسه ، زادت من رقة عواطفه ومبلغ رثائه للناس . فشعر بعطف شديد على مصطفى ، وعزم على أن يعوضه خيراً عما فَقدَ فى أول فرصة تسنح له . بل إنه شعر بالعطف على كل البؤساء ، ومن بينهم تلك الجيوش الجرارة من الشباب الجائع أمثاله ، الذين يُلقَى بهم كل يوم إلى هاوية التبطل ليموتوا هناك . فعاهد نفسه لا على الأخذ بيد مصطفى وحده ، ولكن على العمل من أجل الجميع . ووثبت إلى ذهنه إصلاحاتٌ عدة ، راح يطلب من الله أن يعينه على تحقيقها ، ويتحين الفرص التى تمكنه من ذلك .

وما إن أضمر هذه النية حتى أحسَّ دبيب الراحة يسرى فى نفسه ، كأن مجرد العزم على التكفير تكفيرٌ صغير . فلم يتمالك أن حَنَى رأسه شكرا لمصطفى ، فإلى مأساته يرجع الفضل فى إزالة الغشاوة عن بصره ، وإيقاظ

قُوَى الخير الكامنة فى نفسه وتسخيرها للعمل الصالح . ولعل نبله الأصيل هو الذى مكَّن لهذه الدروس من أن تفيده . ففى كل يوم يمثل الكثيرون من أمثاله أدوار الآثمين فى مآسٍ من هذا النوع ، ومع ذلك لا تتحرك ضمائرهم لرؤية الضحايا . ذلك أنه يُشترط لكى يتحرك الضمير ، أن تكون فيه بقيةٌ من حياة .

الفصل الحادى عشر

لم يكن من شأن ما حدث بين مختارٍ وعمه ، أن يعكر صفو العلاقة بينهما . فبرغبته تَرَكَ مختارٌ الدار ، وبرغبته راح يقيم وحده . حقيقة أن بقاءه بين القوم لم يكن مرغوباً فيه ، ولكنّ أحداً لم يصارحه بهذا فيخجله . بل لو أنهم فعلوا لَـما كان عليهم من جُناح ، ما دام الغرض من ذلك أن يحتاطوا لقلب ابنتهم العذراء .

لذلك ظل مختارٌ يتردد على منزل الأسرة ، لا لِيَصلَ الود بينه وبين من ربَّوه فحسب ، ولكن ليلبى أيضاً نوازع القلب نحو زينات . زيناتَ المعبودة ، التى لو اقتضى الأمر أن يقف ببابها كشحاذ لفعَل .

وكانت هذه الزيارات المتباعدة ، هى كل ما بقى للعاشقين من آمالها العريضة التى استكثرها عليهما الزمن . ولكنها مع ذلك كانت بقية عزيزة ، ظلاّ يحتفظان بها كما يحتفظ الإنسان ببقايا زهرةٍ قطفها فى

عهد قديم محبوب . بل إن هذه البقية كانت أعز عليهما من الأمل ذاته . ذلك أن للأمل حديثاً طويلا . فهو ككوكبٍ يبهر العيونَ سناه ، فلا نراه إلا حينما يكسف . حتى إذا ما رأيناه عرفنا قيمته ، ورحنا نتعلق بخيوط أشعته الصفراء ، كما يتعلق الكهلُ بفلول شبابه الذاهب ، أو سليبُ الروح بالنفس الأخير .

ولذلك لم يكن عجيباً أن تبدو لهما اللحظاتُ التى كانت تجمعهما أثناء الزيارة ، أنفسَ من جميع الأعوام التى سلخاها معاً فيما مضى . وأن تفعل بقلبهما النظراتُ العَفَّة التى كانا يتبادلانها من بُعْد ، ما لا يفعله الغزَل .

كما كان طبيعيا أن تكتسى الحروقُ التى كواهما بها البعاد ، بطبقة من الرماد على أثر ما تآكلَ من أنسجتها ، فكانت بَعْدَ أن مرت على الفراق شهور ، لا تحزُّ إلا فى الأعماق ، وأما السطح ، وأما وجههما ، فكان يسُوده شىء من السلام ، سلامِ الجريح الذى التحمتْ أنسجته على سهمٍ تلقاه ، فحمِدَ الله على ما سكَن من ألمه ، ورضى بهذا غُنْما . وهكذا استسلم العاشقان

للوضع الجديد ، وحصرا فيه كل آمالهما .

وشيءٌ واحد هو الذى ظل بين وقت وآخر يحرك رواكين القلق الهامدة فى نفس مختار ، ذلك هو توجسه خيفةً من محرز . على أنه كان كلما ثارت وساوسه ، لَمَح فى عينىْ زينات من دلائل الوجد ما يؤكد إخلاصها له ويعيد إلى قلبه طمأنينته . وكان مما يزيد فى هذه الطمأنينة حرْص الفتاة على تحقيق رغباته من حيث تجنبها زيارة درية ، أو الظهور فى الأماكن التى قد يراها منها غريمه .

. . .

وذات يوم دَقَّ جرسُ التلفون فى عيادة مختار ، وإذا بالمتكلم شريفةُ هانم ، وإذا بها تدعوه لحضور الاحتفال بخِطبة جلفدان .

وذهل الشاب ، وكاد يكذِّب أذنيه . بل كاد يظن أن زوجة عمه تمزح ، لولا أن المجال لم يكن مجال مزاح . ووضع المِسْمَعة وجلس يفكر : إذَن فلقد خُطبتْ جلفدان . وإذَن فما تزال هناك معجزات . على أنه لم يتعب نفسه بالتفكير فى كيفية حدوث المعجزة . لقد كان

هناك ما هو أهم من ذلك ، بل ما هو أهم من أى شيء في الوجود . كان هناك أنه سيتزوج زينات . ألم تزُل العقبة من طريقهما ؟ فيما مضى كان هذا الطريق يقوم في وسطه سياجٌ من الشوك ، فكانا كلما أرادا أن يلتقيا اعترضتهما الأشواك ، فيقنعان بأن يتصافحا من خلالها ، ثم يعودان وقد أدمَى كفيهما الحَسَك . أما الآن فالطريق الذى يَرَى في نهايته زينات َ ممهَّد ، كأنه ممشًى مشقوقٌ في حديقة ، والزهرُ مغروسٌ على جانبيه . وها هو ذا يرى نفسه وقد أخذ يتقدم فيه بسهولة كما لو كان يمشى على حرير ، ثم يتناول يدها ويذهب بها إلى وادٍ مقمر ، تفرشه الأحلامُ وتغرد فيه جنادبُ الأمل . وها هو ذا يَرَى العش القائم في وسطه ، وقد حَبَس فيه عصفورته ، عصفورةَ « الكَنارْيَا » التى ستملأ حجراته طربا .

لن يسكن عيادته بعد الآن ، تلك العيادة التى تَغَصُّ بروائح العقاقير الكريهة ، وتتجاوب فيها أصداءُ أنات المرضى . ولكنه سيقطن « ڤيلاً » أنيقةً بالمعادى ، تلك الضاحية الخيالية ، المخطَّطة على نمط الفردوس ، حيث

الحدائقُ تَنْبت فى كل مكان ، حتى على الأرصفة يغرسون الزهر ويسقونه . ما أجمل أرصفتها هٰذِى ، وقد اختلطتْ فوقها ألوانُ الزهور فبدت كقوسِ قُزَح ! وما أجمل جوها فى الأصبِحَة وفى الأماسى ، حين يفوح العطْر من كل ركن ثم يتجمع فى كتلة واحدة ، تسير كأنها سحابةٌ غير منظورة وتَنْضح كلَّ مَن تحتها ! وما أجمل هدوءها الذى لا يُسمَع فيه إلا تغريد الطيور ، أو أنغام قيثارة تنبعث خافتةً فى جوف الليل من نافذة قريبة ، ثم تتسلل فى جنح الظلام لتغازِل حسناءَ جالسةً فى شُرْفتها تحلم !

ولاحت له « الڤيلاَّ » الموعودة . ورآها وقد عَرَّشَتْ على شُرُفاتها الأشجار المتسلِّقة ، وراحت تَرصع وجْهاتها بالزهر ، الأحمرِ تارةً والأزرقِ أخرى ، ومنه المجوف على شكل كأس ، والمنضَّد على شكل عنقود . ورأى دَرَجها الرخامى . ذلك الدرج الذى تصطفُّ على جانبيه الأُصُص المزروعة « لَتانْيا » ، وينتهى إلى شرفة يتدلى من سقفها فانوسٌ يَبعث نُورَه شاحباً كبصيص

نجم . ورأى نفسه وهو يصعد هذا الدرج بعد عودته من عمله ، وينقر الباب نقراتٍ خافتة ، ما يلبث أن يَسمع على أثرها وقْع خطوات منغومة تخْطر فى البهو وتقترب منه ، ثم إذا بأناملَ رقيقة تحركُ المزلاج ، كأنها منقار عصفور يداعِب أسلاكَ قفصه ، وإذا بهذا الباب ينفتح ، ويطل منه وجهٌ جميل يتبسَّم له ، فما إنْ يدخل ويوصده وراءه ، حتى ينحنى على هذه الأنامل فيلْثمها ، ثم يمضى بصاحبتها إلى حجرة البيان ، وقبل أن يسألها أن تعزف له أغنية ، يعانق القدَّ المشوق الواقف بجانبه ، ويعصر فى روحه بعض الجمال الكامن فيه ، ثم يهوى على ثغر ربَّته — ذلك الثغر الصغير القرمزى الذى يشْبه كَرَازتين متلاصقتين — ويمتص جانباً من الرحيق الذى ينديه .

. . .

ثم انتقل بفكره إلى منزل عمه ، وراح يسائل نفسه عن وقْع البشرى على قلب زينات َ ويقول :

— تُرَى ماذا فعلَت الفرْحةُ بها ؟ لَكأنى بها

الآن كعصفورٍ استخفه الطرب ، فجعل يثب من غصنٍ لغصن ، ويبعثر فرْحته هنا وهناك ، ليخفف بعض حمْلها عن كاهله .

ولو أتيح له أن يراها لما ألْفاها إلا كذلك . لقد كانت وكأن عصافير الجو طرًّا قد ركبتْ جسمها . كانت فى الحديقة ، تقفز من ممشًى إلى ممشى ، ومن مقعد إلى مقعد . وأحيانًا تغوص فى حوضٍ للزهور ، ثم تظهر بغتةً خارجة من سواه . أو تخلع حذاءها وتتسلق شجرة ما تلبث أن تغيب بين أغصانها . فكان يخيل للناظر إليها أنها تطارد فراشةً تتنقل من زهرة إلى زهرة ، وتأبى أن تقع فى هذا الفخ الجميل . أو أنها هى هذه الفراشة ، وقد مضت تترنح من كأسِ عطرٍ شربتها .

وكانت أحيانًا تقف فجأة ، ثم ترنو إلى الأفق وتبتسم ، كأنما ترقب فيه صورة محبوبة تَكَشَّفَ لها عنها . أو تحين منها التفاتةٌ لإصبعها الجميلة ، التى سيُلبسها فيها مختارٌ خاتم الخطبة . وهنا سرعان ما يُشِعُّ هذا الخاتم ببريقه فى قلبها ، فينعكس على وجهها فى شكل تألقات

خاطفة ، تلتمع على كل ذرة فيه ، وتزيده نوراً على نور .

ثم تسبل أجفانها الكحيلة على سعادتها وتحلم . وما تلبث أن ترى فى الحلم مثل الصور التى كان ينمقها خيالُ مختارٍ له . فتسمع النقرات الخافتة بالباب ، وتميزها بقلبها من ألف نقرةٍ ونقرة ، فتلتقى بالثوب الحرير الذى كانت تطرزه ، ثم تسرع فتفتح للطارق ، وتمضى وإياه إلى حجرة البيان ، وبعد أن تستسلم لحظة لقبلاته العذبة ، تُجرى أناملها على الأصابع العاج ، فتُسمعه نغماتٍ حالمة ، رقيقة كالأفواف ، أو كالنسيم فى ليلة من ليالى الصيف .

غير أن خاطراً سنح له فهوّش عليه هذه الأحلام . وهو أن الطريق الذى فُتح أمامه إلى زينات ، قد فُتح أيضاً أمام كل راغب فيها . وقفز إلى ذهنه محرز . حقيقة أنه أخفق عندما طرق أبواب قلبها ، ولكنه قد ينجح فى الوصول إليها من باب أبيها . فلم يملك إلا أن هتف :

— ينبغى إذن أن أكون أول طارق لهذا الباب . أجل ، يجب أن أعجل . وليكن ذلك الليلة .

وفى جوار دوْرات ذهنه السريعة ، كانت الساعات تمرُّ عليه ببطء . فكان يخيل له فى كل دقيقة تمر ، أن محرزاً ذهب يطرق باب رمزى باشا ، ويسأله المفتاح الذى يَفتح به قفص عصفورته .

. . .

وفى الموعد المضروب ، وصل مختارٌ إلى بيت عمه . واستقبله الباشا وزوجته استقبالا حارا ، وبالَغا فى الحفاوة به . كان يبدو أنهما عادا يحبانه حبهما القديم .

وكانا سعيدين . سعيدين إلى حدٍّ يخيل لك معه ، أن هذه السعادة قد أخذت تردُّ عليهما بعض شبابهما الراحل ، حتى لَتكاد تلمح هذا الشباب وهو يكافح ليصبغ شعرهما الأبيض بعصارته السوداء ، ويملأ التجاعيد المنتشرة فى وجهيهما بالأنسجة الحية . ذلك أن الشباب عندما عجز عن أن يعود إليهما بنفسه ، لم يَقنط ، وراح يرسم حولهما من رفيفه هالةً فتيَّة ، تخدعك عن حقيقة سنهما .

أما زينات ُ فلم تكد تَشدُّ على يد حبيبها ، حتى نمَّ

خجلها عن سعادتها . وعندما حركت شفتيها تردُّ التحية ، ارتجَّ طوفانُ السعادة الذى كان يغمر روحها ، وبدا أثر أمواجه فى عينيها اللتين لم تلبثا أن اغرورقتا بالدموع .

وهكذا كان كل شىء مبتهجاً فى بيت رمزى باشا . حتى الخدم ، كانوا طربين بعرس سيدتهم . حتى أثاثُ البيت ، أوشكتْ أن تنبثق منه ثغورٌ وتتبسَّم . ما خلا صاحبة العرس ، فقد بقيت وحدها على هذا الوجوم الذى لازمها منذ صباها .

يا للعجب ! أيحزن الإنسان فى ليلة عرسه ؟ حتى إذا كان هذا الإنسان جلفدان ؟ ألا يَخلق بها أن تفرح أكثر مما تفرح أى عروس ؟ ألم تنل فوق ما كانت تحلم به ، لأنها حلمت بكل شىء إلا الزواج ؟

وراح مختارٌ يسائل نفسه عن السبب :

— تُرى لمْ يعجبها الخاطب ؟ ولكنّ أى خاطبٍ يجب أن يعجب جلفدان . حتى لو كان هذا الخاطب « أحدبَ نُوتردَامَ » نفسه . إنّ لِجلفدانَ كما لكل إنسان دميم ، عيناً تستطيع أن تبصر أقل درجات الجمال ،

لأنها تنظر إليه بتلك العين المحرومة التى ترضَى منه بأقل شىء . إن مثَل هذا الدميم ، كمَثل الشحاذ الذى يمكنه أن يظفر من القمامة بغذاء لا يستطيع أن يظفر به المترف منها . بل إنه لا يحفل من الجمال إلا بهذا القدر الضئيل ، لأن عينيه لم تألفا التطلع إلى عَـلٍ . وإنه لَيقْنع راضياً به ، لأنه يشعر بالغريزة أن العدالة تُجـرِى سـنَّتها فيه . ذلك أن الله عندما قسَّم هباته على الناس ، لم يجعل العدل فى أن يسوِّىَ بينهم ، ولـكنْ فى أن يكون على قدر الموهبة النصيبِ .

وهكذا حار مختارٌ فى أمر المخطوبة ، ولـكنَّ حيرته لم تَطُـل ، لأنه لم يلبث أن حضر الخاطب . ورآه مختارٌ فإذا به وسيم يعجب كل حسناء . بل إنه من الممكن أن يعجب زيناتَ نفسها ، لولا أنها وَهبت قلبها لصاحب النصيب . فهل تُرَى جلفدانَ أجمل من أختها ؟ تالله إن هذا لَـبَطَـر . قال هذا وراح يلوم فى سره البَـطِرة .

ولـكنه عاد فتساءل :

— ألا يمكن أن لا تـكون جلفدانُ حزينة ، وأن

يكون الذى يُخَال بها غُمَّة ، ما هو إلا كآبتها الأزلية ، قد انعقدتْ منها على سحنتها من طول ما لازمتْها سنين ، غمامةٌ كثيفة لم تستطع شمسُ الفرح على سطوعها أن تبددها ؟ لِمَ لا يكون ذلك ؟

وحسِب أنه أدرك السبب فاستراح . ولكنّ الذى أعياه إدراكه ، هو تلك النظرات الغريبة التى كانت لا تفتأ توجهها إليه . تلك النظرات النفاذة ، التى كلما حاول تجاهُلها ، تعقبتْه واقتحمتْ صدره وراحت تلقى فى قلبه الرعب . لم تكن جبارة ، بل على العكس من ذلك يائسة ، ذليلة ، مستجدية ، كان يخيل له وهى تتجه نحوه ، أنها تجثو عند قدميه ثم تموت عليهما . ومع ذلك فقد كانت مفزعة . كانت تُحْدث عنده ذلك الفزع الذى يشعر به الإنسان وهو يدوس حشرة فيقتلها . كان لها تلك القوة السلبية التى يتمتع بها الضعفاء ، والتى تشْبه فراغاً ينشقُّ فيبتلعنا .

وعجب مختارٌ للفتاة . إنها أول مرة توجّه إليه هذه النظرات . ربما سبَق أن وجهت إليه مثلها ، ولكنها لم

تـكن فى مرة من المرات تحمل من قوة التعبير مثل ما تحمله الآن . ولـكنْ عمَّ تعبّر ؟ هذا ما عجز عن الإجابة عنه . ولولا استحالة الفـكرة ، لظن أنها تحبه وتتوسل إليه وتستنجد به .

غير أنه لم يشأ أن يستسلم لهذا التفـكير ، وآثر أن يقفل راجعاً إلى برج أحلامه . فعاد يسْبل لها جفونه ، ويهيئ لها الظلام الذى تظهر فيه ، كما لو كانت صوراً سينمية تفرّ من النور . ولـكنه كان بين حين وحين ، يرفع عينيه إلى زينات المـاثلة أمامه ، لـيَرَى شخص الممثلة التى اتخذت من هذه الأجفان ستاراً تعكس عليه صورها . فـكانت اللحظات التى يفْتح فيها عينيه ليراها ، هى فترات اليقظة الوحيدة التى كانت تبدو أعزّ عليه من أحلامه ، فيرضى بأن يقطعها لـيَرَى ما هو أجمل . ذلك أن هذا الذى كان يراه ، لم يكن إلا تعبير هذه الأحلام .

. . .

وبعد انفضاض الحفل ، استطاع مختارٌ أن يخلو بزيناتَ بضع دقائق . وعندما همَّ بأن يتكلم ، رفعت

إليه عينيها وتبسمت ، ثم أطرقت إلى الأرض وولت هاربة ، وشعرها المرسَل يهتز فوق كتفيها . كانت تدرك ما سيقوله لها ، وقرأتــه فى وجهه على الفور ، فلم تستطع أن تقاوم خجلها وأجفلت .

وما تمالك الفتى أن تبسَّم . لمْ يَرها فى يوم من الأيام أفتن منها وقتذاك . وكيف لا وقد كانت تلك الفتاةَ السعيدة ، الخجلة من سعادتها ؟ التى يسألها بعينيه أعز مطلب ، فيمنعها حياؤها من أن تجيب ، ولكنَّ هذا الحياء نفسه ، ما يلبث أن يتولى عنها إجابته إليه . فهل ثمة منظرٌ يأسر اللب كهذا ؟ منظر الأرواح وهى تَخرج من مخابئها المسحورة ، وتتجسَّم وتنطق ؟ تارةً فى شكل وردٍ على الخدود ، وتارة فى شكل بريقٍ بالعيون يتألق ؟ ألا حيَّـا اللهُ الأرواح ! بزَّت بحسنها أجملَ جسد !

لم يكن من قَبْلُ يؤمن بالسحر ، وإنْ كان من أشد المؤمنين بالجمال . أما الآن ، فقد رأى السحر رأْىَ العين . رأى نفسه أمام ساحرة تَنْفُث له العُقَد ، وتشكِّله بعصاها كما تريد . ألم يتغير فيه كل شىء مذ

لمسته تلك العصا؟ ألا يرتجف بدنه أمام تيارها السحرى؟ ألم ينقلب فؤاده طائراً أخذ يطير فى صدره ويعربد؟ ألم يكتسِ الكونُ فى عينيه بضباب رقيق، صار يرى الأشياء خلاله شاحبة؟ ثم ما لهذه الأشياء تتراقص ويختلط بعضُها ببعض، حتى ما يكاد يميِّز الزهرة من النحلة، ولا المشىَ من الغدير، فى هذه الحديقة التى يطل عليها من موقفه؟ لا شك إذَن أنه سُحِر. ولا شك أنه طرِبَ لهذا السحر، لأنه لا يود أن يَلُوذ برُقْيةٍ تردُّه إلى أصله.

كان ذلك حال مختارٍ عندما تركته زينات. وكأنما قد أراد المزيد من السحر فذهب فى أثر الساحرة. أو لعل سحرها نفسه، هو الذى جذبه إلى حيث ذهب. فإن للسحر تياراً لا يفتأ المسحور مشدوداً إليه، فما يملك إلا أن يتبع الساحر.

وهكذا تَبِعَها مقتفياً — بِهَدْىِ نورٍ مبهم — آثارَ قدميها الوهمية، فألفاها فى إحدى الحجر جالسةً تعبث بأظفارها. وفوجئت حين رأته، ودَسَّت وجهها

فى وسادة . فلما نحاها راحت تستره باليدين . وأحس جسده برجفة أخرى . وإذن فلقد أتحفته المشعوذة بلعبة جديدة ! ترى كم من الألعاب تخفى فى جرابها ؟ ألا ما أحلى هذا الجراب ! ليته لا يفرغ أبدا !

بهذا راح يحدث نفسه . ثم استدار إلى الساحرة يحدثها . وأخذ يتلعثم ، ورقصت الدنيا فى عينيه . كان ما يزال نور كفيها المبسوطتين على وجهها ، يسطع فى قلبه ويبهر بصره .

وأخيراً استطاع فمه أن ينبس . فقال فى صوت مرتعش :

— زينات ! كل شىء قد تذلل الآن فما أسعدنا ! الزهر الذى كان مشتبكاً فى الحسك ، قد انسلت الأشواك منه ، وأصبح مهيأ للقطاف . سأذهب إلى أبيك الليلة وأطلبك منه . فإذا ما كان الغد وضعت فى إصبعك هذه الجميلة ، خاتم الخطبة وطبعت أول قبلة عليها .

وأمسك بإصبعها وراح يمر عليها بأنملتيه ، كما لو كان

يُلْبِسها خاتما .

وارتجفتْ زينبُ في يده ، وقامت لجسدها الجميل قيامة . نعم ارتجفت ، لأن هذه الساحرة نفسها لم تكن إلا مسحورة . وكان الواقف أمامها هو الذي سحرها .

وتبسمتْ ، وتحركت شفتاها تتساءل :

— الليلة ؟

تُرى لمَ تتصنع الدهشة ؟ ألم تُرِد هي ذلك ؟ ألم تُوحِ إليه أنِ اذهبْ إلى أبي واخطبني ، الليلة ؟ إذَن فلماذا تَسأل عن أمرٍ تعلمه ؟ ذلك سرٌّ تعرفه العذارى وحدهن .

. . .

غير أن الأقدار أبت أن تطيل نشوة الحبيبين . وما لبثت أن عبثت بالمسحور والساحر . ذلك أنه بينما كان مختارٌ يداعب إصبع زينب ، إذ سُمِع صوتُ شيء يسقط على الأرض ، دوّت على أثره صيحة تردّد صداها في جوانب الدار .

وفر لون مختار . وصرخت زينب :

— أماه !

لأن الصيحة كانت صيحة أمها .

ثم انطلق كلاهما يعدو نحو مصدر الصوت ، وزينات تصرخ وتقول :

— أماه ! ماذا أصابك أماه !

على حين كان الباشا يصيح من الجانب الآخر قائلا :

— مختار ! أدركنا !

وعندما بلغا الردهة شهدا كل شيء ، وما أغرب ما شهدا ! جلفدانَ ممدَّدة على الأرض ترتعش ، والقوم من حولها يُعْنَون بها . إذَن فلم تكن شريفة هانم هي التي سقطت ، ولكن كانت جلفدان . جلفدانَ العروس ! فماذا حدث ؟

وأسرع مختارٌ يفحص الطريحة ، على حين ارتمت عليها زيناتُ تقبّلها وتقول :

— أختاه ! أختاه ! ما بك ؟

وغمغم الطبيب وهو يحل أزرار قميصها :

— لا شيء يدعو إلى القلق . إنه إغماء بسيط ،

وما تلبث أن تفيق منه .

ثم انكب عليها ينعشها . وكانت زينات في هذا الوقت لا تفتأ تبكي وتقول :

— أختاه ! أختاه !

كان قلبها ينفطر على أختها

. . .

وبعد هنيهة ، فتحت جلفدان عينيها وأجالت بصرها في الحضور . فلما وقع نظرها على مختار ، تنهدت تنهدة رجت كيانها . أتراها كانت تشكره على عنايته بها ؟ إذن فلم تكن مندوحة من أن يربت يديها ملاطفاً ، ليكون ذلك بمثابة تقبل لشكرها . ولكن عينيهما لم تلبثا أن التقتا ، فتذكر شيئاً ارتعد منه . تذكر نظراتها إليه وهما في حفلة الخطبة . المعنى نفسه . والغرابة نفسها .

ولكنه عاد فشغل عن ذلك بالعناية بها ، لأنها كانت ما تزال خائرة القوى من أثر ما عانت . وكانت هذه العناية خير إنقاذ له من مواجهة هذا اللغز الغامض ، الذي كان

يشعر كلما وقف أمامه ، بذلك الشعور الذى يحسه الإنسان عندما يقف أمام جِنّى ، لا يَعرف من أين يأتيه منه الخطر ، ليأخذ الحذر لنفسه .

أما زينات ، زيناتُ التى كانت تحبها أكثر من نفسها ، زيناتُ التى جزعت عليها أكثر من أمها وأبيها ، فقد كانت واقفة تنظر إلى أختها بعد أن أبلّت وتبتسم ، وتحمد الله فى سرها على أن ردها إليها حية . وكانت كلما فاضت بها كأس الفرح ، راحت تفرغها على خدها بالقبلات ، وهى تقول :

— أختى ! أختى !

. .

وأمضى القوم هزيعاً من الليل إلى جانب سرير جلفدان ، حتى إذا ما اطمأنوا عليها ، استأذن مختارٌ وانصرف . وكان طبيعيا أن يرجئ طلب يد زيناتَ من عمه ، بعد ما طرأ على أختها وأحال الظرف غير مناسب . وهكذا نقدّر فتضحك الأقدار ، حتى إذا ما حان وقت التنفيذ ، كانت الكلمة ما قالت .

وقال لها وهى تشيعه إلى الباب :

— أرجو أن تسترد جلفدانُ نشاطها غداً وأفاتح والدك . غداً يا زينات ، أرجو أن يتم كل شىء . إلى اللقاء .

غير أن زيناتَ كانت مشغولة عن أملها الحلو بالفرحة التى غمرتها على أثر إبلال أختها . ومع ذلك فقد أومأتْ إليه إيماءة عذبة ، عاش فى سحْـرها بقية الليل .

الفصل الثانى عشر

عندما فوتحت جلفدانُ فى أمر خطبتها لعا كف ، شدَّ ما كانت دهشة القوم حين ألْفَوْها تَرفض .

كانت أمها أولَ من فاتحها فى ذلك . حملتْ صورة الخاطب الوسيم وهى مَزْهُوَّة ، ودخلت عليها تَزف البشرى . ولكنّ جلفدانَ التى كان يبدو أنها كونت رأيها من قبل ، ألقت على الصورة نظرةً فاترة ، ثم دفعت بها إلى أمها وهى تقول :

— ألم أقُلْ لك مراراً يا أماه ، إننى لا أريد أن أتزوج ؟

وشعرت الأم بخيبة مُرة . وظنت أول الأمر أن الخاطب لم يرقها . ولكنها بعد أن فحصت صورته بعين المرأة — تلك العين التى لا تخطىء تمييز سحر الرجل — لم تلبث أن أجابت على شكوكها قائلة :

— ولكنْ أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن توجد

من ترفض مثل هذا الفتى الجذاب ؟

وطال الجدل بينها وبين الفتاة ، فلما يئست من إقناعها بالعدول عن رأيها ، هرولت إلى زوجها تستنجد به .

. . .

ولم يكن الباشا بأقل شعوراً بالخيبة من زوجته ، عندما أحاط علماً بالنبأ . لقد كانت مفاجأة لم يتوقعها . وجعل يفكر . وخطر له مثل الخاطر الذى عَنّ لزوجته ، ولكنه لم يلبث أن استبعده مثلها ، بعد أن عاد فألقى نظرة على صورة الشاب .

إذَن ماذا عساه يكون السبب ؟ بهذا راح يتساءل . ثم استطرد يقول محدثاً نفسه :

— أتُرى فطنتْ إلى أنه لم يخطبها إلا لمأرب ؟ أتُرى أنِفتْ عندئذ من هذا الوضع الذى يجرح الكبرياء ؟ وأدركتْ أن مثل هذا الزواج الذى لا يقوم على حب ، لن يحقق أحلام قلبها ؟ بل لن يحقق أحلام الزوج نفسه ، فتكون النتيجة أن يسيء معاملتها ، وربما

اتخذ له من دونها خليلة ، تشعل فى صدرها نار الغيرة ؟ أترى قدّرت كل هذا فزهدت فى زواج لن يكون الفردوسَ الموعود ، وإنما الجحيم بعينه ؟ إن كان هذا فما أدق الموقف !

وشعر باليأس يدب فى أوصاله كما يدب الموت البطىء . وأدرك عندئذ أنه عندما اشترى عا كفأ بالوظيفة ، لم يحلّ عقدة ابنته كما توهّم . وإذَن فلقد كانت صفقةَ غَبْن ، لم يربح فيها زوجاً لهذه الابنة ، وإنما خسر راحة ضميره . وراح يتذكر جريمته من جديد ، فانتكس إلى حالته الأولى من العذاب . على أنه لم يلبث أن تعلق بأهداب أمل لاحت له خيوطه . ومن دأب المرء أنه حين يَغرق فى يأسه ، يصطنع لنفسه الآمال لتكون له بمثابة حبال نجاة . فراح يتساءل :

— ولكنْ لمَ تسىء الظن بالفتى ، مع أن أحداً لم يطلعها على قصده ؟ كلا . ما أحسب أن شيئاً من هذا دار بخلدها .

وأراد أن يستوثق من أن الذى راح يتعلق به هو

حبالٌ حقا وليست خيوط عنكبوت ، فهرع إلى ابنته ودخل عليها .

. . .

وأجفل حين رآها . لقد كانت صفراءَ كالأموات . كان اليأس الذى يَسْتَلُّ العصارة الحية ، قد استلَّ العصارة من بدنها وخلَّفها ورقة ذابلة .

وراح يلاطفها ، ويُفيض عليها من حنان الأبِ ما رَدَّ إليها بعض ما وهبته لليأس . ثم سألها :

— أىْ جلفدان ! لمَ بالله رفضتِ الخاطب ؟

وأجابت :

— رفضتُه يا أبتاه لأننى أرفض فكرة الزواج من أساسها .

— ترفضين فكرة الزواج من أساسها ؟ هذا عجيب حقا ! لعلك الأولى من بناتِ جنسك التى تَرى هذا الرأى .

— لستُ كبنات جنسى .

وخَيَّم صمت ، ذهب فيه فكر الرجل مذاهبَ شتى .

وأنشأ يقول لنفسه :

— لعمري ما تقصد من هذه الجملة ؟ أتُراها وقد رأت أن الأقدار حرمتْها مزايا بنات جنسها ، راحت تحرّم على نفسها ما أحِلَّ لهن ؟ أتفهم دمامتَها إلى هذا الحد ، وتعاقبُ نفسها عليها هذا العقاب المخيف ؟ وهل يكون ذلك عدلا ؟ أن تقتصَّ من نفسها لجريمة لم تقترفها ؟

ثم استدرك :

— ولكنْ هل العدل أن تَنسى قبحها وتروح تنشد ما لا تستحق ؟ تالله لقد حرت في أيهما العدل ! ما أشد عجزنا نحن البشر ، عن إدراك كنه الحقيقة ! ولكنْ كيفما كان الأمر فلا بد من مقاومة هذه الفكرة . هذه الفكرة البشعة ، التي إن صح أنها تقوم بذهن الفتاة ، فلن يكون أشقى منها على وجه الأرض ، ولا أشقى مني بها .

فسألها :

— ماذا تقصدين من قولك إنك لست كبنات جنسك ؟

وانتظر الجواب وهو واجف . كان أخوف ما يخافه أن يصدق حدسه ، وأن يكون قلب الفتاة قد تسرب إليه ذلك الشعور الذى يُشقى صاحبه أكثر من أى شىء فى الوجود ، شعورُ الإنسان بنقص طبيعى فيه ليس فى مقدوره استكماله . ذلك الشعور الذى يؤدى بالمرء إلى أن يلعن نفسه ، ويعاقبها بأن يضرب عليها ذلك النطاق المخيف من الحرمان . ذلك الشعورُ الذى يفر بفريسته من وجه الدنيا ، كما تفر الحشرات إلى الكهوف ، حيث يعيش منطوياً على نفسه فى وحدة أليمة ، لا مُنقِذَ له منها إلا الموت .

ومن الهجة الوَجِلَة التى ألقى بها الرجل السؤال ، ومن علامات الألم التى ارتسمت على وجهه وهو يلقيه ، أدركت الفتاة ما جال بذهنه ، فأشفقت عليه أن يغدو فريسة للعذاب من أجلها ، وعولت على أن تجيبه جوابا ينزع من فكره ما قام به ، فقالت :

— أقصد يا أبتاه أننى لا أحسُّ دبيب تلك الرغبة التى تدفع الإنسان إلى الزواج . لا أدرى ، لعل نزوعى

إلى ناحية الروح ، قد صرفنى عن النواحى الأخرى . إن كل سرورى أن أبقى هنا بينكم ، أستمتع بحنوكم علىّ ، وأتفرغ لقراءتى وعباداتى . إننى أقدس حياة الفكر والروح يا أبتاه ، ولا أجد فى الحياة لذة تعدلها . فلَساعةٌ أقْضيها فى مطالعة كتاب « لشوق » أو « تاجور » ، تفْضل عندى حياة زوجية بأسرها .

وأطرقت برأسها خجلا ، لأنها شعرت أنها تكذب . ولكن أكانت تطلعه على الحقيقة ؟ إنها لَحقيقة رهيبة ، عندما أدرك الآن بعضها أجفل ، فما باله لو أدرك بقيتها ؟ ما باله لو أدرك أن تلك التى تشعر بنقصها لم تزهد فى الحياة كما تصور ، ولكنها ما تزال تشتهيها ، وتشتهيها فى شخص إنسانٍ بعينه ، إلا أنها تقطع الأمل منه ؟ وإذَن فما هى بالزاهدة التى أراحها زهدها ، ولكنها المحرومة التى تتوق ولا تتمكن . إنها لم تنس الحياة بعد ، ولكنّ الحياة هى التى تصر على نسيانها . وإنها لَتحاول بكل الطرق ، بالدموع ، وبالتنهدات ، أن تُلفت نظر هذه الحياة إليها ، ولكنْ بلا جدوى ، لأن الحياة لا تلتفت إلى من يبكون .

آه ، لو علم أبوها بهذا ! إذَن لَمَات كمداً من فوره . ومن ثم فلا حرجَ عليها إن حرصت على أن لا يعلم ، وراحت بناء على ذلك تكذب .

أما الأب المسكين ، فما كاد يسمع منها هذا الجواب حتى تنفس الصعداء ، وأنشأ يحدث نفسه :

— إذَن هى ليست فريسة دمامتها كما ظننت . وإذَن فرفْضها يرجع إلى نُضْجٍ ذهنى وروحانى شاذ فى طبيعتها ، طغى على غرائزها الأُخَر . تباركتَ يا ألله ! إنك لا تَحْرِم إنساناً فى ناحية ، إلا أغدقتَ عليه فى أخرى . لا أحدَ أقل من غيره فى هذه الحياة .

واستطرد فى حديثه :

— ولكنْ كيفما كانت فكرة جلفدانَ عن الزواج ، فيجب أن تعدل عنها . يجب أن تتزوج تأهباً ليوم قد تستيقظ فيه غرائزها على غرة ، بعد أن يكون أوان زواجها قد فات . ويجب أن تتزوج ، لأنه ما ينبغى أن ترفض صفقة دفعتُ ثمنها . وإلا فعلام كانت محاباتى لعاكف ، وارتكابى جريمةً فى سبيله ؟ وأخيراً يجب أن

تتزوج من أجل زينات ، إذ ما زلت وما زالت زينات ، نأبى أن نقيم عرساً فى بيت به عانس .

وهنا قال لها :

— تعشقتِ يا جلفدانُ حياة الفكر ، فهلاّ تعشقتِ حياة الزواج ؟ هلا ذكرتِ حنان الأمومة ، ذلك الحنان الذى يَنفح منه شىء مقدس ، وذكرتِ أنه لا يقوى على اجتذابه منا إلا الأطفال ؟ أليسوا وحدهم الذين يستطيعون أن يستخرجوا هذا الكنز الثمين المدفون فى أعماقنا ، ويتيحوا لنا فرصة الاستمتاع به ؟ أليسوا وحدهم الذين يستطيعون بمنظرهم الملائكى ، أن يحوطونا بتلك الهالة من الطهر التى تزيدنا قدسية فى نظر أعيننا ؟ ثم . . .

ولكنه أحجم . كان قد أراد أن يردّد فى سمعها نغمة حلوة تشتهيها آذانُ العذارى ، ولكنه ذكر أنها لن تظفر من زوجها بالحب الذى شاء أن ينوه لها به ، فتراجع لئلا يؤلم إحساسها .

أما الفتاة فقد قابلت بفتورٍ إغراء أبيها وراحت

تقول له :

— ولـكننى يا أبتاه لا أشعر بعاطفة الأمومة حتى أحفل بالأطفال .

— ستشعرين بها عندما يئين الأوان . إن الغرائز الخامدة تتحرك يوماً ما . وإذا تحركتْ تعذرت علينا مقاومتها . لأن مقاومتها ما هى إلا مقاومة لأنفسنا . إننا عندئذ نغدو مع أنفسنا فى حرب . ومثل هذا الصراع لا بد أن نتحطم فيه ، لأن خسائر الفريقين لن تـكون إلا منا . ولأن اندحار أيهما هو اندحارٌ لنا فى شخص المهزوم .

— لو كان فى نية غرائزى أن تتحرك لَمَا أبطأتْ وقد قاربتُ الثلاثين . كلا يا أبتـاه ، أعفنى بربك . لا أريد أن أتزوج .

ولمْ يجِـد الرجل مندوحة من أن يُلـقى بآخر ورقة فى يده فقال :

— ولـكنْ زيناتُ يا جلفدان ! ألا تتزوجين من أجل زينات ؟ ألا تعلمين أنها لن تتزوج حتى تتزوجى ،

وأن زواجها دونك أمرٌ لا نرضاه ؟

وكأنما جرحتْها هذه الجملة فهتفت في استياء :

— ولماذا يا أبي ؟ إني أؤكد لك أنني أُسَرُّ لو أن زينات تزوجت الليلة . آه يا حبيبتي يا زينات ! هل تظن أنني أنفِسُ عليها شيئاً يا أبي ؟

— معاذ الله يا ابنتي ! ولكنه الحب الأبويّ ، سيجعلني أحقد على الزواج ما دمتِ عانسا . فهل تريدين أن تَلحق أختك بك ؟ أو يظل زواجها قَذًى في أعيننا إلى الأبد ؟ فكّري جيداً يا جلفدان .

وأثرت هذه النغمة في الفتاة . لقد بدأت التضحية تتمثل أمامها ، بكل ما فيها من جلال يُخضع أشد النفوس عنادا . وشعر أبوها بذلك فأخذ يضرب على الوتر نفسه ولكنْ بنغمات جديدة . قال :

— واذكري أننا لن نعيش لك إلى الأبد . فإذا لم توفَّق إلى القلب الذي يحنو عليك بعدنا ، فستلفين نفسك في وحدة . وإذا ألمّت بك ملمّةٌ فلن تجدى من يواسيك في محنتك ، لأن الذين يحبونك سيكونون نياماً

فى القبور . وعندئذ ستندمين حيث لا ينفع الندم . وسنحس عذابك كحلم يطوف بنا ونحن رقود ، فنحرم السلامَ حتى فى موتنا . فاتق الله فينا وفى نفسك يا ابنتى . واعلمى أنه لن تهدأ عظامى فى جدثها ، ما لم أشعر ويدى عن الوصول إليك قصيرة ، أن هناك من تولاك من بعدى .

واغرورقت عينا الرجل بالدموع . وشعرت الفتاة بأنه يتعذب ، فتوسلت إليه بلهجة هى إلى البكاء أقرب ، وراحت تقول ويداها معقودتان على صدرها :

— بربك لا تَقُلْ هذا يا أبى ! لا تَقُلْه أبدا . إنى لا أستطيع ، لا أستطيع أن أتصور أنى سأفقدك . ولئن فقدتُك فلن آسى على شىء ، ولا يهمنى إنْ شقيتُ أو تعذبْت . بل إنى لأرفض أن أداوى اليتْم بعدك ، أو أرتضى للحب على قلباً سواك . ولكنْ ما دمتَ يا أبتاه تريدنى على أن أتزوج ، وما دامت فى هذا سعادتك ، فإنى ...

ولم تكْمل جملتها . وترددت : أتقولها ؟ إنها إن

قالتها فلن تستطيع أن تستردها بَعد . ولكنْ لمَ لا تقولها ؟ لمَ لا تتزوج من أجلهم ؟ إنها لن تخسر شيئاً بهذا الزواج . فالأمل الذى تنتظره ، ومن أجله ترفض أن تتزوج ، وُلِدَ ميتا . بل إنها فى الحقيقة لا تنتظر أملا ، وكل ما هنالك أنها تود أن تظل فى حِدَادٍ على هذا الأمل الذى مات . لقد ودَّتْ بعده أن تذهب فى أثره ، وذهبتْ فعلاً بقلبها . ولكنْ ها هم أولاءِ يقسرونها الآن على العودة إلى الحياة بدونه . فليكنْ أن تعود من أجلهم . ولن يضيرها شىء ما دام قلبها سيبقَى هناك ، مع الأمل الذى دفنتْه وأهالت عليه التراب .

وقال أبوها الذى ظل ينتظر تتمة الجملة :

— فبأنك ماذا يا جلفدان ؟

— فإنى . . .

واحتبس صوتها ، ثم انبعث يقول :

— أقْبل الخاطب .

ولم تكد تتم جملتها حتى انفجرت تبكى . كانت قد شعرت بأنها غَيَّبت سهماً فى حياتها . وانحنى عليها أبوها

يكفكف دمعها الهتّان ، وهو لا يفتأ يسألها عن سبب بكائها فلا تجيب .

وأقبلت أمها على صوت نحيبها . وحسبت أن أباها أغلظ لها فى القول فنظرت إليه عاتبة . ولم تملك إلا أن احتضنت ابنتها وراحت تغمرها بالقبلات .

وسألها أبوها بعد أن جف دمعها :

— فيم كان بكاؤك ياجلفدان ؟ أوَ قَبِلتِ مكرهة ؟

ولم تشأ الفتاة أن تمزج بالسم كأس الهناء التى ناولتْه من فورها إياها بتقبلها الخاطب ، فأجابت :

— كلا يا أبتاه . إنْ هى إلا دموعٌ حبيسة شاءت أن تنطلق .

وابتسمت ، أو هى تكلفَت الابتسام لتسرِّىَ عن والديها .

وعزا الرجل سبب بكائها إلى أنه لمس من قلبها موضع الحنان عندما ذكر لها قصة الموت . على حين ظنت الأم أنها ما بكت إلا فرحاً بزواجها ، وأرجعت سابقَ رفضها إلى أنه ضربٌ من الاحتجاج على الأمل الذى أبطأ عليها

أكثر مما يجب . فطبعت قبلة على جبينها وهى تقول لها :

— مبارك يا ابنتى .

وراح أبوها يهنئها أيضا . ثم نادى أنْ تعالىْ زينات هنئى أختك .

. . .

وهكذا قبلت جلفدانُ يدَ عاكف . ولكنّ آلامها منذ ذلك اليوم تضاعفت ، وأخذت صحتها على أثرها تعتل . لقد عاد يَشُقُّ عليها أن تُكره على خلع السواد ، وهجْر القبر الذى دفنتْ فيه أملها الحبيب ، ثم تَزَيَّن لتُزفَّ فى حفلة عرس . حقيقة أن قلبها ما زال هناك ، فى وادى العدم ، ثاويا بجوار أملها المائت ، وأنها لم تَعُدْ إلى الحياة إلا بالشىء الوحيد الذى بقى حيا فى وجودها وهو جسمها ، ولكنْ حتى هذا كان يؤلمها . كانت تَرَى فيه خرقاً للحداد الذى أخذت نفسَها به ، ووهبته كل شىء حتى جسمها .

وشعرت بأنها عقّت حزنَها القديم . وأحست بالغربة فى الجو الذى هجرتْه إليه . بل إنها شعرتْ بأنها تتنكر

لنفسها ، لأنها نفسها لم تكن غير هذا الحزن ، الذى شبَّ وإياها منذ وُلدت ، حتى اختلط أحدهما بالآخر وكوَّنا مزيجاً واحداً ، تعرفه بلونه الأسود .

. . .

وظل الألم يحز فى نفسها المكلومة ويأكل فى جسدها المضنَى حتى أوهنه . فلما كان يوم الاحتفال بخطبتها وأيقنتْ أن السهم نفذ ، وكانت قد لمحتْ بين الحضور الكوكبَ الذى انبثق منه شعاعُ أملها القديم فهاج حنينَها إليه ، فقدتْ رشدها وسقطت مغشيا عليها كما سلف . ذلك أنها بَصُرتْ بهذا الكوكب ، فى الوقت الذى كانت فيه تتخلى عنه لتستضىء بسواه .

. . .

أما زيناتُ التى كانت تجهل دخيلة نفس أختها ، فقد كانت فرْحتها مزدوجة . فرحت لهذه الأخت ، ولنفسها بعد أن زالت العقبة بينها وبين مختار . فعادت تَفْتح أبواب قلبها للأمل يُطْلق أطياره فيه . كما راحت بعد أن تَمَّ الصلح بين حاضرها وماضيها ، تُخْلِى سبيل

الذكريات التى كانت قد حبستْها فى كهوفه ، وترقبها وهى تطير مع طير الأمل جناحاً لجناح . فرأت من أسرابها الكثير . رأت مختاراً الحدَث وزينات الطفلة . ورأت جيدها وعقود الياسمين . كما رأت البحر فى ذات يوم محبوب ، وفوقه سوسنٌ تزفها الأمواجُ إلى الشاطئ . رأت . . . وما أكثر وأحلَى ما رأت ! وكان من بين ما رأته منظر العاشقَيْن اللذين طالما مرّا بها فى نُزهاتهما . وعجبت : لماذا انقطع مرورهما منذ أيام . وأحست بالحنين إليهما .

ولو علمت بالسبب لأسفت لهما . ولاستنكرت جناية أبيها عليهما . ذلك أن مصطفى بعد أن أخفق فى نيل الوظيفة التى حَرمه إياها الباشا ، راح يبحث عن غيرها فى مصالحَ أخرى . ولكنّ العدالة السائدة على هذه الأرض ، ظلت تتعقبه وتوصد دونه باب كل عمل يطرقه ، لتفْتحه فى وجه غيره من أبناء أولئك المترفين ومصاهريهم .

وكان المسكين قد رهن إبان الدراسة منزله لأحد

المصارف ، لقاء قرض يستعين به على نفقاته . فلما حل أجل الدين وعجز عن سده ، باع القضاء منزله ، وكاد يصبح وأمه العليلة بلا مأوى ، لولا أن أضافهما عنده صهره أحمد أفندى ريثما يتدبران أمرهما .

وكأنما عز على الفتى أن يلجأ وهو الرجل إلى عون مخطوبته ، فذات يوم حزم متاعه وزعم لها أنه حصل على عمل فى الريف ، ثم صحب أمه وبارح البيت على أن يبعث إليها بعنوانه حالما يستقر به المقام فى مقره الجديد . ولكنّ الأيام تعاقبت دون أن يصل إليها من أنبائه شيء حتى حسبت أنه مات أو هجرها . ومنذ ذلك اليوم غرقتْ فى الظلمة أحلامُ فتاةٍ ذهبية ، وانتهى عهدٌ كان يخرج فيه حبيبان إلى حيث ينعمان بالمنى بين الخلوات .

الفصل الثالث عشر

مرت الأيام ، وصحة جلفدانَ تزداد سوءا . هزل جسمها ، وفقدت نشاطها وشهيتها للطعام . وكانت كثيراً ما تعتريها نوباتٌ عصبية عنيفة ، تتشنج فيها أطرافها وتتقلص سحنتها ، وتظل تئن أنيناً موجعا . حتى إذا ما انتهت النوبة ، خارت قواها وراحت فى نوم عميق ، تقوم منه مضطربة كمن كان تحت تأثير حلم مزعج ، ثم تأخذ تنظر للدنيا نظراتٍ من فتح عينيه فألفى نفسه فى عالم غريب لا يذكر شيئاً عنه . فكأنها ميتٌ بُعث بعد رقادٍ استغرق دهوراً ، وبدأ ينفض عن نفسه تراب القبر .

وكانت كلما عرتها النوبة ، التف القوم حول سريرها وهم أعجز ما يكونون عن إسداء أية مساعدة لها ، فلا يملكون إلا أن يرقبوا فى وجل نتيجة هذا الصراع الهائل بين الموت والحياة ، لأن جلفدانَ كانت فى كل

مرة تتشنج فيها تبدو كمن تُحتَضَر .

ولم يترك أبوها طبيباً إلا استشاره فى شأنها ، فأجمعوا رأيهم على أنها تعانى مرضاً عصبيا نتج عن رغباتٍ كبتتها فزاغت فى جسمها وتعقدت فى خلاياه ، وبين وقت وآخرَ تنْشط للانطلاق بأن تعبِّر عن نفسها ذلك التعبير الذى يتيح لها أن تَبْتَخرَ معه كما تَبْتَخر المعانى مع الألفاظ ، وإنما تختار للتعبير هذه الحركات الملتوية ، حتى يخْفَى فهْمها على الرقيب .

ولقد كان طبيعيا أن تصبح جلفدانُ فريسةً للأمراض العصبية ، وهى التى لم يُتَح لها تحقيق رغبة واحدة من رغباتها ، فكانت النتيجة أن عاشت تحْمل فى جسدها رغباتِ العمر كله ، وهو عبء تنوء بحمله الجبابرة .

أما شريفةُ هانم فقد ظنت أن الأرواح الشريرة قد سكنت جسم ابنتها فذهبت تستشير السحَرة . وكان رأيهم ما توقعَت . والواقع أنه لا فرق بين الرغبات المكبوتة والشياطين ، لأن كليهما قوًى هائلة تربض فى الجسد كعدو مخيف ، وما تفتأ تنتقم منه لعجزه عن تنفيذ

مشيئتها حتى تنهكه . ومن ثم فإن الأطباء والسحَرة متفقون وإن اختلفوا فى التسمية . بل إن السحرة زادوا أن ابتكروا طريقة مُثْلَى لطرد هذه العفاريت أو الرغبات ، وذلك بإثارتها فى حلقات « الزار » بالنقر على الدفّ وإطلاق البخور ، حيث لا تلبث أن تخفّ لتلبّى نداء النغم ، وتنتظم فى رَكْبِ الدُّخَان المعطّر .

واضطرت شريفةُ هانم إزاء عجْز الأطباء أن تؤمن بالسحر . فما عتم أن اكتظ البيت بالساحرات الملثّمات بالخُمُر البِيض كأنهن راهبات . وبين يومٍ ويومٍ تُوقَد الشموع وتقرع الدفوف ، ثم تقف ساحرةٌ تحرق البخور فوق رأس جلفدانَ لتستحضرَ الجنَّ المختبئة فى جسدها ، وجلفدانُ يستخفُّها الطربُ فتَحْضُرها عفاريت الأرض طرًّا ، وتنطلقُ فى الحجرة تقفز كقرد هائج ، حتى إذا ما رحلت عنها الجِنَّة استرخَت أعضاؤها وأخلدتْ إلى الهدوء .

وتوالت أمثال هذه الحفلات ، وغصّ البيتُ برائحة الشياطين وعجّ بأشباحهم ، حتى لكأنما هو جُبٌّ

أُعِدَّ تحت الأرض لسكناهم . ولكنَّ كل هذه المحاولات كانت تذهب سدى ، لأن ما كان يتصاعد من جلفدانَ مع النشاط الذي كان يفتعله في جسدها السحَرة ، لم يكن إلا ما توالد من دخَان الرغبات المكبوتة فيه ، وأما الرغَبات ذاتها فظلت باقية ، في انتظار الطريقة الوحيدة لتصريفها ، وهي أن تتحقق تحقيقاً تتلاشى في تفاعلها معه . وهكذا لا الطب أجدَى ولا السحر مع جلفدان .

. . .

وقلِق القوم من أجل الفتاة . وكادت زينات بنوع خاص تتلف جزعاً عليها . لم يكن حبها لها بالجديد ، ولكنها لم تكن تدرى أنه يصل إلى هذا الحد . أما الآن وقد أخذ القلق يساورها من أجلها ، أما الآن وقد أخذت تخشى أن تفارقها إلى الأبد ، فقد أدركتْ ذلك .

وإنها لتذكر يوم غُشِيَ عليها أولَ مرة في الحفل ، وكيف تملَّكها الهلع من أجلها فنسيت يومئذ كل شيء ، حتى نشوةَ اللقاء الذي كان بينها وبين مختار ، حتى

نشوة الوعد الذى وعدها به ، ولم تعد تفكر إلا فيها . وكيف أنها حين أفاقت وأيقنت أنها رُدَّت إليها ، شعرت بأنها غدت أسعد منها فى أية لحظة مرت عليها فى الحياة ، بما فى ذلك اللحظة التى كان فيها فتاها يسكب فى أذنيها أغاريد الحب . ذلك أن الذى غمرها لم يكن إلا تلك السعادة البريئة الهادئة ، التى هى أقرب إلى راحة الضمير منها إلى التلذذ بالحياة . ولكنّ الذين ذاقوا هذه الراحة ، يؤمنون بأنها تفوق كل سعادة فى الوجود .

فما هو يا تُرَى سر هذا الحب العجيب ، الذى يُنسى الإنسان حتى كَلَفه بحبيبه ؟ أهو الأخوّة وحدها ؟ أم هو شىء فوق ذلك ، هو العطف على إنسان عزيز يتعذب ؟ على عذراءَ محرومةٍ الأملَ الحلو الذى يداعب قلوب العذارى ؟ وفوق ذلك يهددها الموت بين لحظة ولحظة ؟

والآن وقد عاد مرض جلفدانَ سيرته الأولى ، بل ازداد خطراً عما كان ، إنها لَتذكر أحياناً حبها لمختار ، وأملَها فيه الذى أرجئ تحقيقه إلى أجل لا يعلمه إلا الله ، ولكنها لا تحفل بكل ذلك ، وشىء واحد هو الذى

أصبح يشغل بالها ، ذلك هو صحة جلفدان .

. . .

وذات يوم وكانت قد دخلتْ عليها وهى نائمة ، سمعتْها تهذى بكلمات رابتْها وكادت تصعق لها . ثم لم تلبث أن أبدتْ شكوكَها براهينُ أخرى ، فوقفت على الحقيقة وكانت رهيبة مُرة ، حطمتْ كل أمل لها فى الحياة . ومنذ ذلك اليوم وهى فريسة للتفكير فى مسألة لا تدرى لها حلا . فكانت كلما قعدت بها الحيرة عن البت فيها برأى ، لم تجد وسيلة للترفيه عن نفسها إلا البكاء .

. . .

وكان الدكتور مختارٌ يتردد باستمرار على المريضة ، ليرقب تطورات الداء ، ويباشر تنفيذ العلاج الذى استقر عليه رأى الأطباء الذين عادوها .

وفى إحدى المرات التى كان فيها عندها ، اعترتْها نوبةٌ كانت أطول النوبات وأقساها ، كادت تُسْلم فيها أنفاسها .

وأثناء النوبة ، انتحت زينات بمختار جانباً وسألته رأيه . لا شك أن جلفدانَ فى نوبة كهذه يُخشى عليها هبوطُ القلب . وهذا ما حدا بزيناتَ إلى أن تتلهف على كلمة منه تبدد مخاوفها . على أنه كان ألبق من أن يصارحها برأيه فراوغ فى الإجابة ، ولكنها قرأت كل شىء فى عينيه اللتين لم تستطيعا كتمان قلقه .

وجزعت زيناتُ وقالت له :

— بربك إلا تكلمتَ يا مختار ؟ خبِّرنى بالحقيقة .

ولكنّ مختاراً تركها وخفّ إلى المريضة يُعْنَى بها .

وازداد قلق زيناتَ من تملُّص الطبيب منها ، وإصراره على عدم التصريح لها بشىء . وفى غمرة هذا القلق ، وتحت تأثير الخوف على أختها من الموت الذى خيِّل لها أنها تراه وقد دخل الحجرة وأخذ يرفرف فوقها ، وبعد أن تذكرتْ الكلمات التى فاهت بها منذ أيام وهى نائمة ، نذرتْ فى نفسها أمراً اعتزمت أن تنفذه ، لو أن أختها نجت هذه المرة وردها الله إليها .

وشاء لطف الله أن تنتهى النوبةُ بسلام ، وتعود

جلفدانُ إلى الحياة . فلما اطمأنت زينباتُ عليها ، كان أول ما فكرت فيه أن تفى بالنذر . فاختلت بمختار وراحت تقول له فى أسى :

— نبِّئنى بالحقيقة يا مختار . إن جلفدانَ أصبحت فى خطر ، أليس كذلك ؟ إنْ هى إلا دوراتٌ يدورها حولها ملَكُ الموت ، كما يدور البازى حول فريسته ، وفى دورةٍ من هذه سيخطفها ويمضى . قلْ ذلك يا مختار . لا تكتُمْ علىّ أنباء أختى . أتكون مزمعةً القيام بآخر رحلاتها ولا أعلم ؟ دعنى أعلم ، فأجْمعَ فى عينىَّ كلَّ ما أشعر به نحوها من حب ، وألقاها به قبل أن تُغْمِض . دعنى أعلم ، فأسكبَ فى صوتى كل ما أحمل لها من حنان ، وأحدِّثها به قبل أن تَصَمّ . دعنى أعلم ، فأنسج من قلبى أثواب الحداد ، وأُعِدَّها لليوم الذى سترحل فيه . وأحشد لوداع موكبها دموعى ، وأُبقيها فى مآقىَّ تنتظر . ما ينبغى أن نجهل ما سيحل برفاقنا ، الذين سيفارقون عما قليل . يجب أن نعلم ، لنؤدى لهم فى ساعاتهم الأخيرة ، ما لا يمهلوننا لأدائه .

ولم ينبس مختارٌ ببنت شفة . كان حائراً ماذا يقول ، فإن من أشق الأمور نَعْىَ إنسانٍ لم يمت بعد . عندما يموت المرء وينتهى ، لا يأتى ناعيه بجديد ، أما أن يوضع فى قائمة الأموات وهو لم يزل حيا ، فمن أشق المواقف التى يواجهها الطبيب .

ولما طال سكوته قالت زينات :

— إذَن فلقد نبأنى صمتك يا مختارُ بكل شىء . إن أختى تجتاز الآن أواخر أيامها . وتلك التى كانت حية تروح وتجىء ، عما قليل ستغدو ذكرى شىء عَفَى ، ولن تعود تجيئنى إلا فى الأحلام أكذوبة . والهفى عليك يا جلفدان ! سأظل أذكر على الدوام ، أيامَ الحرمان التى قضَيتِها فى هذه الدنيا ، وفمَك الذى انطبق على ظمئه إلى الأبد ، وأتحسر .

واعترتها نوبة عنيفة من البكاء ، فأخذت تنْشج وعضلاتُ جسمها ترتجف ، ومختارٌ أمامها يسرّى عنها وقد اغرورقت عيناه بالدموع .

ولما هدأت ثورتها نظرت إليه فى توسل وهى تقول :

— ولكن اعلمْ يا مختارُ أن جلفدانَ وإنْ كانت تموت ، فما يزال هناك خيطٌ للنجاة ، وأن هذا الخيط في يدك .

وهتف مختار :

— في يدِي ؟

— نعم في يدك . إن شئتَ جذبتَها منه إلى الحياة ، وإنْ شئت تخليتَ عنه وتركتَها تهوِى .

— ولكنني لم أدَعْ محاولة في علم الطب إلا جربتُها معها .

— جربتَ طب الأجسام يا مختار ، فهلاّ جربتَ طب القلوب ؟

— ماذا تعنين ؟

— نعم ، إن جلفدانَ ليست مريضة ، ولكنّ المريضَ قلبها . لقد كشفتُ بنفسي ذلك . دخلتُ عليها مرة وهي نائمة ، فسمعتُها تهذي باسم من تحب . وفاجأتُها أخرى وبيدها صورة حبيبها ، تناجيها بأرقّ الكلمات وأشدها يأسا . إن جلفدانَ يا مختارُ محبة يائسة .

— جلفدانُ محِـبة ؟

— نعم يا مختار .

— ولـكنْ ما لى ولذلك ؟ وماذا عسى فى وسعى أن أعمله من أجلها ؟

— فى وسعك أن تعمل الـكثير ، إنْ كنتَ على استعداد للعمل .

— وكيف لا أكون ؟ عُمرى فإنى طوع أمرك . تالله لو استطعتُ أن آتيها بمن تحِـب ، لما توانيتُ ولو بذلتُ عمرى فى ذلك ثمنا .

— أتَـعِدنى ؟

— دون تردد . أليست جلفدانُ أختى ؟

— ولـكنّ الأمر يكلفك عمرك كما قلت .

— عمرى فداؤها وفداؤك يا زينات . قُولى : تحِـب من ؟

— تحبك .

وصعق مختارُ وصرخ :

— تحبنى ؟

— نعم تحبك . وباسمك كانت تهتف . وإياك كانت تناجى وتتعذب .

— إياى أنا ؟

— نعم أنت . إنه سرٌ رهيب بقى مكتوماً فى قلب المسكينة ، ولـكننى وقفت عليه ، وقفت بمحض الصدفة . ومنذ اليوم الذى كشفتُــه فيه ، أيقنت أننى إما أن أضحى بحبى أو بأختى . ومع أن الصراع كان هائلا بين الاثنين ، لأن كليهما علىّ عزيز ، فإنى لم أتردد فى الإبقاء على جلفدان ، وساعـدنى على ذلك رؤيتى إياها الآن تموت . فـكرتُ فوجدت أن تضحيتى بالحب لا تعنى تضحيتى بالحبيب ، ولـكنّ تضحيتى بأختى هى تضحيةٌ بإنسان . إذ حسـبى منك يا مختارُ وإنِ انقضى ما بيننا ، أنفاسٌ تتردد وتُشعرنى بأن كل شىء لم يذهب . ولـكنْ ماذا يبـقَ لىَ من جلفدانَ إنْ هى ماتت وذهبت ريحها ؟

وسكتت ريثما تلتقط أنفاسها ثم عادت تقول :

— اذهب إذَن يا مختـارُ وضعْ قلبك بين يدىْ أختى ، ثم قابلْ أباها واخطبها إليه . اذهبْ وعجّـل ،

فقد يفوت الأوان . اذهبْ ، ألستَ طبيباً كرستَ نفسك لعلاج مرضاك ؟ كيف إذَن يكون فى يدك الدواء وتضن به ؟ اذهبْ لا من أجل مريضتك فقط ، ولا من أجل أبويها اللذين ربياك صغيراً فقط ، ولـكنْ من أجلى أنا أيضا . من أجل زينات َ حبيبتك . ألست تحبنى يا مختار ؟ أليست غاية المحب إسعاد الحبيب ؟

— بلى يا زينات .

— إذَن فاعلم أن سعادتى فى زواجك من جلفدان ، إن صح اعتبار أهون الشقاءين سعادة . لا تَقُلْ إنى أنانيَّة ، أفكر فى نفسى وأنساك ، فإن إسعادك وا أسفَا خرج من يدِى إلى الأبد . ذلك أن جلفدانَ إنْ ماتت مِت . وإن قُدِّر لى أن أعيش بعدها ، فلن يتفتح قلبى للحياة حتى يتفتح لحبك . لسوف يجلله السواد فما يعود يتسرب إليه نورٌ على الإطلاق .

وهنا ركعت أمامه واستمرت تقول :

— أنقذْها تنقذْنى يا مختار . أنقذْها تضمنْ بقائى حيةً على الأقل ، وتشعر بأن لىِ أنفاساً فى الدنيا .

أنقذْها تضمنْ بقائى حية ، وتستطيع أن ترانى كلما هَفَا بك إلىّ شوق . بل تستطيع أن تحبنى أيضاً يا مختار ، حبًّا مجرداً عن الهوى كما تحِب قدّيسة . وتعبدنى ولكنْ كعبادة الوثنىّ للصنم ، عبادةً خالية من كل مأرب . أجل ، تستطيع أن تحب روحُك روحى .

وتنهدت ، ورفعت وجهها إلى السماء كأنها تُشْهِد الله على ما تقول ، واستطردت :

— وثِقْ يا مختارُ بأن هذا الجسد الذى سيغدو حراماً عليك ، سيغدو حراماً على كل إنسان ، إلى أن يضمه الترابُ الذى نَفَضَه . نعم ، وحقّ السماء لن أهَبَه أحداً ، وحقّ السماء !

وخرت تبكى . ثم عادت تقول ، وهى تمسح دمعها :

— فكّر جيداً يا مختار . إننا إن تركْنا جلفدانَ تموت ، فسنخسر كل حبنا ، لأننا سنزهد عندئذ فى سعادة نقيمها على أنقاض إنسان مات . أجل ، إن مثل هذه السعادة ستظل قذًى فى عينينا وشجًى فى حلقنا

إلى الأبد . وسنخسر فوق ذلك راحة ضميرنا ، لأن طيف جلفدانَ المائتة ، لن يلبث أن يتعقبنا ويُفْسد علينا نعمة السلام . بل يقيني أننا سنطْبق عليه أجفاننا عندما نموت ، فيظل يزعج رفاتنا في قبره . على حين أننا إن أنقذناها ، ففضلا عن أننا سنربح لذة التضحية من أجل إنسان ، لن نخسر حبنا كله .

وراحت تتفرس في وجهه لترَى وقع كلماتها عليه ، فراعها أن وجدته شديد الامتقاع ، ووجدت صاحبه وهو يكاد يهوى من فرعه . فصرخت في جنون :

— آه ، لقد طعنتُك يا حبيبي ، طعنتُك ! وإلا فأين هربتْ دماؤك ؟ ولماذا خارت قواك ؟ طعنتُك ، ولكنني من دمِك بريئة . سَلِ القدرَ مَن ذا الذى ناولنى السكّين ؟ ومَن ذا الذى حرك ذراعِي بها ؟ سله فلديه الجواب . ما لك لا تصدق ؟ انظُرْهُ أمامك وخلْفك وفى كل مكان ، تجدْه ممسكاً بالخنجر الذى ناولَنيه ، وعليه آيةٌ من دمك . إنه خنجره . ولقد قتلنى به أيضاً من قبل أن يقتلك . وإذا كانت دمائى

لا تقطر منه ، فلأنها جفت عليه لقدم العهد . إنى سبقتك يا مختار إلى الموت بأيام . مِتُّ منذ اللحظة التى سمعت فيها جلفدان تهتف باسمك .

وأصابها الإعياء فطوحت برأسها إلى الوراء وجعلت تئن . وانحنى عليها مختار وأخذ يهدئ روعها . فلما تملكت قواها نظرت إليه كمن تسأله رأيه . وإذ لم تخف عنها حيرته قالت له مشفقة :

— مختار ! لستُ أطلب منك أن ترتجل القرار فى مسألة تترتب عليها حياة أو موت . فاخلُ إلى نفسك وفكر ما شئت ثم ائتنى غداً بالجواب . والآن ، عِمْ مساء .

. . .

ووقفت تشيعه وهو يذهب ، وقد انبثقت من عينيها لؤلؤتان ، تألقتا فى الظلام لحظة ، ثم انحدرتا على خديها ككوكبين تهاويا .

الفصل الرابع عشر

فى ذلك المساء ، أوى مختارٌ إلى مخدعه وبقلبه جرح عميق ، لا يدرى كم من الدماء قطرتْ منه ، إلا الطريقُ الذى قطعه من منزل عمه إلى منزله ، والفِراشُ الذى ظل ليلته يتلوى عليه من الألم .

وبعد أن خـفَّت حدَّة ألمه جعل يفـكر : لقد قطع على نفسه عهداً أن ينقذ جلفدان ، ولـكنه ما كان يتصور أن يكلفه إنقاذها كل هذا . لو أن الأمر كلفه عمره كما وعد ، لهان الخطب ، ولـكنه كان يكلفه أكثر من ذلك ، كان يكلفه أن يعيش بلا أمل ، والعيش بلا أملٍ موتٌ متواصل . وبَعْـدُ فالجود بالعمر تضحيةٌ تنتهى فى لحظة وينتهى معها ألمها ، أمّـا أن يذوق الإنسانُ الموتَ على مَهَـل ، أما أن يموت فى كل مرة تتمرد فيها روحه ، فهو أمر فوق الاحتمال .

وراح يتصور الأعوام التى سيعيشها وهو ميِّـت .

فى هذه الأعوام التعسة ، لن يحيا فقط بلوعة غرامه الضائع ، بل سيتجرع أيضاً مرارة البقاء مع جلفدانَ فى عشِّ زوجيةٍ واحدٍ منكود ، وهذا هو الشقاء بعينه . ألا ما أحَبَّ الموتَ إنْ كان لا بد من حياة كهٰذِى !

وعزت عليه نفسه . وعول على أن يرفض التضحية بها على هذا النحو . وزاده استمساكا بهذه الفكرة ، خوفه من أن يَقنص غيرُه عصفورتَه ، إنْ هو تخلَّى عنها ولَمَّ الشِّبَاك . خصوصا وثَمَّةَ صيادٌ واقفٌ لها بالمرصاد ، هو جارها محرز . وإنه لَيموت ولا يمكِّن منها هذا الصائد بعينه ، لِمَا بينهما من تنافسٍ جعله يكرهه كما لم يَكره أحداً من العالمين .

حقيقة أن زينباتَ وعدته بأنها لن تهب نفسها لسواه ، ولكنْ من يدرى مدى ثبات هذا الوعد أمام كَرِّ الزمن ؟ إن الوعود كثيراً ما تبْرد حماستها مع الأيام ، ثم تتحلل من نفسها . وفوق ذلك فأنْ تبقَى فتاةٌ عمرَها عذراء ، أمرٌ يجب لتصديقه شىء من الحذر .

ثم . . .

وبدت عليه علامات الاستنكار .

كيف يجرؤ على طعن حبه ؟ إنه لأهون عليه أن يطعن نفسه ، بل يطعن زينات ، من أن يطعن هذا الحب . لقد كان ينظر إليه كعنصر خلوده الذى سيحيا من بعده ، ويخلّده . كان يستبعد أن تسكن هذه النبضات التى تختلج بفؤاده بعد الموت ، ويخيل له أنها ستظل تدبّ فى عظامه النخرة يوم يصبح من الهامدين . ألا إنها الوحيدة التى ستبقى منه عندما لا يبقى منه شىء ، فكيف ، أجل كيف مع هذا يسكتها ؟

فثبت على ما انتهى إليه من رأى . ولكنه عاد فتصور زينات ملثمة بالسواد حزنا على جلفدان ، وقد مات فى قلبها كل حب له ، وأصبحت تنظر إليه كقاتل أختها وتمقته . بل إنه تصوّرها تموت من هذا الحزن ، فيعيش بعدها فى عالم كله غربة وفناء . تصور هذا ثم ذكر الجملة التى قالتها له وهى : « تستطيع أن تحب روحك روحى » ، وراح يتدبر معناها . إنه إذن لن يفقد كل شىء ، إذ سيبقى بينهما ذلك الحب الروحانى . وأخذ

يتخيل حبهما الأرضى الملتهب ، وقد جعل يشفُّ ويتحول إلى نور سماوى هادئ ، فوجد أنه لا يخلو من جمال . ثم زاد أن قال :

— ومن يدرى ، فربما يبدو فى نظرى أجمل ، عندما أشفُّ أنا الآخر معه ، وتصبح لىِ عينَا مَلَك ، تستطيعان أن تَريا من الجمال ما هو ربانى ؟ بل إننى لن أعود عندئذ أحفل بجمال الأرض ، بعد أن آلَف التطلع إلى السماء . وعلى ذلك فسيأتى يومٌ أنسى فيه أن لزينات وجهاً فاتناً وقواماً لدْنا ، ولن أعود أحِب إلا روحها ، تلك الأشعة التى كلها نقاء ، والتى لا يبلَى حسنها أبدا . ولكن . . .

وصعَّد زفرة واستطرد :

— هل يمكن أن يصير الإنسان مَلَكا ؟ أجَل ، هذه هى المسألة . وأغلب الظن أنه لن يكون . فإن لكل كوكبٍ ساكنيه ، وما كانت الأرض لِتَضمَّ ملائكة .

ثم تحسَّس الدفءَ الذى يسرى فى عروقه وهتف :

— أجل ، كيف يتسنى لى أن أتخلص من هذه النار

إلا إذا تخلصتُ من نفسى ؟

وغامت الدنيا فى عينيـه . وبقى طول الليل وهذا الخليط المتضارب من الأفـكار يحتل ذهنه كأنه أضغاث أحلام ، لا يعرف ماذا يأخذ منها وماذا يَدَع .

. . .

أما زيناتُ فـكانت بين حبها وأختها ، تحترق كما دأبتْ على أن تحترق مذ كشفتْ سر هذه الأخت . حتى إذا ما طلع الصباح بدت وكأنما تتعذر رؤيتها إلا فى تلك الأدخنة التى تصاعدت منهـا فى جو الغرفة .

. . .

وفى اليوم التالى ، التقى هيكلان فى الظلام تحت ضوء النجوم . وكانت أصوات الجنادب المُـنْبَـثَّة فى الحديقة ، ترتفع متغنيةً فى سكون الليل بأناشيد المجهول . ونقيقُ الضفادع ينبعث غافياً من الجدول الذى وقفا إليه ، كأنه يتحدث عن عصورٍ سلفتْ . فـكان من ينظر إليهما وقد احتواهما هذا المـكان الذى يحمل طابع المـاضى ويَـهْـجِس بوحيه ، يخيل له أنهما طيفان لإنسانين ماتا ،

وقد أخذا يلُوحان من خلال التاريخ .

وهمس أحد الطيفين :

— علام عولت يا مختار ؟

وأجاب الآخر :

— هل فكرتِ فى الأمر ؟

— إنى أسألك .

فاعتدل فى موقفه قبل أن يجيب ثم قال :

— اسمى يا زينات . عندما أضحّى بنفسى فى سبيلك ، ماذا يشفع لى عند هذه النفس ؟ أليس الحب ؟

— استمِر .

— حسنا . بعد أن أطعن هذا الحب فيموت ، ماذا يشفع لى حينئذ عند نفسى ؟

وصمت قليلا ثم استطرد :

— فها أنت ذى تَرين أن الوضع الذى تقترحينه يوقعنا فى دائرةٍ مفْرغة . إذ أن الحب الذى هو علة التضحية ، لن يستمر ليظل يسوّغها بَعدَه . ومن ثم فسأظل أستشهد كل يوم دون أن أدرى فى سبيل

من اموت .

— مهلا . ولكنّ حبنا لن ينقضى ، إذ سيبقى بيننا ذلك الحب الروحانى .

— أىُّ حب روحانى ؟ لقد حاولتُ أن أتصوره فما استطعتُ أن أرسم له إلا صورة مبهمة كتلك التى نرسمها للجنة والنار .

— وما قولك فى أننى استطعت أن أتبيّن خطوطه كأوضح ما تكون ؟

— وهل يمْكن هذا ؟ هل يمكن العين أن تتصور شيئاً لم تسبق لها رؤيته ؟

— كلا ، ما بعينىِ ولكنْ بروحى رأيته .

— بروحك ؟

— أجَل . عندما شفّ جسمى على نار الألم كما يشفُّ البخور ، ألفيتُنى أتحول إلى دُخانٍ يتسامَى . فطفقتُ أصْعد فى السماء وأرتفع ، حتى رأيتُ والسهدُ ضيق ذات ليلة ، مواكبَ ذلك الحب الذى أتحدث عنه . إنه ليس قُبلاً ولا عناقا يا مختار ، ولكنه مزيجٌ من أنوارِ الهية

لا عهدَ لنا بها . فيها هدوء تلك الخضرة التى تصبغ الجنة ، وليس فيها مِن لَهَب الجحيم . وإمّا دارت فى فلكها تُنشِد . ولِأنغامها سَكْرةٌ كسَكْرة الرحيق .

وهتف وقد ذهل :

— هذا عجَب ! وماذا كان شعورك ؟

— لا أقدر أن أصف . غير أنى أحسستُ كما لو كنتُ فى عالمٍ من أثير ، أَسبح فيه بغير جناح . إنه شىءٌ خفّ بِى عندئذ ، كأنما نُفِخ فى جسمى هواء .

وابتسَمتْ ، كأنما تستعيد أمام عينيها ما رأت . ثم استطردت :

— وجعلتُ أتساءلُ : « ما هذا الشىء ؟ » . وكأنى بهاتفٍ يجيبنى ويقول : « إنه الألم . إنه الجحيم الذى احترقتِ على مَطْهره ، فحوّلكِ إلى دُخان » . أواه ! يا لها من حقيقة !

— أية حقيقة ؟

— سِرُّ الخلود . ليس يوصّل إلى الخلد إلا الجحيم . إنه مرحلةٌ يجب أن نمر بها ونُكَفّر ، قبل

أن نصبح قِدّيسين .

وَسَهِمَ مختار . وألفَى زينات تضعه فى عالم غريب لا يفقه شيئاً عن كنهه ولا يستطيع أن يؤمن به . فَزَمَّ شفتيه وقال لها :

— إنى أخشى أن يكون الذى رأيتِ تهاويلَ الألم . فإن للآلام سكَراتٍ تفْعِم الرءوسَ بالأكاذيب . إذ كيف يبصر عالمَ الأرواح بَشَر ؟

— ما أنا وقد طهَّرنى الألمُ ببشَر .

فكابَرَ ، فانثنت إليه قائلة فى يأس :

— آه ! لكأنى بك ترفض يا مختار . مختار ! ألا فكِّر مَلِيًّا .

— بل فكِّرى أنت .

— رحماك يا مختار !

— أخاف أن تندمى .

— وعلام لَعمرك ؟ أعَلى إنقاذى أختى ؟

وبكت .

ولم يرحم دمعَها .

وعادت تجادله فلم يفهم لغتها . لم يكن قد شفَّه الألم بَعْدُ كما شفَّها ، حتى يستطيع أن يرى فى أثير صوفيَّته ما تَرَى . لم يكن قد تحرر من لغة الجسد ، حتى يَفهم لغة الأرواح . لقد كان حديثَ عهدٍ بالنكبة ، فلم تَسحق الآلامُ جسده حتى النهاية ، لتَسْتخلص أنوارَه . أما هى فكانت قد سبقتْه إلى ذلك بزمن .

وأخيراً قال لها :

— الأناةَ يا زينات ! ولا تتخذى قرارك إلا بعد أن تسكن العاصفة ، وتكفَّ عن إثارة الغبار الذى ترين فى تَلافيفه هذه التهاويل .

ولم تجبه . وراحت تقول وكأنها تناجى نفسها :

— أواه ، أرى شبح فاجعة ! فغداً تموت جلفدان ، وأنا مِن بَعدها . ولا تعود تَراك عيناى يا مختار . أجل ، لسوف تغيب من وجودى مع نور عينىّ . فوا أسفى عليك وعلى عهدٍ كنتَ تطْلع علىّ فيه !

واستطردت :

— سامحك الله ! ما كنتُ أتوقع أن يكون انهيارى

على يديك .

فهتف يؤنبها :

— زينات !

— صه ! لكأنى بحبك لى كان أكذوبة .

وأشاحت بوجهها عنه .

ووقعت عليه كلمتها وقع الصاعقة . وحاول أن يدنو منها ويسترضيها ، ولكنها دفعته عنها فى عنف وهى تقول :

— دعنى . ما لك وتلك التى تريد أن تُغرقك . اذهبْ وانْشُدِ السلامة مع غيرى .

وتركته ومضت ، وهى تحمل له فى نفسها أمرَّ عتاب .

الفصل الخامس عشر

أمام نفرٍ من الجلوس على أحد المشارب، وقف شابٌ يرتدي الأسمال يعرض بيع ورقة من أوراق النصيب.

ولمْ يَشْتَرِ منه أحدٌ أو يسرِّحْه بإحسان، لأن القوم الذين وقف بهم، كانوا في شغلٍ عنه بتصويب النظرات الوقحة إلى حسناءَ من النَّوَر كانت ترقص وتصفق بِصَنَجات.

كانت سمراءَ البشرة سوداء العينين. لها خدان في حمرة خشب الورد، وشعرٌ فاحمٌ أشعث، يستقر على كَتِفين مُدْمَجتين.

وكانت تغنِّي وتقول:

مَن رأى لوني المحروق، ولمْ يسْكر بنبيذه؟
أو رأى شَعري الحالك، ولمْ تَضِلَّ نُهاه؟
أنا فتاة الغاب.

. . .

بِلَـيْل أجفـانى كَم أغفتْ قلوب !
ولِظِـلِّ أهدابِى كَم لجأتْ مُهَج !
أنا ! أنا فتاة الغاب .

. . .

ثم تثب وتأخذ ترقص وتَدُقُّ بساقيها ، وصوت صنَجاتها يُصَلْصِل .
ثم تعود تغنى :
بين الدَّغَال نشأت .
ومع الوحوش شَبَبْت .
أنا فتاة الغاب .

. . .

إنْ رُمْتَ حسنِى خَمَشَك .
أو رُمْتَ صيْدِى صِدْتك .
أنا ! أنا فتاة الغاب .

. . .

ثم تثب راقصة . ثم تَختتم أغنيَتها قائلة :
همجىٌّ رقصى .

ذهبىٌّ صوتى .
أنا فتاة الغاب .

. . .

لا مثيلَ لفنّى .
لا جميلَ كشكلى .
أنا ! أنا فتاة الغاب .

. . .

وعندما انتهت الرقصة ، تناولت دُفًّا من صاحبها وأخذت تَطُوف على روّاد المشرب تجْمع فيه قروش الإحسان . حتى إذا ما بلغت النفر الذى كان يقف إليه بائع النصيب ، انبرى لها منهم شابٌّ صفيق الوجه كان يبدو أنه زعيمهم ، وهتف بها :

— لن أنفحك بشىء حتى تعطينى قبلة .

فأدارت عابثةً خدها نحوه . فأرسلها إليه فى الهواء قبلةً ذاتَ رنينٍ يَنْدَى له الجبين . ثم قَهْقَه قهقهةً خنزيرية تردَّد صداها فى أرجاء الشارع ، وقهقه على أثره صَحْبُه .

وابتسمت البوهيمية كمن تتلقى القبلة . فأخرج من جيبه قرشاً منحها إياه وهو يقول :

— إن جدتِ بأخرى جدتُ بآخر .

وعادت تدير نحوه خدها . ومرة أخرى رنَّ صوتُ قبلة فى الهواء ، واستقرَّ قرشٌ فى كف الراقصة .

ووسط عواصف الضحك ، والنظراتِ الفاجرة التى كانت تسدَّد إلى الفتاة ، لوَّح لها بثالث وهو يقول :

— وهذا ثمن القادمة . امنحينى امنحْك ، ولو ظللنا هكذا إلى الصباح .

وظل يأخذ القبل منها رخيصة ، ويغدق الثمن عليها غير آبه ، حتى ربحت من هذه المداعبة السمجة عشرة قروش .

ثم مضت لسبيلها تشيِّعها النظرات الجائعة ، وعبارات الغزل الوضيع ، بعد أن همس فى أذنها بضع كلمات لم تلبث أن أمَّنت عليها .

وما إن اختفت حتى التفت إليه أحد زملائه وقال له وهو يغمز بطرف عينه :

— ماذا كنت تُسِرُّ إليها يا شق ؟ إنى أفهم ألاعيبك .

فأجابه من فوره :

— صه بحق الشيطان . أتظن أن فى وسعى أن أنقطع للتسبيح لتلك البومة التى خطبها لِى رجب ؟ قَبَّحهما الله !

ثم رفع إلى فمه قدح الخمر الذى كان أمامه وهو يقول :

— اشربوا يا رفاق . نخْب البوهيمية الحسناء . أرجو أن لا أحتاج غداً إلى عصافيرَ أحمِّلها إليها قبلاتى . أجل ، لن يكون بين فمى وخدها إلا ما بين شفتىّ وهذه الكأس .

ورفع الجميع أقداحهم ، وشربوا نخب هذه الخِسّة .

وكان بائع النصيب يرقب كل ذلك ولا يفتأ يكتم اشمئزازه ، ويلعن فى سره أولئك البَطِرين المستهترين ، الذين لا هَمَّ لهم إلا الإغراق فى الضحك والانهماك فى الملذات . فلما سمع من بطل هذه المخازى حديثه عن مخطوبته ، هتف فى قلبه :

— يا لك من نذل ! ولماذا خطبتَها ؟

وبعد أن قلَّب شفتيه فى احتقار ، تقدم منه يعرض عليه من جديد شراء ورقة . ولكنه تجاهله وراح ينظر إلى قرَّاد كان قد أقبل يجرُّ وراءه قرداً وعنزة . وفجأة انفجر الوجيه ضاحكا حتى استلقى على قفاه ، ثم انثنى ينادى القراد ، فلما دنا منه قال له :

— هيه أيها الأستاذ المبجَّل . هلاَّ جعلتَ السيد والسيدة يرقصان لنا « ڤالْسا » ؟

وأومأ القراد برأسه . ثم جعل ينْقر على الدفّ نقَرات خاصة ، لم تلبث العنزة على أثرها أن وقفت على رجْليها الخلفيتين ، وللحال وثب فوقها القرد ، وبعد أن أتى ببضع حركات ماجِنَة ، رفع يده للحضور بالسلام .

وضجَّ الجميع بالضحك . وأخرج الذى هو أسفههم قرشاً وأعطاه للقرد الذى كان قد تقدم نحوه فاتحاً كفه .

وبدا لبائع النصيب أن يعاود الكرَّة ، وكأنما ظن أن دوره قد جاء لينال نصيبه من هذا البذخ ، فدنا من السيد وراح يردد قوله :

— النصيب يا بك . ألا تشترى ورقة ؟

ولكنّ السيد الذى ما كان لينفق إلا على ملاذّه ، لم يلبث أن صاح فيه :

— تبًّا لكم أيها الشحاذون ! أما تكفّون عن مضايقتنا بأشكالكم القذرة وأنينكم البغيض ؟ إليك عنى .

ثم التفت إلى رفاقه وراح يقول :

— لست أدرى لماذا لا تجمعهم السلْطة كما تجمع الكلاب ، وتسمّمهم أو تقتلهم رمياً بالرصاص ؟

وهنا استدرك أحدهم :

— أصبتَ يا صديق . ولكنْ أليس الأبدع أن تكون إبادتهم « بالفليت » أسوة بالحشرات ؟

وكان صبر الشحاذ قد نفد ، فرفع عقيرته وأخذ يقول لهم فى اهتياج :

— يا لَلبغى ! أتَبْرَمون بفقرنا وقد احتملْنا ثراءكم ؟ أما كفاكم أن كتبتم علينا هذا المصير بيدكم الآثمة ، حتى رحتم تعاقبوننا عليه ؟ أعيدوا إلينا حقوقنا ونحن لا نستجديها منكم . أنصفونا نَرُقْ فى أعينكم .

إنكم أنتم الذين خلقتم لأنفسكم هذا القذى فى شخصنا . إنكم أنتم الذين جعلتم الإنسانية تغرق فى هذا العار . إنكم أغبياء . مجرمون .

وهال زعيم الجماعة — وكان أسرعهم استجابةً لدواعى الشر — أن يجترئ عليهم هذا الصعلوك الوقح ، فما كان منه إلا أن رفع يده وهَمَّ بلطمه .

ولكنّ الشحاذ لم يلبث أن صاح فيه بصوت كالرعد قائلا :

— مكانَك يا عاكف ، وإلا حطمْتُ رأسك !

وتراجع الباغى أمام هذه الصيحة المخيفة . على حين استطرد الشحاذ :

— أمَا تعرفنى ؟ إننى مصطفى . زميلك فى الدراسة وأول فرقتك . ولو كانت هناك عدالةٌ لَلبستَ أسمالى وجلستُ أنا مكانك . ولكنّ الذى لا شك فيه أننى ما كنت أسلك مسلكك ، فأبعثر نقودى على البغايا وأنهر السَّألة والمحرومين . وإنما كنت أعطيك من فضلى إذا سألتنى ، أو أقول لك قولاً كريما . باركَ الله فى

الأصهار ! الذين جعلوا منك ومن أمثالك وجهاءَ يجلسون على المشارب ، ويستحلُّون لأنفسهم لطم الناس . بُؤْ بالخزْى ! فلقد برهنتَ على أنك أفقر إلى الخلُق ، منى أنا الشحاذ إلى المال . ولكنْ متى اتُّخذ الخلُق قاعدة لملْء الطبقات ، حتى كنت تعرف مكانك بالضبط ؟

وتركه يتعثر فى خجله وانصرف ، وهو يلعن فى سره رمزىّ باشا ، الذى كان السبب فى كل ما حل به .

. . .

وإنه لماضٍ فى تجواله ، وسَيْلُ اللعنات ينصبُّ من فمه على ذلك الباشا الظالم ، إذ بَصُر به جالساً فى أحد المقاهى بين رهط من رفاقه من ذوى الأوداج المنتفخة ، والكروش المدلاّة ، والسحن التى طمَسها فرطُ الشبع .

وأثار منظره كوامنَ الحقد فى نفس مصطفى ، وود لو انقضّ عليه وأطبق على عنقه بكلتا يديه فلم يتركه إلا جثة هامدة . ولكنه ما عتم أن نكَص على عَقِبيه وسار فى اتجاه آخر ، ليُسكت نزعات الشر التى كانت

توسوس له .

وظل يتنقل من شارع إلى شارع ومن حى إلى حى ، إلى أن نَهَكَهُ التعب فألقى بنفسه على حافَة الطريق وجلس يستريح . وإنْ هو إلا قليل حتى كان قد أحاط به لفيف من أبناء حرفته ، ومَن على شاكلتهم من جامعى أعقاب اللفائف وماسحى الأحذية وموزعى الإعلانات .

وبينما كانت هذه المجموعة الفذة منهمكة فى لعب « الجديد » ، وإمساك بعضهم بخناق بعض ، كان طبيعيا أن ينحو زميلهم خِرِّيج الجامعة فى سلوكه منحًى آخر ، فالتزم الصمت ، وراح يستسلم لخياله الذى سرعان ما جنَح به إلى أمه التى خلَّفها فى البيت مريضة ، وإلى عفافَ التى اضطر إلى أن يختفى عن وجهها ليستر خجله .

وبعد أن أمضى وقتاً سابحاً فى هذه الأجواء السود ، تَحامل على نفسه ونهض يواصل تجواله . حتى إذا ما انقضَت الليلة وأغلقت الحاناتُ أبوابها بعد أن أدت ما عليها للسكارى والعربدين ، وقف يحصى ربحه فإذا به أربعة قروش ، كان عليه أن يدخر منها قرشاً لكراء

الغرفة ، ويكمل ثمن الدواء لأمه بقرشين ، ثم يأكل هو وهي بالباقي . فابتسم بسمة صفراء وغمغم يتهكم بنفسه :

— لا بأس . نتيجة حسنة .

وقصد إلى غرفته ليأوى إليها .

. . .

وكأنما شاءت أمه أن لا تشاطره هذا الربح الضئيل ، فتركته إلى حيث يصبح المرء ولا مَطْلَبَ له . إذ لم يكد يَلِجُ عليها الباب ، حتى وجدها ميتة وأطرافها فى برودة الثلج . أجل ، لفظت أنفاسها وحدها ، لا أحدَ يُطمئن خوفها فى ساعاتها الرهيبة ، أو يزوِّدها بكلمة تعينها على سفرها الطويل .

وهزها مصطفى ، لا ليوقظها وإنما ليراها لا تتحرك ، فيزداد إحساساً بالفجيعة . فلما ألْفاها هامدة ، صرخ صرخة ثاقبة ثم انكفأ عليها وراح يعصر فوقها دموعه . حتى إذا ما بلَّل بها جثمانها الطاهر ، نهض واقفاً وأخذ ينظر إليها وإلى الحصير البالى الذى تمددت فوقه ، ثم إلى كِسْرة الخبز الملقاة بجوارها وزجاجة الدواء الفارغة ،

ويهز رأسه أسفاً والدموع تتقاطر من عينيه . ثم تحوّل إلى السماء وراح يقول وقد رفع إليها يديه :

— حسْبنا الله ونعم الوكيل ! كم من قَتَلَةٍ بين ظَهْرانينا وهم فى عرف القانون أبرياء !

. . .

وعاد مصطفى من دفن أمه مع مغرب الشمس ، فارتمى على حصيرِه وراح فى نومٍ عميق من أثر الإعياء الذى لاقاه فى يومه المشئوم . وكان بين وقتٍ وآخرَ يحلم بأمه وقد أتته كما كانت تأتيه حية ، حتى إذا ما فتّح عينيه وتذكر الحقيقة ، انتفخ صدره بالحسرات التى لم تكن لتجدى فى تصريفها تنهداتُه ، ثم غلبه التعب فعاد فنام .

وعندما استيقظ فى الصباح ، حمل حزمة الأوراق التى يتكسب منها قُوته ، وخرج كعادته يسعى على رزقه ويقول :

— النصيب ! مَن ذا يشترى أوراق النصيب ؟

وما راعه وهو يسير ، إلا أن رأى الباشا جالساً على المقهى نفسه ، وبين الرفاق أنفسهم . فوقف لحظة يصوب

نحوه النظرات الشزراء ، ويلوّح له بقبضة يده فى الهواء مهدّداً ، والباشا مشغولٌ عنه بحديثه مع صَحْبِه ، وقد أخذوا يصغون إليه فى ذلك الوقار المتكلَّف الذى يحسبونه من مستلزمات الوجاهة ، حتى تحولت حياتهم إلى نفاقٍ كبير ، راحوا يعيشون فيه حتى بينهم وبين أنفسهم .

وخشى مصطفى أن يتورط فيما لا تحمد عقباه ، فقفل راجعاً بعد أن أيقن أن هذا المقهى هو محل الباشا المختار ، وعزم لذلك على أن لا يعود إلى ارتياده .

ولكنه ما كاد يخرج فى اليوم التالى ، حتى وجد نفسه مسوقاً بقوة خفية إلى حيث يجلس الرجل ، وإذا به يقف لحظة يصوّب إليه النظرَ الشَّزْرَ من بعيد ثم يعود أدراجه .

وتتابعت الأيام والحقد يغلى مِرْجَلُه فى نفس الفتى ، وكلما أراد أن يتجنب المقهى الذى يتردد عليه ظالمه ، ألفى قدميه تتجهان إليه مدفوعتين بتلك القوة الغامضة ، لينتقم منه انتقامه الصامت ثم يعود لا يلوى على شىء . وكأنما كان يجد فى عمله هذا من حيث لا يشعر ، مجالا

لتنفيس عن حقده بعد أن لم يتكفل القِصَاص بذلك عنه .

. . .

وذات مساء كان الباشا جالساً فى مقهاه بين زمرته ، حين أقْبل عليه رجلٌ مسنٌّ بادره صاحبنا بقوله :

— آه ! حسن أفندى ! مرحباً بك ! كيف حالك فى تقاعدك ؟

وراح يضحك ملاطفاً ثم استطرد :

— ألم توفَّق إلى عمل ؟

— كلا أيها الباشا . إنى قانع بمعاشى ، ولست أطمع إلا فى أن أقضى البقية الباقية من أيامى فى هدوء .

— الحقُّ أن المصلحة خسرت فيك رجلا طيبا محبوبا . حسنا ، هيا ننتقلْ إلى النَّضَد المجاور لأحدثك فيما بعثت إليك بشأنه .

وخلا به وجعلا يتحدثان .

وقال حسن أفندى وهو يرشف قدح القهوة ، يردُّ على سؤال وجهه إليه رئيسه القديم :

— نعم اعرفه . لقد كان أبوه رحمه الله صديقاً لى .

— وهل تعرف منزله ؟

— فى وسعى أن أبحث عنه .

— حسناً ، قُمْ بذلك . وائْتنى به على عجل ، لأنى أريد أن أُسند إليه عملا أرى أنه أحق به من سواه .

— لن أتوانى فى ذلك .

وبدا سعيداً بأداء هذه الخدمة إلى ابن صديقه ورفيق صباه .

واستطرد الباشا :

— لكن اكتمْ أمر هذا عن الناس ، لئلا يتكالب علىّ الوسطاء من الطامعين فى المنصب لذويهم إذا علموا به .

— لك ذلك أيها الباشا .

ثم راح يتعجب من نقمة الرجل من غيره أمراً أتاه هو ذات يوم . على أن عجبه كان أكثر لهذه الروح الجديدة التى لمسها فيه نحو مصطفى الذى نكبه من قبل .

وكان قد لاحظ انتهاء الحديث فغمغم :

— أية خدمة أخرى يا سيدى ؟

— شكراً .

ومد له يده فصافحها وانصرف .

وعاد الباشا ينضم إلى صحبه . ولكنه لم يكد يستقر على مقعده بينهم ، حتى لمح شابا يرتدى الأسمال والشرر يقدح من عينيه ، وقد أخذ يشقُّ طريقه إليه وسط الصفوف كأنه سهمٌ مارق ، حتى إذا ما صار منه على قيد خطوات ، رفع يده بمدْيَةٍ كان ممسكا بها وحاول أن يغْـمسها فى صدره .

وذعر الرجل وتراجع إلى الوراء . وفى هذه اللحظة كان قد سارع بعض الحضور وأمسك بالشاب وانتزع المدية منه ، وبذلك نجت فريسته من موت محقق .

وتكاثر الجمهور على الجانى واعتقلوه . على حين خفَّ آخرون إلى الشرطىَّ يستدعونه . أما الباشا فلم يكد يفيق من ذهوله حتى أخذ يتفرس فى وجه قاتله ويعصر ذهنه ، كأنه يحاول أن يذكر متى رآه .

وفجأة هتف :

— أهو أنت ؟

ثم انثنى قائلا فى سره :

— لماذا يا مصطفى ؟ لقد كنتُ بسبيل أن أنصفك .

ولبث لحظة يحدق فى وجهه ، ثم التفت إلى من حوله وصاح بهم :

— دعُوه ! دعوه ! لقد سامحتُه .

ولكنّ الشرطىّ كان قد أقبل وتشبث باقتياد المذنب . واضطر الباشا إلى الإذعان بعد أن خرج الأمر من يده وانتقل إلى أيدى العدالة .

ولما كان الجندىُّ يعرف شخصية الشهود وجُلُّهم من علْية القوم ، فقد اكتفى بأن سألهم أن يوافوه إلى المخفر ، على أن يسبقهم إليه بالمتهم .

ثم قبض على مصطفى من قفاه ، وسار به وسط موكب من الصِّبْية والرعاع ، كانوا لا يفتأون يتصايحون به :

— يا قاتل ! يا قاتل !

ثم يرجمونه بالحجارة .

وكان الجندىُّ وهو يقود المتهم لا يكفُّ عن لطمه

وركله دون سبب ، والمتهم يصيح به بين وقت وآخر :

— أما تكفُّ عن ضربى ؟

فيكون جواب جلاّده لطمةً يهوى بها على وجهه ، أو ركلةً من حذائه الضخم تصيب أحشاءه .

وعندئذ لا يتمالك الفتى أن يقول له :

— لماذا تضربنى وفى البلاد قضاة هم الذين يقضون فى أمر الناس ، وشريعةٌ هى التى تحدد نوع ما ينزل بهم من عقاب ؟ هل جعلوا منك قاضياً يفصل فى أمرى ؟ وهل أباح القانونُ الضربَ عقوبة ؟ تبًّا لكم ! ما برِحتُم تذلُّون الناس حتى جعلتم منهم أمةً من عبيد .

وأخيراً ضاق الجندىُّ ذرعاً بوقاحته ، فلكمه لكمة على فكه جعلته يترنح ثم يسقط إلى الأرض فاقد الوعى .

وطرِب الدّهْماءُ لهذا المنظر ، وتعالى ضجيجهم وصياحهم ، وكأنهم حيواناتٌ استسلمت لغرائزها الأولى .

. . .

وكان الباشا قد استقلّ سيارته هو والشهود قاصدين

إلى دار الشرطة . وفى الطريق ، راح يرثى لمصير هذا الشاب . مسكين ، كم من مصائبَ لحقته بسببه ! فمن تشريدٍ جعل منه أفّاقا ، إلى تورُّطٍ فى الإجرام يوشك أن يزج به فى غياهب السجن .

وعندما بدأ التحقيق ، شرع المتهم يقصُّ الفضيحة من أولها . الفضيحةَ التى ارتكبها الباشا وأسهَم فيها عاكفٌ ثم توّجها الجندى .

وسُقِط فى يد الباشا . وما كاد يبارح المخفر ، حتى راح يبذل مساعيه لمنع تسرب هذه الفضائح إلى الصحف ، أو إلى مروّجى الأخبار الذين لا تقلُّ ألسنتهم انتشاراً عن الجرائد .

الفصل السادس عشر

عانى مختارٌ من صدّ زينات ، أكثر مما عانى من المأزق الذى وضعتْه فيه ، وتركته يبحث عبثاً عن مَخرج .

وأخذت الآلام تهدُّ فى جسده حتى أوْهَنَتْه ، فبدأ يَرَى الجوهرة المتألقة فيه .

وزادتها الأيامُ تألقاً حتى نَسِيَ هيكله ، ولم يَعُدْ يبصر غير تلك الأشعة التى كانت تتلألأ بين جنبيه ، وتنبعث من عينيه وخلال مسامّه .

وهكذا استطاع بعد أن شفّ جسمُه أن يرى روحه . فلما رآها فَهِم لغتها ، وفهم اللغة التى حدثتْه بها زيناتُ من قبل ، يوم التقيا لتعرف رأيه فى زواجه من جلفدان .

وذات ليلةٍ والسهادُ حليفه ، أحَسّ كأنما قد تفتحتْ له طاقةٌ فى السماء ، وأخذ ينسكب منها ضياءٌ باهر غَمَر

عينيه ، حتى إذا ما انتشى منه راح يبصر أشياءَ فوق ما يتصور .

وانتظر حتى أقْبل الصباح ، فهرول إلى منزل زينات . وأكبرتْ شأنه لمّا رأته وقد طوقتْه هالةٌ من نورٍ قُدْسى . ثم دَقَّ قلبها فرَحاً إذ قرأت بروحها ضميره .

وقال لها وقد خلا بها :

— زينات ! إنى سأخطب جلفدان ، ولن أندم على ذلك . لقد رأيتُ حبنا الروحانى .

وهتفت فى جذل :

— حقا ؟ وافرحتاه ! وكيف رأيته ؟

— كما وصفتِه لى . أنوارٌ وأنغام . ولا شيءَ إلا النور والنغم .

— ألمْ أقُلْ لك ؟ ومتى تخطبها إذَن ؟

— الآن إن شئتِ .

— ذلك ما أريد . فجلفدانُ على شَفا هاوية .

— ولكن . . .

— تكلم .

— ثمةَ عقبة .

— وما هى ؟

— أن أقنعها بحبى .

— لا عليك فلقد فكرتُ فى ذلك . قُلْ لها إنك تحب روحها ، وستصدّقك بسهولة . لأن أولئك الذين حُرموا جمالَ الجسد ، يدفعهم حب الذات إلى إقناع أنفسهم بأن الجسد ليس كل شىء . وهم سرعان ما يؤمنون بالنغمة التى تغرد وَفْقَ هواهم .

فاعترض قائلا :

— وإذا كانت مطلعة على حبنا ؟

— ما أحسبها مطلعة عليه . على أن تقدمك إليها كفيل بأن يزيل من نفسها كل شك . إذ ماذا يحملك على خطبتها إذا كنت بسواها مشغوفا .

— هذا إلا إذا فطنتْ إلى الدور الذى نلعبه . ومن الممكن أن تفطن إليه ، خصوصاً بعد أن علمتْ بأنكِ وقفتِ على سرها . وأحسب أنها من النبل بحيث ترفض

منا تضحية كهذِى .

— لكنها لم تعلم . فعندما كانت تهتف باسمك ، كانت نائمة ولا تدرى أنى أسمعها . وعندما كانت تناجى الصورة ، تجاهلتُ أنى رأيتها وجازت عليها الحيلة .

— حسنا . بقى أبوك . كيف أقنعه وهو يعلم ما بينى وبينك ؟

— ليس علم اليقين . إنْ هو إلا مجرد ظن سيبدده طلبك إياها . اذهبْ إذَن رعاكَ الله وأنقذها . ومثّل دورك بمهارة ، فإن أقلّ هفوة قد تفسد كل شىء .

وهَمّ بأن يذهب ، ولكنّ فهما استوقفه وهو يلقِى نظرةً على محياها الجميل . كان قد سكر بخمر جمالها . وفى ساعات النشوة ، تجذبنا أمُّنا الأرض ، حتى لو كنا فى السماء . إنما نحن صوفيُّونَ فى محَارِبنا فقط .

وأدركتْ ما توسوس له به نفسه فهتفت به :

— ما لك تتوقف ؟ امضِ فى سبيلك .

ونظر إليها فى ضراعة وهو يقول :

— رحماك يا زينات ! قبل أن نتيه فى بيداء السماء ،

ذلك العالم المُفْرغ الذى سنفتقد فى برودته لهبنا ، هذا الحب الذى هو سر الحياة ، ألا نودّع وجودنا الأرضى ؟ أنترك هذه الأرض دون أن نَنْشَقَ جانباً من عبير غبارها الممْتع ؟ آه ، ما أجمل عبير هذا الغبار ! لكأنى به يفوح وقد نفضَتْه أنداءُ الصباح ، فيبْلغ أنفى ويسْكره ! زينات ! بالله دعينى أقبّل فمك الجميل ، قبل أن أقول لهذا الفم الوداع . وأعانق قدّك المشوق قبل أن أحْرَمَهُ إلى الأبد . كيف نظمأ إلى القبلة كل هذه الأعوام ، ثم نروح بظمئنا ؟ كيف نغرس كل هاتيك الزهور ، ولا نرشق منها فى صدرنا زهرة ؟ أيكون لدينا كل تلك الغِراس ، ولا نتزود فى غربتنا منها ؟ قدّرى سنينَ الغربة المقبلة ، قدّرى الحرمانَ المؤبد ، ثم اعذرى . بالله يا زينات ، ولا تكونى على شوقنا قاسية !

وأشاحت بوجهها عنه وهى تقول :

— كلا كلا يا مختار . دعنا طاهرين . ما يجمل بنا وقد حلّقنا فى السماء ، أن نعود نتردّى فى التراب .

— لا يا زينات . ما دمنا أتينا إلى الأرض ، فيجب

أن نأخذ نصيبنا من ترابها . فإنّ فيه لَمِنْ حَرّ الشمس . وإنّ فيه لَمِنْ سِر الدَّوْرَة . فيه هذه الشُّحْنة من جهنم ، التي يحنُّ إليها دَمُنا كأنما سبق أن عاش في شياطين .

وتصورتْ جهنم . وأحستْ بلذع نارها الجميل يمشي في عروقها . فتأوهتْ وهتفت لتخفِي ما بها :

— كلا . لا أحب سَقَر . لا أحب الزبانية .

ولكنه تقدَّم نحوها وأمسك بيدها ، فكأنما لمست كفَّها جمرة . فصرخت :

— أواه ! دعني !

ولكنها لم تلبث أن تخاذلت وأسلمتْه فاها . ذلك أن تلك التي ظنت نفسها في السماء ، سرعان ما استجاب دَمُها الذي كانت ما تزال تجري فيه حرارة جهنم .

وهتفت وهو ينهال على ثغرها بالقبلات :

— رُوَيْدَكَ ! مِن أين يهبُّ هذا العطر ؟ إني أكاد أذوب فيه فارحمني .

وأجاب وهو يرفع فمه عنها :

— إنه عطر أجسامنا وهي تحترق . عطرُ هذا الصَّنْدل . فلذائذنا كامنةٌ في هذا البخور ، وليس يطلقها إلا نارٌ تشتعل فيه . لا شيءَ يا زيناتُ يعْدل أن يحترق الإنسان ، ويتحول إلى دُخانٍ معطّر . بل يقيني أننا ما خُلقْنا إلا لنحترق ، ونسكر بهذا الحريق . وإلا فعلامَ قُدَّتْ أجسامنا من نَدٍّ ؟ وعلام يجرى في عروقنا « الغاز » ؟ كل شيء فينا لإشعالها مهيّأ ، وليس ينقصنا إلا الشرارة . والشرارةُ الشرارة في تلامُس ثغرينا .

وأطرقت زيناتُ وراحت تحدّث نفسها وتقول :

— آه ، يا سحْر جهنم ! كيف السبيل إلى الخلاص منك ؟

ثم نظرت إلى جسمها وهتفت :

— وأنتَ يا صَلْصالاً من سعير ، ليت شعري كيف أُخمدك ؟

واتّقد جسدها . غير أنها استنجدت بروحها ، فما لبثتْ أن أغرقتْ نارَهُ في فَيْضٍ من نورها السحري ،

وراحت تمطره سلاماً وبرداً . فالتفتت لصاحبها وقالت له :

— حسبنا يا مختارُ ما ذقنا من حريق . لَشَدَّ ما هو فاتن ، ولكننى أرى فى الظل أمناً ودَعة . فهيا نَعُدْ إلى السلام الذى جئنا من تونا منه ، ولنحلّقْ كما كنا فى السماوات العُلا ، إذ ما ينبغى أن نَستبدل بالجنة النار . هيا يا مختارُ وانشرْ جناحيك .

وعاد يسُود لهجتها الجد ، وترتسم على وجهها مسحة القديسات . كان صراعاً عنيفاً بين الروح والجسد ، تَقارعَ فيه سيفا الزهد والرغبة ، وتبادَلا الهزيمة والانتصار .

وقال مختارٌ وهو يجاهد ليطير :

— آه ، ولكننى أخشى الهبوط . أشعر بثقل فى جناحىّ . ما تزال بنا من الأرض بقايا كدرة ، وأشكُّ فى أن الخلاص منها ميسور .

— بالتقوى سنتخلص منها . قمْ واقصدْ إلى مخدع جلفدان ، وتحقّقْ أنه لا أحدَ هنالك .

وقال وهو يجرجر قدميه ويبتعد :

— بل أمامى الكثير قبل أن أنسى هذا الجمال بل أمامى الكثير . آه ، وارحمتاه لحبنا !

ثم غاب عن نظرها .

الفصل السابع عشر

وسار مختارٌ يتحامل على نفسه . لم يكن هذه المرة يقصد إلى زينات ، ولـكن إلى جلفدان . أما زينات ، فتلك حلمٌ ومَـضَى .

ولاح له باب الحجرة التى ترقد فيها زوجته المنتظَـرة . هنا ، عند هذا الباب ، سيتخلى عن كل آماله ، كما لو لم تـكن غير ماءٍ وتسرَّب من بين أصابعه ، ثم يعود خالى الوفاض . هنا ، عند هذا الباب ، سيوارِى الترابَ شبابين ما يزالان يزخران بالحياة ، حيث يبقَـى الحبُّ الـكامن فيهما يصرخ ويشكو إلى الله قسوة القدر . فتوقَّـف فى سيره . كان يريد أن يتريث قبل أن يحفر قبره بيده ، وقبر من يهوَى .

ولـكنه لم يلبث أن تملـكته تلك العزيمة الصارمة التى تتملك المنتحر . تلك العزيمة التى لا تمهل فريستها حتى يتسرب إليها الخور . فحرك المزلاج فى عصبيةٍ ودلـف

إلى الحجرة .

ووقف لحظة يلتقط أنفاسه قبل أن يتفوه بكلمة واحدة ، كأنما قد أراد أن يجمّع ما تبدّد من قواه التى سيمثل بها أبغض الأدوار إليه ، كما يفعل الإنسان عندما يقيم إلى فمه كأساً من الدواء . ألم يكن عليه أن يتكلف دور العاشق ؟ ألم تكن كل خطوة يتقدمها فى هذا السبيل ، تُبعد الشُقة بينه وبين حبه الحقيق ؟

فلما استعاد جأشه دنا من جلفدانَ وربّتَ خدها ملاطفاً وسألها :

— كيف حالك الآن يا جلفدان ؟

كانت فى صوته نغمةٌ لم تعهدها من قبل . ولا عجبَ فقد كان المسكين يتصور زيناتَ ويتكلم . أما جلفدانُ فلم تكد تسمع هذه النغمة حتى اضطربت . ثم أجابته وهى تلهث :

— شكراً . لقد سببتُ لكم متاعبَ جمة . كم أنا خجلة من نفسى !

— كلنا فداؤك يا جلفدان .

— فدائى ؟ فدائى هذه الأرواح الغالية ؟ لا تَقُـلْ هذا يا مختار . آه ، ليتنى أموت وأدفن عارى معى ! عارَ إنسانةٍ عالةٍ على الحياة .

— تموتين ؟ وتتركينني يا جلفدان ؟

وضغط يدها ضغطةً ذات مغزى واستطرد :

— آه ، لو تعلمين ! إذَن لأبلتِ من أجلى ! جلفدان ! ألاَ أبلّى بربك !

وارتعشت جلفدان . ما هذه الكلمات الغامضة التى تُشْبِهُ حديث الحب ؟ فنظرت إليه مرتابةً وهتفت :

— من أجلك ؟ وماذا يجديك بقائى ؟

— كل ما يجدى المحب من بقاء الحبيب . جلفدان !

وخيّم صمتٌ قال بعده :

— إنى أحبك !

فشهقت ، وقالت وهى لا تصدق أذنيها :

— تحبنى ؟

— نعم أحبك . أحبكِ من عهدٍ طويل . وما كتمتُ إلا رعاية لمن فتَح لىِ بيته وائتمننى على

عرضه . فلما أصبحتُ وفى وسعى أن أنالك بالطريق الحلال ، وأحبك تحت سمع من بيده أمرك وبصره ، لم أجد حرجاً فى أن أكاشفك . إننى ما جئتُ إلا لأستأذنك قبل أن أطلبك إلى أبيك ، لا لأغرر بك .

فسألته وما تزال على ذهولها :

– وماذا تحب فىَّ ؟

– روحَك يا جلفدان . إنها نقيةٌ كأشعة النجم . حلوةٌ كافترار الندَى . عَبِقَةٌ كأنفاس الزهور .

– ولكننى لست بزهرة .

– حسبكِ أن لك عبير الأزهار .

– ولكنْ كيف تحبنى وفى البيت زهرةٌ أخرى ، جمعتْ إلى طِيب الرائحة حسْنَ المنظر ؟ كيف تحبنى وفى البيت زينات ؟

– زيناتُ كانت طفلةً لما تفتَّح قلبى ، فشبَّ وما عُلِّق أحداً فى الحياة سواك .

– ولكن . . .

– ماذا ؟

— لَطالما بدوتما كحبيبين ، فى الوقت الذى كنتَ فيه تتجنبنى .

— ذلك أنه لم يكن هناك ما يوجب الاحتشام مع طفلة . أما أنتِ فقد كان لشبابك حُرْمته التى كانت تُلزمنى بأن أغضَّ الطرف . صدِّقينى يا جلفدانُ إنى أحبك ، وإلا ما جئت أضع قلبى بين يديك . فهل تحبيننى يا جلفدان ؟ قُوليها كلمة ، أصبحْ أسعد إنسان فى الوجود ، وأذهبْ من فورى لأخطبك .

وعجبتْ لفعل الزمن . أمختارُ الذى ظلت عمرها تحبه بلا أمل ، وتخشى أن تفاتحه لئلا يردَّها خائبة ، يأتيها اليوم متوسلاً وعلى كفِّه قلبه ، ويسألها إنْ كانت تقْبله ؟ تالله إن تلك لَسعادة فوق ما تتصور ! فعادت الحياة تسرى فى أوصالها ، وخيل لها أنها تسمع دبيبها وهى تصارع فى جسدها جيوش الموت .

وهتفت وقد ابتسمتْ من قلبها لأول مرة ، مذ أَحَبَّت حبها اليائس :

— أمختار ! أتسألنى هل أحبك ، وأنا التى أتلَفها

هواكِ مِن قِدَم ؟ أتسألنى هل أُحبك ، وأنا التى عشقتك من قبل أن يعرف قلبُك الهوى ؟ سَلْ جسمى العليل يا مختار ، سلِ الموتَ الذى ينقل خُطاه فيه — ينبئك .

— وا كبِدَا لنا ! إذَن كانت الأنشودة واحدة ، ومع هذا اختلف الغصن . ولكنْ لِنفرحْ ، فلن نغرد منذ اليوم منفردين .

وفجأة بدا عليها السهوم . ثم قالت تستدرك وقد عاودتها همومها :

— ولكنْ عاكفٌ يا مختار . أما فكرتَ فى عاكف ؟

— اتركى لى أمر عاكف .

وصمت قليلا ثم استطرد :

— وبهذه المناسبة لمَ قبلتِ خطبته ؟

— قبلتُها مرغمة . أبى توسل إلىّ . ليتك تقدمت قبله ، ووفرت علىّ كل هذا الشقاء .

— على كل حال لم يفُت الأوان .

— أواثقٌ أنت ؟

— كل الثقة .

— قُلْ لِي كيف ؟ زدْني اطمئنانا .

— دعيك من هذا . ولتكنْ مفاجأة أُعدُّها لك .

— رباه ! إنى خائفة .

— لا تخافى شيئا .

— يا حبيبي !

وراحت تنظر إليه فى صبْوة . أما هو فقد أرهف أذنيه وقتاً ثم قال :

— وهذا والدك أقْبل . إنى أسمع صوته فى الدهليز . إذَن حان الوقت لأفاتحه . يا لهـا من لحظة حاسمة فى حياتنا !

وخرج .

وقالت وهى تتبعه بنظرها إلى الباب :

— وفقك الله !

ثم دفنت وجهها فى الوسادة وجعلت تبكى . وكانت هذه الدموع بمثابة تصفية لما بقى من آلامها .

وما إنْ غسلت بالبكاء أكدار الماضى ، حتى استردت عافيتها ، فاستطاعت أن تنهض من السرير بعد أن لازمته أسابيع . وكان أول ما تجهت إليه المرآة . فلما نظرت إليها خيل لها أنها غدت جميلة ، وأحبت نفسها لأول مرة فى حياتها . لله ما أعجب فعْل الحب ! يردُّ الروح المسلوبة ! ويبدِّل العينَ غير العين !

. . .

وألفى مختارٌ زينباتَ بالباب وهو خارج . وكانت قد قدمت لتطمئن على نجاحه فى مهمته . لمْ تلتقِ نظراتهما على ضَنًى كما التقت وقتئذ . ذلك أن لقاءهما هذه المرة كان وأملُهما فى النزع .

ولم تزد الفتاة على أن هزت رأسها مستفسرة . فأجابها الفتى فى اقتضاب :

— كل شىء تمّ كما ينبغى . وهأنذا ذاهبٌ للقاء أبيها .

وتركها ومضى إلى عمه والعبرات تخنقه . يا لسخرية القدَر ! منذ أعوام وهو يتوق إلى هذا اللقاء الذى يطلب

فيه إلى عمه يدَ ابنته . وها هو ذا يذهب إليه الآن لهذا الشأن ، ولكنْ أية الابنتين ذهب ليطلب ؟

. . .

وقابل مختارٌ الباشا ، وكانت عنده شريفةُ هانم . ولا تَسَل عن دهشتهما عندما ألفياه جاء يخطب جلفدان . فإن مختاراً عندما فاتح عمه قائلاً : « إنى جئتك خاطباً . . . » ، لم يشكَّ الرجلُ وزوجته فى أن العروس زينات ، ونطقا فى سرهما بالاسم . أما الآن وقد اتضح أن العروس أختها ، فإنهما ليكذّبان أذنيهما ويراجعانه فيما قال لعله أخطأ . فلما تثبتا من حقيقة من يقصدها الفتى ، سقط فكاهما من الدهشة .

وكان أولَ ما انتابهما شعورٌ بالندم . لكم ظنّا الظنون بمختارٍ وزينات ، وها هما ذان يتضح أنهما بريئان . وإذَن فلقد ظلماهما . وإذَن فإن بعض الظن إثم .

ومضيا يسْخران من نفسهما . فإن ذلك الإشكال الذى بَلْبَل فكرهما حينا من الزمن ، وحاد بالباشا عن الصواب فى تصريف شئون منصبه ، لم يكن إلا محض وَهْم .

ثم انتقل بهما الفكر إلى عاكف . فقال الباشا مخاطبا ابن أخيه :

— ولكنْ جلفدانُ خُطبت يا مختار . خُطبت لعاكف . وأنت تعلم ذلك .

— نعم ، ولكنها لا تحبه . ومن أجل هذا مرضت وأضحت حياتها فى خطر .

وسنَح للباشا خاطرٌ قطَّب له جبينه فقال :

— وهل تقدمتَ لتنقذها ؟

— بل لأنى أحبها .

وهنا سُرِّىَ عن الرجل . إذَن فمختارٌ يحبها حقا ، وليست فى الأمر تلك التضحية المخيفة . إلا أنه عاد يسأله :

— ولماذا لم تتقدم إليها من قبل ؟

— كان ذلك فى نيتى ، ولكننى فوجئت بسواى .

— ولِمَ سكتَّ حتى الآن ، ولم تطلب تغيير الموقف عقب الخطبة ؟

— كان علىّ أن أتردد كثيراً قبل أن أقدم على ذلك ، لأن فسخ خطبة ليس بالأمر الهين .

— وما رأى جلفدان ؟ هل استطلعتَ رأيها ؟

— اغفرْ لي أنني استأذنتُها قبل أن أجيئك ، لأنه ما كان لِيسُوغ لِي أن آتيك طالباً مكان سواى ، إلا إذا كان سندى معى . ولكننى أقسم لك يا عماه إن كلينا لم يكاشف صاحبه بحبٍّ قبل الآن .

ولم يلقِ الباشا بالاً هذه المرة لاجتراء مختارٍ على خرق التقاليد المحافظة التى درجت عليها الأسرة . لقد كانت ابنته تموت ، فهل يلوم امرءاً جاء ينقذها كيفما كانت الوسيلة التى سلكها لذلك ؟

وسألت شريفةُ هانم مختارا :

— وهل قبلتْ جلفدان ؟

— أجل ، وكان سرورها عظيما . بل فوق الوصف . إنها وإنْ لم يسبق أن أبدت لِي حبها ، لمْ يخفَ عنى ميلها لى .

وابتسمت السيدة . الآن فقط ، أدركتْ سر رفض جلفدانَ لعاكفٍ أول الأمر . أما الباشا فقد كان بادى التفكير . ثم لمَّ يلبث أن نظر لمختارٍ وقال :

— ولكنْ ما العمل وقد ارتبطتُ مع عاكف ؟

— أوَليست سعادة جلفدانَ فوق كل اعتبار ؟

وأطرق الباشا وراح يحدث نفسه :

— لقد أصاب الفتى كبد الحقيقة . وفوق ذلك فإن عاكفاً يسره بلا ريب أن أتحلل من وعدى معه . ألم يخطب جلفدانَ لغرض فى نفسه ؟ فما حاجته إليها إذَن بعد أن نال مآربه ؟ يبدو لى أنه لا ضرورة حتى لاستئذانه فى فسخ الخطبة . ومن جهة أخرى ففى وسعه أن يتزوج زينات وبذلك يربح فوق الوظيفة زوجةً من أجمل بنات حواء . كما يتاح لى أنا تزويج الابنتين ، وأكون قد صِدْتُ عصفورين بحجر واحد . كل شىء يسير على ما يرام ، ولا عُقَدَ ألبتَّةَ فى الموضوع . ولكنّ المهم هو أن تبلّ جلفدانُ من مرضها لتنعم بهذا الزواج ، وأقرّ عينا بها . فهل تبلّ منه ؟ ألا لَيْتها !

فرفع وجهه إلى مختارٍ وقال :

— ولكن ما رأيك فى صحة جلفدان ؟ هل هناك أمل فى إبلالها ؟ يبدو أن التحقق من هذا واجب قبل

الإقدام على أى شىء .

— الأمل كبير يا عماه . إن مرضها نفسانى ، وسيزول بزوال العقدة التى سببته ، والتى هى فيما أعتقد زواجها ممن لا ترغب فيه ، وحرمانها من تحب . بل إن أغلبه قد زال مذ صارحتُها بما يكفل تحقيق أمنيتها ، والقليل الباقى سيزول عندما تتم الخطبة إن شاء الله .

وهنا هتفت شريفةُ هانم :

— حقا ؟ إن هذه لبشرى عظيمة .

ثم نظرت إلى زوجها وكأنما تقول له : اقْبلْ .

أما الباشا فراح يقول :

— حسنا يا بنىّ . ولكنّ الكياسة مازالت تقضى علىّ أن أستشير الفتاة قبل أن أقبل طلبك ، إذ المفروض أننى لا أعلم أنك جئتنى بموافقتها .

وعضّ مختارٌ على شفته . كانت هذه الملاحظة بمثابة توبيخ خفىّ موجه له من عمه ، على أنه تهجم سرًّا على قلب ابنته . لكنما رفّه عنه أنه كان مجرد عتاب رقيق لا أثر للسخط فيه .

فأجاب :

— بالطبع يا عماه .

— إذَن ابقَ هنا حتى أعود .

والتفت إلى زوجته وأومأ إليها أن تصحبه . ثم قصدا معاً إلى مخدع جلفدان .

. . .

وكان طبيعيا أن تقْبل جلفدان . وكان أن انطلقت الزغاريد فى البيت احتفاءً بأملها الوليد ، فى الوقت الذى كانت فيه زينات ُ ومختار ٌ يسيران فى جنازة أملهما . وما بالعجيب أن يجتمع فى وقتٍ واحدٍ ميلادٌ وموت ، فتلك سنَّـة الحياة من قديم . وإن الزهرة لَينفرط على الأرض عقْـدها ، فـيَنبت من بقاياها زهرٌ جديد .

. . .

يا لَتدابير القدر ! من كان يظن ، أن الهناء الذى هيأَت الطبيعةُ سببه للمحبيْن عما وهبتْـهما من جمال ، سيكون فى النهاية من نصيب شخص آخرَ خُـلِق محروما ؟

فهل من لطف القدر بالمحرومين ، أنه عندما يضن عليهم بالسعادة ، يغدق النبلَ على بعض من خصَّهم بها ، ثم يسخِّرهم ليتخلوا لهم عنها راضين ؟

ولكنْ ماذا يفعل هذا القدَر بعدئذ من أجل أولئك الأسخياء ؟ وهل من الممكن أن تكون لذة البذل وما تبعثه فى الضمير من راحة ، هى الجزاء الحسن الذى يعوضهم خيراً عما بَذلوا ؟

. . .

وكما خلَّف حادثُ هذه الخطبة فى منزل رمزىّ باشا سعداءَ وشَقيَّيْن ، خلَّف فى بيت جارها أيضاً سعيداً وشقية . ذلك أن نبأها لم يكد يبلُغ محرزاً وشقيقته ، حتى تجدد للأول أمله فى زينات ، ونفضت درية يدها من مختارٍ وراحت تبكى .

الفصل الثامن عشر

لم تكد تتم خِطبة جلفدان ، حتى هرعت زينات إليها تغمرها بالقبل وتقول :

— تهنئتى لك يا جلفدان ! كم أود ، لو يومَ المنى نسجتُ من أهدابى ثوبك ! وجعلتُ من إنسان عينى خاتمك ! ثم أُوقِدُ قلبى بَدَلَ الشموع ، وأزفك على نوره ! وأُطْلق عصافير خواطرى لتزغرد لك !

وأجابتها جلفدان :

— شكراً يا أختى ! وأنا كم أود لو ليلةَ عرسك ، حُكْتُ ثوبك من أجنحة الفَرَاش ! وقَبَسْتُ من خفْق النجوم جواهرك ! ثم أحشد من الطواويس صفَّين لتكون وصيفاتٍ لك ! ومن البلابل قَيْنَات تزفك !

وكأنما هاجت هذه الجملة شجنَ زينات ، فلم تكد تَسمعها حتى أحست ببحارٍ من الدمع تتجمع فى مآقيها

وتوشك أن تفيض . فانسلّت من بين القوم وذهبت تذرفها وحدها فى صمت وهى تقول :

— لَعَمْرُكِ قد نشدتِ المستحيل يا جلفدان ، قد نشدتِ المستحيل . إذ كيف أتزوج وقد وهبتُك زوجى ، أو أهنأ وقد نزلتُ عن هنائى لك ؟ لك ربُّكِ يا زينات ! تالله لقد بذلتِ فوق الذى ينبغى ، وجُدتِ بما ليس يسمح به الجود !

واتفق أن دخل مختارٌ الحجرة التى خلت فيها بنفسها ، فما إن رأته حتى تلقّتْه ملتاعةً وهى تهتف :

— مختار ! هل انقضى كل شىء ؟ وأصبحتَ حراماً على زينةَ وزينةُ حراماً عليك ؟ ولكن لِمَ أقول زينة ؟ إنك لن تدللنى بَعْد . ولا عدتُ أناديكَ : حبيبى ! واحسرتاه ! كان يجب أن نغرس هذا الزهر فى حياتنا . ونُوقد لزفافنا هذه الشموع . أليس كذلك يا مختار ؟ تكلّم . من كان يظن ، أن الهوى يعطفنا فتأبى التضحية ؟ من كان يظن ، أنه يشرينا فنبيعه بيْع السماح ؟ وأنك لا عن سلُوٍّ تهجرنى ، وأننى لا عن

ملال أهجركِ ؟ وتتخلى عنى وقد أحببتَنى ، وأبْذُلك يا من أُحِب باليمين ؟ مختار ! يا أعزّ مَنْ فى الوجود ! ويا حُلْماً مضَى فما يعود ! — تكلّمْ .

وأخذ مختارٌ يرفه عنها ، ولكنه اضطر إلى أن يخرج عندما سمع وقع أقدام تقترب ، تاركاً إياها مستسلمة للبكاء .

لم يكن من السهل أن تتخلى عن أمل العمر فى لحظة ، ولا أن تصبّ الماء البارد على شبابها فتطفئه ، وهى التى ذاقت من توها حلاوة الاحتراق على ناره ، عندما أذكتها قُبَلُ مختارٍ ساعةَ ودّعها ليخطب أختها .

وإنها إذ تذْكر الآن هذه القبل ، لَتذكر الشرارةَ المقدسة التى التمعت على فمها عندما لمسته شفتاه ، وذلك البخور المسْكر الذى راح يفوح منه وهو يحترق تحتها ، فتذوب هى فى عطره ذلك الذوبان اللذيذ .

لقد كانت تتعلل بذلك الحب الروحانى ، وحسبتْ أنها تستطيع أن تظفر به وتَلقَى السلام فى نوره الهادئ ، حيث لا نارَ تَلِحُّ وتُبدِى رغَبات ، وفاتَها أنَّ الإنسان قطعةٌ من جهنم ، وهذا دمُه يجرى بِوَقْدها

فيه ، ويُثْبت أننا كنا أبالسةً هناك . فلما أدركت ذلك كفرَتْ بالروح ، وآمنت بجهنمَ وبالزبانية ، وودت لو تشعلها حاميةً فى دمائها وتجلس تحترق على لهبها وتتأوه .

فلم تتمالك أن هتفت فى جنون :

— مختار ! تعالَ وأضرمْها جهنميةً فى دمائى ، ودَعْ فؤادى يحترق على لهبها ، ويصعّد ذلك البخور الذى أذوب فى عطره ! تعالَ تعالَ يا مختار ! كيف نؤمن بالسماء وفى أعماقنا هذا الجحيم ؟ تعالَ نتطهرْ على ناره أولاً ثم نرقَى إليها فى دُخَان ، مخلّفين الرماد تحتنا .

ولكنّ مختاراً لم يحضر . وهو لن يحضر أبداً ليقبّلها . لقد أضحَى فمه الجميل حراماً عليها إلى الأبد . بل إن كل فمٍ قد أضحَى عليها حراماً مذ وَهبتْ نفسها لحبه . وما هى ممن ينقضون العهد ، ولا هى بالتى فى وسعها أن تنقضه ، وهذا هواه يسد عليها السبل ، ويجعلها تزهد فى كل زوج سواه . ومن ثم فستعيش هذه الزهرة منزوية . لا يدَ تمتد لقطفها ، ولا أنفَ ينْشَقُ عطرها الجميل . وتظل هكذا إلى أن تذبل وحدها .

وضاقت بها الدنيا فلاذت بذكريات الهناء ، أيامَ كانت تجلس مع مختارٍ طفلة ، يضعان أحجار الأساس فى قصور الأمل . وأيام عاد من أوربا فعكفا على بناء طبقاتها الشاهقة . وأيام خطب عا كفُ جلفدانَ فتمَّ صرحها وأوشكا أن يَلِجا حجراتها ويقيما فيها ، وإذا بها فجأة تنهار ، فلا يبقى منها إلا هذا الغبار الخانق . فكأنما آخرةُ تشييد الأمل أن ينهدم على رأس بانيه ! وخاتمةُ أيام الرجاء أن نُشْنَق فى حبال ذكراها !

ذكرت هذا فأدركتْ أن هذه السعادة شىءٌ ضنين . فهى أبداً فرْحةٌ لا تتم . وعلى من يطلبها أن يقنع بالقليل الذى يتحقق منها فقط . وحتى هذا القليل ، يظل وهو بين أيدينا غير منظور ، فلا نستطيع أن نراه لنكحل أعيننا به ، حتى إذا ما حان وقت ذهابه ، صاغ له أجنحةً من نورٍ وطار بها إلى أصقاعٍ مجهولة ، وعندئذ نبصره وهو يبتعد ، ونشيِّع قلوبنا فى أثره من كَلَفٍ به ، حيث لا عودةَ لها بَعده تُرْجَى .

ذلك أن زينبَ أيام كانت تَنْعم بالهوى ، شاء الهناءُ

أن لا يُريها نفسه كعادته ، فعاشت وهى ترتاب فى وجوده ، وفوّتت الشكُّ عليها لَذاذَته . وإنها إذ تدرك الآن ذلك بعد انتهاء كل شىء ، لتتمنى أن يعود بها الزمانُ إلى الوراء أياما ، لتحيا ساعةً فى هذا الماضى الجميل وهى مؤمنة به ، وتحقّق منه بالإيمان ما فوّته عليها الشك من قبل . ولكن أنّى لها ذلك والزمان لا يرجع إلى الخلف ، ويأبى أن يردّنا إلى العهود التى أسعدتْنا ولو لنقيم فى ربوعها لحظة . فهل تلك شيمة السعادة ؟ تعْمينا عنها وهى بين أيدينا ، حتى إذا ما فارقتْ فتّحت أعيننا فى أثرها لتملأنا حسرة ؟ ثم جدّت فى السير وهى لا تفتأ تُزْجى لنا تلويحَ الوداع ، وفى كل خطوةٍ تنْقلها تَخطف جانباً من قلوبنا ؟

وبدا لها أن تتفلسف . وخُيّل لها أنها تستطيع بهذه الفلسفة أن تصرّف آلامها . وهكذا لا يخلّص المُوجَعَ من همومه كتصعيدها فى فِكَرٍ عظيمة . فكأن من فضل الهموم على الإنسان أنها تتسامى به إذا أراد . فراحت تناجى السعادة التى ذاقت طعمها ذات

يوم وتقول :

— أيتها السعادة بماذا أشبهك ؟ أبأصابع ذهبية تتنقل على أوتار قلوبنا وتجتذب نغمها الحبيس ؟ أم بنسيم رقيق يهز أوراقها وينفض ما حوت من عبق ؟ إن كنت هذا فنحن لولاك أغنية ميتة ، وأكمام مغلقة على سرها بدونك . وهيهات من غيرك أن نلمس ذواتنا ، أو نستدل على أرواحنا التائهة فى مغاور القلب !

أم أشبهك بفجر يشرق على أحلامنا فيشتت ضبابها فى قطر نحتسيه ؟ أو حريق مسكر يشب فى قصور أمانينا فيحولها إلى بخور يضمخنا ؟ إن كنت هذا فلأنت عطر المنى وعصير زهر الأحلام . وفصل الخطاب إذا طال الحديث ، ولحظة الاستقرار لشوق معذب . ولولاك لعشنا فى أكاذيب الأمل إلى أن نموت بظمئنا .

أم بالفراديس الموعودة تراءت لنا عبر نظراتنا الوامضة ببريق النشوة ؟ أو طافية على بحور النور التى

تنفجر عنها بسماتنا ؟ أو راقصة في ذوب دمعة فرح رجراجة نذرفها ؟ إن كنت هذا فلا بد أنك شيء مقدس ، يهبط علينا من الخلد ولا يمت لدنيانا بسبب . فيرينا من مآب أرواحنا لمحات ، أو من مهود طفولتها الغالية .

أم بسرب من الطير المجنح يطير من عشه القائم على فنن الفؤاد ، وقد زف في موكبه الفخم أرواحنا ، مركباً إياها مركبات من أجنحته المنشورة ، عازفاً لها من زقزقته الألحان ؟ إن كنت هذا فلماذا تمضين كالعصافير مسرعة ، وقد اختزلت في ركابك الساعات إلى دقائق ؟ فإذا أقمت نخال عامك يوماً ، وإذا رحلت نخال يومك عاما ؟

أم زورق أنت أقل المنى ثم أغرق نفسه في أعماقنا المجهولة ، ومضى يسبح في القاع بعيداً عن عيوننا فما نحس منه إلا دبيبه ، حتى إذا ما أتم رحلته طفا على لجج الذكريات ، فنراه ولكن في البحار النائية ، التي تفصل بيننا وبينها عوالم الزمن ؟ إن كنت هذا فلم

لا تزورين إلا ملثَّمة ، فنخال كذباً ما نحن فيه ، وتُسفرين إذا رحلتِ فما نشكُّ في رحيلك ؟ فإذا رشفْنا كأس الهناء ففي أفواهنا مرضٌ ، فإن كانت شجّى صحّت فذاقت علْقمه ؟

أيتها السعادة ! وددتُ وإن فات الأوان ، لو بدّل التخفّي ثمّ عنك سفورك ! إذن لانتبهنا لمزارٍ لن يطول ، ولا يكون في العمر إلا مرة . واهاً لنا ! كلنا كنا سعداء يوماً ، ولكننا لم نفطن لهذا إلا في أيام الشقاء . فيا ليتنا كنا فطنّا له في حينه ، يا ليتنا !

. . .

وأفاقت من هذه الهواجس على صوت أبيها يدخل حجرتها ويناديها . وبعد أن طبع قبلة على جبينها البلّوري ، دعاها للجلوس إلى جواره وبدأ يتكلم قال :

— أهنئك بأختك يا زينات . العقْبى لك إن شاء الله .

— شكراً يا أبي .

— لم يكن بُدٌّ بعد أن علمتُ بما بينهما من حب ،

من أن أفسخ خطبتها لعاكف وأعطيها لمختار ، لأجمع الحبيب على الحبيب ، ولئلا أكون قد عملت على جرح قلبين بريئين .

— خيراً فعلتَ يا أبى .

وسكت قليلا ثم استطرد :

— والآن يدور بخلدى وقد أصبح عاكفٌ فى حلٍّ من جلفدان ، أن أهديه أثمن هدية فى الوجود ، وهى زينات أو زينةُ بنات جنسها . ولكنْ كان علىّ أن أستشيرك قبل أن ألمّح له بهذا العرض ، حتى لا أكون قد حنثتُ معه فى كلمتى مرتين إذا بدا لك أن ترفضى . فما قولك فى هذا يا ابنتى ؟

ودارت الدنيا بزينات . ما للأقدار وما لها ؟ أبعدَ أن ضحت فى حبها بكل شىء ، تراودها على التنكُّر له ، والغدر بمختارٍ الذى قدَّم نفسه قرباناً لأختها ؟ أبعدَ أن نذرتْ نفسَها للزهد ، تريد أن تنتزعها من سمائها العالية ، لتلقِى بها فى جحيم الحياة مرة أخرى ؟ حقيقة أن هذا الجحيم جميل ، وبردٌ ناره وسلام ، ولكنه لا يطاق فى

أحضانٍ غير أحضان مختار . لقد كان جحيما واحداً ذلك الذى أحبته ، وما ترضى أن تـكتوى بسواه وإنْ عزَّت عليها الآن ناره . وكان وهْماً واحداً ذلك الذى تفتَّح له قلبها طفلة ، وإنها لتفضِّل أن تغمضه عليه بدلاً من أن تفتحه لغيره فيهرب ، ما دام قد كان فيه حلاوة الخيط الأول من الشعاع ، الذى شعرتْ تحته بجمال الصحوة الأولى ، تلك الصحوة التى تطْرب لها البراعم عندما تتمزق عنها الأكمام فى البكور ، وتستقبل أوراقُها الضوء لأول مرة ، فتأخذ ترتعش وتتبسَّم . فلم تملك إلا أن رفعت وجهها إلى أبيها وهتفت :

— كلا يا أبتِ . إنى أرفض .

— ولماذا يا ابنتى ؟ ألا يروقك عاكف ؟

— لا أشعر نحوه بأقل ميْل يا أبى .

— ولكنه جذاب ، وستميلين إليه حتما بمجرد أن يشتغل فكرك به .

— الحب يأتى أولاً ثم يشتغل الفكر ، وليس العكس .

وأرادت أن تقطع عليه خط الرجعة فاستطردت :

— ومع هذا فثمة سبب أقْوى يمنعنى من قبوله ، ذلك أنه كان خاطِبَ أختى .

— ولكنّ علاقتهما قد انتهت .

— انتهت ولكنّ عبيرها سيظل فى ثيابه . إنى لأشعر بأن أختى ستكون معنا كلما جمعتْنا خلوة .

— لعمرى ذاك وهْم .

— ليكن ، فبعض الأوهام لا سبيل إلى التحرر منها . كلا يا أبى . أعفنى من هذه الخطبة . أعفنى أتوسل إليك .

ولم يُجْدِ معها إقناع أبيها . فلما أصرت على الرفض تركها ومضى . ولكنه لم ييأسَ كثيرا على ضياع هذه الفرصة . فإن زينباتَ شابة وجميلة ، وما يزال الأمل فسيحاً أمامها ، خصوصاً بعد أن زالت من طريقها جلفدان . وفوق ذلك فإن عاكفاً الذى داسَ قلبَه ليطعم فمه ، ليس بالزوج الذى يؤسف على ضياعه .

لكن ماذا يقول له ؟ ذلك ما بقى يحيره . غير أن

نجدةً هبطت عليه من السماء . إذ أتته أنباء بأن الفتى قد تَعَشَّق راقصة من النَّوَر ، وصار يشاهَد معها علناً فى شوارع المدينة وحاناتها . فوجد فى ذلك سبباً يتذرع به للتخلص منه ، وحمد الله على أن هذه المصاهرة لم تتم . ولم يفتْه أن أدرك أن زواج المنفعة وخيم العاقبة .

وعندما قابل عا كفاً فى اليوم التالى ، واجهه بما بلغه عنه ، ثم شفع ذلك بإعلانه بفسخ الخطبة . وطار الفتى فرحاً فى قلبه بهذه البشرى التى لم تكن له على بال ، وإن راح يتصنع الأسف .

الفصل التاسع عشر

لم يكد مختارٌ يدخل بجلفدان ، حتى شعر كأنما قد أُلْـقِيَ به فى جُبٍّ . ظـلامٌ مُدْلَـهِمٌّ وجوٌّ خانق ، وميـاهٌ آسنةٌ هى السمُّ البطىء . وبَعْدُ ألَمْ تَـقبض سحنتُـها قلبه ، وتخنقْـه أنفاسُها ؟ ألم تكن كل قبلة يضطر إلى أخذها منهـا ، بمثابة جرعةٍ من جوهرٍ سامٍّ ؟

فلا عجبَ إذَن إذا بدا المسكين أتعس أهل الأرض . ولا عجبَ إذا تقدمتْ به الأيام إلى الشيخوخة مسرعةَ الخُطَـا . ألم يكن تلك الزهرة التى نُقلتْ من أرضها الخصبة إلى أرضٍ مجْدبة ، وبُدِّلَتْ عن نسَمات الصَّبا رياحَ السموم ؟ فلِمَ إذَن لا تذبل ؟ ولِمَ لا تصفَرّ ؟

ومع ذلك فقد كان كريماً معها . فلمْ يشعرها مرة واحدة بتلك المرارة التى كانت تُمِـضُّ فمه عقب كل ملعقة يتعاطاها من شرابها الكريه . ولـكنه كان كلما

تعاطَى منه جرعة ، خلا بنفسه ومجَّها فى تلك الزفرات العنيفة التى كانت تكاد تُزهق روحه ، ثم راح يغسل فمه بكأس من نور ذلك الحب الروحانىّ الذى كان ما يزال يسْبح فى فيْضه مع زينات . فكانت هذه الكأس ومثيلاتها ، هى العزاء الوحيد الذى بقى له فى محنته ، بالرغم مما كانت تحمل إلى قلبه من تبريح ، لأنها تَهيج الشوق ولا تروى الظمأ .

. . .

أما زيناتُ فقد نشب الصراع عنيفا بينها وبين الحياة . هى تود أن تتحصن منها خلف أسوار الزهد ، لتفرغ إلى نشاطها الروحىّ الذى حبَستْ نفسها عليه وعلقتْها بأنها ستلقَى السلام فى كنفه ، وتأبى الحياةُ بما لها من بطش إلا أن تحطم هذه الأسوار ، ثم تَمْثُل أمامها وتذكّرها بنفسها . فكانت كلما جَمَعتْ بالنسيان طبقةً من الرماد على قلبها المشبوب ، هبَّت نسْمةٌ من نَسمات الحياة فاجتاحتها ، وتركتْ ناره تندلع بين ضلوعها .

فشعرت بأن الحياة عدوٌّ لدود لها ، وودت لو لاذت

منها بالفرار واعتصمت بغارٍ قَصِيٍّ ، منقوبٍ فى صخرة منقطعة وسط الصحارى ، بعيداً عن ضجيج الحياة ووسوستها . وراقتها الفكرة ، فتصورت نفسها تخلع حليها وملابسها الحرير ، وترتدى مسوح الزاهدات ، ثم تضرب فى الفياق متجهةً صَوْبَ هذا الغار ، وقد أخذتْ تستمع لوقع قدميها وهما تتنقلان فوق الحصا ، وتصغى لضربات عصاها وهى تصطدم بالأحجار .

ولكنها لم تلبث أن هزت رأسها أسفا ، إذ أنَّى لها أن تفوز بذلك ، وهذا أبوها لا بد واقفٌ فى وجهها يذود عن حبه لها الذى لا شك سيصْدعه مثل هذا الفراق ، وعن تقاليد أسرته العريقة التى لا تسمح لبناتها بالإقامة بعيدا عن حياضها . كما أنها لن تجد سبباً تعلل به مسلكها أمام القوم ، إلا إذا صارحتهم بالحقيقة ، وفى هذا ما فيه من إيلامٍ لهم ، وإفسادٍ للحياة على جلفدان .

فلما أعيتها الحيل ، لم تجدْ بدًّا من أن حَولتْ مخدعها إلى معبدٍ صغير ، وأقامت من نفسها ناسكةً تصلّى فيه . وفى هذا المعبد الذى كان يَعْبق بشذى

البخور ، ويعجُ بأطياف الملائكة الأبرار ، اعتزلتْ زيناتُ الدنيا ، وانقطعتْ لعبادة الله ومناجاة مختار .

ولكنْ هل كانت الحياة تترك قلبها دون مناوشة ؟ كلا ، فكثيراً ما كانت هذه الحياة تنسلُ إلى معبدها فتشتّت البخور السابح فيه ، وتطرد الملائكة القائمين للصلاة فى محرابه ، ثم تحوّله إلى مسرحٍ للشياطين يصخب بالنار . النارِ التى أحبتها يوما ما ، ولاذت بمعبدها لتنجوَ من سحرها .

فكانت كلما وافى ربيعٌ جديدٌ فعطَّر الجوَّ بشذَى الأزهار ، أو تناهتْ إليها من النافذة نغماتُ قيثارة تَعزف فى سكون الليل ، ذكرَتْ الماضى الذى حرصتْ على نسيانه ، فتقوم قيامةُ شبابها عليها ، وتَهيج فى معبدها الصغير كمجنونة ، وهى تهتف فى سرها :

— مختار ! تعالَ أحرقْ بخورى ! يا ما أُحَيْلَى النار ! تمتّعنا بالدفء الجميل ، وتنْفض عبيرنا فى دُخَان ! ولولاها لعشنا فى زمهرير ، ولَمَا نشقْنا أبداً عطرنا !

فإذ لا يوافيها تستطرد :

— مختار ! أىْ حبيبى ! لِمَ لا تَردُّ علىّ ؟ ما كان هذا عهدى بك . أىُّ أمرٍ لَعَمْرُكَ باعَدَ بيننا ، والنوى ليس فى شرع الغرام ؟ كنا وكان الهوى ، كفَرِدَيْنِ حواهما غصن ، فأىُّ ريحٍ هبَّت فقصَفتْ عُوده ، وألقت بكلٍّ فى مكان ؟

وإذ لا يجيبها تستمر :

— أمختار ! لِمَ ذبلتْ فى كفنا الأزهار التى جمَعناها ، ولمّا تغربْ عليها الشمس ؟ لِمَ ماتت على ثقوب نايِنا الأنغام ، ولمّا نأتِ على آخر الأغنيَة ؟ لِمَ جفَّ بنا الغدير ولمْ نعْبره بَعْدُ إلى الضفة الأخرى ؟ وهوى علينا قَصْرُ الأمل ، وما احتوتْنا حُجُراته ليلة ؟ لِمَ فَنِىَ كل شىء فى أيدينا وحوْلنا ؟ لِمَ أينما سرْنا نجِدْ ما كان عامراً فناء ؟

ثم تقول كمن تشكو إلى الله :

— رباه ! هل نموت ، ويَخمد اللهب الذى أذكيناه ، قبل أن ننْعم بالاحتراق عليه ؟ هل نموت ، نموت ، وعطْرنا فينا دفين ، لا أنفَ ينْشقه ولا جسدَ يضمَّخ به ؟

يا ليت أنّـا إذَن لم نُذكِ اللهب ، ولم ندرِ ما لذة التأوه فوقه ! يا ليت أنّـا خُلقنا بدَلَ النّدّ من رماد ! أى ثأرٍ كان بيننا وبين الأقدار ، حتى راحت منا تنتقم ؟ لمَ بتنا وكأننا نـكفّرِ ، ولا ذنبَ لىِ إلا أنه سَحرنى ، ولا له إلا أننى تيّمْتُـه ؟

وتظل تندب حظها العاثر ، وتنادى مختاراً ومختارٌ لا يجيب ، إلى أن يُبَحّ صوتها فتذعن للأمر الواقع ، وتلوذ بالبكاء الذى هو آخر أسلحة الضعيف . فما إن تذيب فى الدمع السخين آلامها ، حتى تغمرها الطمأنينة من جديد ، فترْحل الشياطينُ عن معبدها وتُفسح مكاناً للملائكة ، ويعود جوُّه يعْبق بالبخور ، وتعود هى قائمةً تصلى فيه . وهكذا كانت كلما أبى عليها القدر أن تتطهر فى مِبْخرة اللذة ، راحت تتطهر فى بوتقة الألم . وشتّان بين احتراقٍ واحتراق ، وإن لم يختلف المصير .

ولما كان من المستحيل أن تشفّ فى احتراقٍ واحد ، وهذا شبابها يغذيها بالوقود على الدوام ، فقد كانت كلما التهمت النيرانُ جانباً منه ، قفز مكانَه غيرُه ، فى انتظار

الشرارة التي تبعثها إليه الحياة مع نغمةٍ حلوة أو عطرٍ ذكي ، فتشعل فيه الحب وتكويها من جديد . وهكذا طال تعذيبها ، وخلّدها شبابها في النار .

. . .

وكان مختارٌ يتردد في الفترات على منزل عمه مصطحبا زوجته . فكان ما يكاد يجتمع بزينات ، حتى يضطرمَ في قلبيهما جوى حبهما القديم ، ويتشوّفا إلى خلوة يؤديان فيها للشوق ما وجب ، ولكنهما ما يكادان يذْكران جلفدان ، وأنّ لها حرمةً ما ينبغي أن تستباح ، حتى تنسلّ هذه النار هاربةً وكأنها خجلتْ من نفسها ، ثم يحلّ محلها شعورٌ من الورَع هادىءُ القرار ، يَرى كلٌّ منهما الآخر خلاله كما لو كان تمثالَ قدّيسٍ من القديسين ، يود لو يفنَى بروحه فيه ويغوص في بركاته ، دون أن يشعر نحوه بذلك الجوى الذي يشعر به العاشق .

ولكنّ هذا التعفف الظاهريّ لم يكن ليطفىء الجذوة المتقدة في الأعماق ، والتي تفعل فعلها في الخفاء كما يفعل السم ، ومن وقتٍ لآخرَ يتألب لهبها الكظيم ويشتعل

حامياً فى ضلوعهما ، فإذا بتمثال القديس يَخلع مُسوحه ويبدّل شبَهه ، فيبدو فى عين مختارٍ فى جمال « فينوس » ، وفى عين زينات َ فى سحر « يوسف » ، وإذا بكليهما يتمنى لو ذاب صبابةً فى صاحبه .

ولقد حدث مرة أن ألفى العاشقان نفسَهما فى خلوة ، فغلى الدمُ المكبوت فى عروق مختارٍ فجأة ، وراح ينظر إلى زينات َ نظرة كلها ظمأ ويقول :

— كيف يغدو جمالك حراماً علىّ وقد حلّله لىَ الحب ؟

وانقضّ عليها يود لثمها . وإذا بقوَى المسكينة تخور وتوشك أن تستجيب للغزَل ، لولا أنهما ما لبثا أن ذكَرا جلفدان ، فتردد العاشقُ وأجفلت العاشقة ، وتركته يلوم نفسه على تلك الحماقة التى أوشكت أن توقعهما فى معصية .

وهكذا أيقنَت الضحيتان أنه من المستحيل أن يطفئا فى جسديهما الجذوة وإن غيّباها فى كهوفه . ولكنْ ماذا كانا يفعلان وقد انقضى كل شىء وخرج الأمر من

يديهما ، إلا أن يستسلما لقضاء الله ويجرعا العذاب المقدّر ؟

فهل علمتْ زينبُ وعليم مختار ، يوم نزلا عن غرامهما للفقدان ، وظنَّا أن في وسعهما أن يحوِّلا لهب القلب إلى نورٍ سماويٍّ ليس له إلحاح اللهب ولا مآربه ، أنهما ما انخدعا بذلك إلا لأن حبهما غرق يومئذ في صوفيَّة الألم من أجلها ، مما جعلهما يحسبانه مات أو كاد ، حتى إذا ما انجابت الموجة عنه غِبَّ إنقاذهما الفتاة ، ظهر الغريق وما تزال الروح فيه ، ثم انتعش فانقضَّ عليهما يريد أن يثأر لنفسه ؟

هل علِمَا ذلك ؟ وأن ما لاح لهما يومئذ من تهاويلَ حسِباها حبًّا روحانيا ، لمْ يكن إلا هذيانَ نفسٍ شفَّها الألم ، حلمتْ بالمستحيل في ذاتِ ليلةٍ كُشِفَ فيها عنها الحجاب ، فلما طلع الصباح استيقظتْ على منظر نارٍ وموْقد ، ومهجةٍ تُصهر فيهما ؟

لا شك أنهما لمْ يعلما . وإلا لَمَا بدا إيمانهما عميقاً بالخرافة التي رأياها وقتئذ ، فإذا بزينبَ تتحدث

عنها كأنها دِينٌ وتبشِّر مختاراً به ، ثم إذا بالعدوى تسرى إلى الفتى فيتنزَّل عليه الوحى بدوْره ، ويطير إليها يقصُّ عليها كراماته .

ولكنْ أىَّ موقف كانا يقفانه من جلفدان ، لو أدركا يومئذ سر الخدعة ؟ أكانت ما تزال تنتصر فيهما الرحمة ، فيمضيا فى تقديم نفسهما قرباناً للمحِبة اليائسة ، وهما يعلمان مبلغ ما يكلفهما ذلك من ثمن ؟ أم يصيخان لنداء الحب تاركيْن إياها تروح شهيدة ؟

سؤالٌ لم يكن يواتيهما عنه الجواب . وكل الذى كانا يظفران بالإجابة عنه ، هو أن الأقدار وضعتهما أمام أمرين كلاهما مُرٌّ وقالت لهما : « اختارا » ، دون أن يكُونا قد جنيا ما يستوجب العقاب ! ولكنهما بعد أن تفتَّحت لهما بالتفكير آفاق المعرفة ، كانا سرعان ما يجيبان على حيرتهما قائلين : ولكنْ متى كانت الأقدار تتخير ضحاياها من الآثمِين ؟ وهل يكون لها فى ذلك حكمة ؟ هل تتعمد البطش بالأخيار ، لتمحُوَ بالألم بقايا أوضارِ

أزلية ما زالت عالقة بهم؟ وهل مِن ثم يكون حتما على المرء أن يدفع دنياه ثمناً لهذا النقاء السَّرْمَدِى؟ إنْ كان هذا فما أربحَها صفقة! وعندئذ تسُود الطمأنينة نفسهما، إلا مِن صرخاتٍ لا بد منها كانت تنبعث منهما وهما تحت مِبْضَع الأقدار، كتلك التى يرسلها مريضٌ أسْلَمَ نفسه للجرّاح برضاه.

. . .

كان ذلك حالَ العاشقيْن وهما يجتازان محنتهما. على أن تلك اللحظات التى كانا يلتقيان فيها، مهما قيل إنها كانت تثير حولهما الغبار بنبش صبوتهما الدفينة، طالما سرَّبتْ إلى روحهما شيئاً من البهجة، لأنها كانت الخيط الوحيد من الشعاع الذى يَصِلهما بماضيهما ويذكرهما به.

وشاء لطف الله أن يضيف إلى هذا العزاء عزاء آخرَ أشد جدوى، راحا ينفثان فيه هواهما المكتوم. إذ رُزق مختارٌ بطفل حوَّل إليه جانباً من حبه. كما عُلِّقَتْه زيناتُ لأنها نشقت فيه عبير حبيبها، وعبيرَ

حبه لها وقد تسرب إلى الطفل مع دمِ أبيه . فكانت الأوقات التى تجلس فيها لمداعبته وتدليله ، تُعَد أسعد الأوقات فى أيامها الحزينة .

أجل ، كان هذا الطفل بمثابة نجمٍ سبح فى ليل حياتهما فبعث فيه بصيصَ نور ، إنْ لم يُجَنِّبهما عَثْرةَ السير ، فقد أعانهما عليه إلى حين .

الفصل العشرون

باء محرزٌ بالخيبة ، فى محاولته غزو قلب زينات . كان كلما طَـرَق إلى قلبها باباً أوصدتْـه فى وجهه . فـكأىٍّ مِن مرةٍ حاول أن يصيد نظراتها فى نظراته فـكانت تُغْـضِى . وكأىٍّ مِن مرةٍ بَعث لها بأخته زائرةً فما كانت تردّ لها الزيارة . ولقد اجترأ ذات يومٍ وأرسل لها معها وردة ، ولـكنها امتنعت عن قبولها وعادت إليه الوردة بحديث قلبه الذى لم تُفْـضِ به . فلما أعيته الحيل ، عول على أن ينال منها عن طريق الزواج ما لم يستطعه عن طريق الغزَل ، فأوفد أمه إلى أهلها خاطبة .

ودخلت شريفةُ هانم على العذراء فى معبدها تستطلعها رأيها . ووسْـط سحُـب البخور التى كانت تنعقد فى جو الغرفة ، طاويةً فى تلافيفها صور الحياة ، انبعث صوتٌ من فم الناسكة الصغيرة يقول فى إصرارٍ :

— كلاّ .

وكان هذا رد الزهد على الدنيا ، التى لا تفتأ تقتحم عليه حَرَمَه وتناوشه ، ليقول : « لا » ، بعد أن تكون قد استيقظت أشجانه .

وإذ لم تظفر السيدة من إقناع ابنتها بطائل ، لم تجد بدا من أن استمهلت الخاطبةَ أياماً وخلت إلى نفسها تفكر ، قبل أن تبتّ فى الأمر الجليل الخطَر .

وأنشأت تتساءل قائلة :

— كيف ترفض زينات من كان كمحرز شاباً وجدٍّ جميل ؟

ورجَّحت أن فى الأمر سرا ، ووجدت نفسها أمام أحَاجٍ . إذ ما لزيناتَ إلى جانب رفْضها الخاطب تتنسَّك وهى صبيَّة ؟ ما لها عافَت نفسُها الزينةَ فخلعت حليها وصارت لا تلبس إلا خشن الثياب ولا تُبدِى من محاسنها ما كانت تُبدِى ؟ ما لها تغلق على نفسها الأبواب الساعات الطوال فما تجالس الناس إلا لمَاماً ولا تخاطبهم إلا بمقدار ؟ ما لها زهدت فى صويْحباتها فما عادت تزورهن ولا تطير بهن إذا قَدِمْن ؟ وما لورد خديها قد غاض

ولجسمها نَحُل ذلك النحول الذى كشَف عن عظمها ؟ ولوجهها اكتئاب والعهدُ فيه بسّامٌ ونشاطها فَتَر وقد كان موفورا ؟ أجَل ، ما لها سئمت كل شىء ، وبرمت بكل شىء ، وبدا عليها أنها مغتربةٌ فى هذه الحياة وكأنها ليست من أهلها ؟ ثم ما لكل هذه الأعراض تظهر فجأة غِبَّ خِطبة أختها لمختار ؟

وتطرّق بها الفكر إلى موضوع هذه الخِطبة ، فاستطردت فى حديثها لنفسها :

— لِأَدَعْ أنها مريبة لِما بين الزوجين من فارق ، ولأتساءلْ عما هو أعجب : كيف أدار مختارٌ ظهره لزينات َمِن بَعد إقبالٍ واتجه لأختها ؟ ولِمَ لم يحدث هذا إلا بعد أن ساءت حال هذه الأخت ؟ ثم ما لمختارٍ يغدو بادِىَ الكآبة بعد الزواج وكأنما لم يتزوج غير الهموم ؟ حقًّا إننى لَأمام ألغاز . غير أنها ألغازٌ إذا أُخذتْ فُرادَى ، فإذا ما وُضعتْ بعضُها بجوار بعضٍ فما أسرَع أن تحلَّ نفسها .

وأدركَت المعنى الوحيد الذى ترمز إليه أو هى

حَدَسَتْ به . وفزعت من فرط ما ينطوى عليه من هول ، وتمنت لو أنها ماتت من قبل أن تدركه أو طلع عليها الصباح فلم تجدْ نفسَها .

وإذ أرادت أن تستوثق من ظنها علّها تصل إلى أنه أخطأ أو إنْ يَكُن صحّ تُفكر فى مَخرج ، بعثت فى طلب مختار .

وعمدت إلى الحيلة معه فى الحديث ، لتحصل منه خلسة على ما يتحرّز من التصريح به . فقالت له :

— إنها بشْرَى أزفها إليك . زينات رَبّةُ الحسن خُطِبت .

ورفعت عينيها إلى وجهه تتفرس فيه . ووجدته ممتقعا فرجحت أن ظنها لم يخطئ ، وراحت تهمس فى سرها :

— صدَق من قال : يكاد المريب يقول خذونى .

أما هو فقد هتف بعد أن عقَدت الدهشة لسانه لحظة :

— مبروك ! خُطبت لمن ؟

— لجارنا محرز .

فصرَّ بأسنانه وقال :

— حسناً .

ثم أردف :

— وكيف قابلَت الخبر ؟

فأجابت وقد ابتسمت فى خبث :

— عما كان يُنتظر . جميع ما فيها ضحِك .

وعادت تتفرس فيه .

لم يكن ذلك الموتورَ الذى أخذت تنهش الغيرة قلبه فحسْب ، ولكن كان إلى هذا ذلك الوحشَ الذى اغتيِل غدرا . كان مظهره كمنْ طُعِن من الخلف فأساء الظن بكل الخليقة ، وود لو فتَك بها .

وبدا لها أن تفاجئه مفاجأة أخرى تكون الحاسمة . فتمتمت وهى تتصنع الأسف :

— ولكنْ أتدرى لمَ كان ضحكها ؟

— لمَ ؟

— كانت تسخر منى . لقد راحت تتعجب كيف

أعرِضِ عليها زوجا كمحرز. فهل رأيتَ كهذا تعنتا؟ أليس محرزٌ شابًا وسيما، وفوق هذا من بيتِ مجدٍ ومهندساً ناجحا؟

وغمغم وهو يتنفس الصعداء بما لم يدَعْ مجالا للشك عند السيدة بأنه يحب ابنتها:

— وفيم البشرى إذَن؟

— ما كانت بشرى ولكننى كنت أتهكم. أتهكم على خيبتى. على ابتلائى بهذه الابنة المغرورة التى ستنحس نفسها. ومن هنا لجأتُ إليك لأستعين بك على رأسها العنيد عساك تستطيع أن تلينه. فما رأيك؟

وشعر بالحرج. غير أنه لم يسعه إلا أن قال:

— سأبذل جهدى.

— بل أريد أن تقول إنك ستنجح.

— ولكنكِ تعرفين رأس زينات وكم هو صلْب.

وفهمت مداورته فقالت له وقد اصطبغت لهجتها بصبغة الجد:

— رفقاً بالفتاة يا مختار!

ثم نظرت إليه نظرة ذات معان .

وصعق لنظرتها فهتف :

— ماذا تقصدين يا عمتاه ؟

وعادت تقول فى لهجة أشد صرامة :

— ماذا بينك وبينها ؟

وأجاب وهو يُسيغ ريقه :

— ماذا بيننا ؟ أيكون إلا ما بين الأخِ وأخته ؟

— ولِمَ غرتَ عليها كما لو كانت زوجتك ؟

— عمتى !

— صه يا مختار . ولا حاجة بك إلى أن أقول أكثر من هذا ، ولا بِي إلى أن تفضى بما عندك . فلتبقَ الأسرارُ مصونة فى حرمها دون أن يخدشها البوح ، وكفانا أن فهم أحدنا الآخر .

— ولكنك . . .

فقاطعته قائلة :

— لا فائدة من الكلام . إن كنت على استعداد لأن تعمل شيئاً — وما إخالك إلا كذلك — فاذهب

وأنقذ الفتاة كما أنقذت أختها ، وكنْ ذلك النبيلَ الذى كُنْتَه من قبل .

— رحماك يا عمتى ! ومن ذا نبَّأكِ بهذا ؟

— نبَّأنى به منطقُ الحوادث . ومنطقُ وجهك وهو يعقِّب على كلماتى . وألْفُ لسانٍ ولسانٍ غير هذا وذاك . لقد كان كل ما حولى ألسنةً تفشى سركما .

وهتف وهو لا يعلم أنه يكاد بذلك ينمُّ عن نفسه :

— وهل علمتْ جلفدان ؟

ثم لم يلبث أن فطن إلى خطئه ، فجعل يصغى وهو مطرقٌ خجلاً إلى جواب زوجة عمه التى راحت تقول :

— كلا ، لمْ يعلم إلا أنا فاطمئن . فجلفدانُ فى شغلٍ عن أختها بنفسها . وأبوها لم يَعُدْ يهتم إلا بالقضاء على مشكلة الجوع . أما أنا وما لِى شاغلٌ غير زينات ، فقد كان كلِّى عيوناً منتبهة وآذاناً صاغية لما يجرى حولها . فاذهبْ لتنقذها ولا تتردد ، فإنها تسير إلى الهاوية . تسير إلى الجنون . وليت شعرى ماذا يجديك حبها إنْ هى نسيتْه يوماً مع عقلها ؟

فهتف وقد أحس كأن سكيناً تغوص فى أحشائه ، أو حجراً يهوى عليه :

— ماذا ؟ زينبُ تسير إلى الجنون ؟

— أجل ، فلقد قلَّ كلامها وكثرت صلواتها . وذاك لعمرى نذيرُ سوء ، أنْ تتنسك فتاةٌ فى صباها . فالنجدةَ يا مختار ! يا مَن أنقذتَ جلفدانَ ولم تكُ تحبها ! ها هى ذى زينبُ حبيبتك ، تقع فى المكروه نفسه وتطلب إليك العون . مسكين ! إنى أعلم أن عبئك عظيم . وأنه يتطلب من البذل مثل ما بذلتَ لجلفدانَ وأكثر . إذ عليك اليومَ أن تتنكر لمن أحببتَ لتنساك . عليك أن تظهر أمامها بمظهر الخائن ، الذى يقول لها : لقد نسيتُك فانسيْنى . فيما مضى قد ضحيتَ من أجلها بأملك ، ولكنّ عزاءك كان أن نقشتَ صنيعك فى قلبها . أما الآن فستمسك الممْحَاة بيدك ، وتمحو سطوراً فيه كتبتَها بدمك . وعندئذ لن تبقَى منها سوى أخلاط ، كلٌّ منها يحمل لك فى نفسها صورة مشوهة .

وأطرقت قليلا ثم عادت تقول بصوت هادئ :

— هأنذا يا بنيّ قد أوضحتُ لك الموقف ، وتركتُك لتختار بين رأي زينبَ فيك وزينبَ نفسها . واعلمْ أنك وإنْ محوتَ لك صفحة في قلبها ، فستدوّن لنفسك في قلبك صفحات . أجَل ، لن يكون على وجه الأرض أعظم منك في نظر نفسك .

وقال مختارٌ بعد أن أمضى وقتاً غارقاً في التفكير :

— ولكنْ أواثقةٌ أنتِ من أن تنكُّري لها سينسيها هواي ؟

— نعم ، فالحب طائرٌ يموت إذا احتبس في قفصه . لا بد للحب من جوٍّ يطير فيه ويتنفس ، وهذا الجو هو فكر المحبوب . فإذا ما أُقْصِيَ عنه ، رفرفَ مرة أو مرتين ثم اختنق فمات . ولسوف يرفرف الحب في قلب زينبَ وكما لم يرفرف من قبل ، عندما تطرده من سمائك . فلا تيأسْ وتحسبِ الروح فيه ، فتلك رفرفة الذبيح قبل أن يُسْلِم الأنفاس .

وأمام جزع مختارٍ على زينبَ ورغبته في إنقاذها ، وبالرغم من هول الموقف الذي كان بسبيل أن يضع نفسه

ويضعها فيه ، لم يتردد فى أن هتف :

— حسنا يا عمتى . إنى سأختار زينات دون رأيها فىّ . ولذلك سأمحو نفسى من قلبها .

وهكذا ألقى سلاحه وانسحب من المعركتين : معركةِ الجدل الذى نشب بينه وبين عمته ، ومعركة الهوى .

أما شريفةُ هانم فقد هتفت والدموع تترقرق فى عينيها :

— يا أنبلَ من رأيت !

فاستدرك :

— لا تحسبى . فزيناتُ قد علمتْنى النبل من قبل .

— كيف ؟ أتُراها هى التى دفعتك إلى الزواج من جلفدان ؟

— أجَل هى بعينها . نزلتْ لها عن الكأس التى لا تظفر بها الشفاهُ فى العمر إلا مَرة .

— لله درها ! غير أنكَ ما زلتَ أنبل . هى كانت وراءَها أختُها .

— وأنا كانت حبيبتي وراني . هي مني أعظم .

وسادت لحظة صمت . وكأنما طافت بالمكان سحابةٌ من جلالٍ أخذت تخطر في موكبها الفخم ، وتطوي في عظمتها كل شيء حتى الحب . فشعر مختارٌ لثاني مرة في حياته بأن هناك ما هو أسمى من الهناء ، ذلك أن يَكْبُرَ الإنسانُ بنفسه حتى يملأ بوجودها الأرض والسماء . ولكنه وا أسفا لن يَكْبُرَ بها حتى يُذِلَّها أولاً للخطوب .

وفي الوقت الذي كانت فيه شريفةُ هانم ترقب وهي مأخوذةٌ سحابةَ الجلال السابحة ، والبطلَ الكبير الواقف تحتها وقد توجتْ هامتَه ، قطَع الصمتَ السائدَ صوتُه يقول :

— والآن يا عمتي . اتركي لي الليلة أفكر فيما سأقوله لها . وغداً إن شاء الله ، أرجو أن آتيك بنتيجة طيبة .

— كما تريد . لكنْ لا تَبُحْ عما دار بيننا لأحد حتى لعمك . فما أظن أن أعصابه باتت تحتمل صدمة جديدة . كان الله في عونه ! إنه منذ اضطلع برسالته ،

لا يفتأ يذوب كالشمعة التى تحترق لتضىء للناس .

— لا بأس . إلى اللقاء .

وقبّل يدها وانصرف ، وهو مصعوقٌ بتلك المفاجأة التى توقّع كل شىء إلاّها . له الله ! لا شىءَ يريد أن يبقى له . حتى حبه الأثيرى ، أبتْه عليه الأقدار .

. . .

وفى حجرته جلس يفكر : غداً تَنْقِمُ عليه زينات ، وما أراد بها إلا إحسانا . غداً لن تَنقش اسمه فى قلبها ، بعد أن بَقِىَ منقوشاً فيه سنين . غداً تنساه ويظل يذْكرها وحده ، وإذا طائرُ الحب شدا وحيداً ناح . ولكنْ كيفما كان الأمر فلا بد من إنقاذها . مَن كان ضحّى من أجلها بالروح ، أيضنُّ عليها بالدّماء ؟ فلْتأخذْه كذلك ، ولْيكتفِ بالتاج الذى تضعه البطولةُ على رأسه . ذلك التاج الكائن فى السحاب ، والذى لن يظفر به المرء حتى يتطاول بهامته إليه ، متسلقاً فى سبيل ذلك جبالَ الصعاب .

. . .

فلما طلع الغدُ قصد إلى منزل حبيبته ودخل عليها .
وبادرتْه حالَمَا رأته قائلةً وكأنما تشكو إليه :
— لقد جاءونى بخاطبٍ يا مختار .
فقال وهو يرثى فى نفسه لبراءتها :
— وفى هذا جئتك .
— لكنِ اطمئنَّ فلقد رفضتُه .
— ما لهذا قصدْت .
— وفيمَ جئتَ إذَن ؟
فقال يسقيها السُّمَّ فى شراب :
— لأنصحكِ بأن تقْبليه . أجَل ، يكفيك شقاء .
فهتفتْ وقد اكفهرَّ وجهها :
— ما هذا الذى تقول ؟ أأخذتْك بى شفقة ؟
— ولمَ لا تأخذنى ؟
— ولكنك تهيننى . تستصغر حبى وتستكثر التضحية علىّ .
— أىُّ حب وأية تضحية ؟
— مختار !

واستطردت :

— إنك تتكلم كمَنْ يتجاهل ما بيننا .

— وماذا بيننا ؟

فشهقت وقالت :

— حبنا . أنَسيتَه ؟

— حبنا ؟ ما هذا الحديث القديم؟ قُولى السلام على ذكراه .

— ويحك ، ماذا تعنى ؟ أماتَ هو حتى يصبح ذكرى ؟

— هبيه مات ، أفلم يكفَّ عن سَقْيه الأمل ؟

فلم تزد على أن صرخت :

— واهاً لى !

ثم خرت تبكى . فقال لها :

— أمَا كفَفتِ ؟ ما جدوى التسبيح بِذكرَى أشياءَ فاتت ؟

ولمْ تُلْقِ بالاً إليه . وعادت تقول وصوتها يتهدج :

— ماذا قلتَ بربك ؟ أمات هو وأصبح فى قلبك

ذِكْرَى ؟

— نعم ، والعُقبَى له عندك . ماذا وقد نَفِد الصبرُ إلا النسيان .

واستطردت وكأنما لم تسمعه :

— أمات هو إذَن ؟ أوَمَا يمكن بعْثه ثانية ؟

— ها ! وهل يُبعث الموتى ؟

ومضت فى تساؤلها :

— ألم تَعُدْ تسحرك عيناى ؟ وفمى ، ألم يَعُدْ يسبيك ؟

— كلا ، وحبّذا أن بَطَلَ سحرهما فى قلبى .

— ولِمَ ؟ أأحْفَظَكَ عليهما أنْ ساءاك ؟ أما زلتَ تذكر جنايتهما عليك ؟

— أجل ، وحسبى ما ذقتُ منهما .

— ولكنْ روحى ، هذه الأشعة النقية التى لا تؤذِى ، ألا تبقيها فى جوارك ؟

— ولا هذا . ما ينبغى أن يكون بينى وبين زوجى دخيل .

فلم تتمالك أن صرخت بمرارة :

— أنا ؟ أنا دخيلة ؟

وأنشأت تَئِنّ .

وندم مختار . لقد فاته أنه بتنكره لها لا ينقذها بقدر ما يفجعها فى أقدس ما عندها . ولكنْ هى الشفقة ، تأتى أحياناً بعكس المقصود . وكاد أن يكاشفها بالحقيقة ، لولا أنه أمِلَ فى أن تَنسى حينما يزول أثر الصدمة .

أما هى فقد استمرت تقول وقد أبحّت صوتَها ذبحةُ الألم :

— أنا دخيلة ؟

وتتلفت حولها كأنما تستشهد بكل شىء .

ثم هتفت :

— أنا فسَحْتُ لها فى بيتى . أنا كنت ربّة الدار التى شاركتْنى سيادتها ، فهل أُسمّى دخيلة ؟ شكراً يا مختار ! إنك حطمتَ لك صنما فى قلبى ، كم كنت أفزع إليه إذا افتقدتُك وأنا وحدى فى الليالى فلا أجدك ، فأبثك فى شخصه شكواى ، وأناجيك فيه وأعبدك .

ثم استطردت كمن تناجي نفسها :

— فلماذا يا ربى ؟ حتى الصنم ؟ حتى الظلال التى بقيتْ من الحقيقة لى ؟ حتى أصداء أغنيتى المائتة — تُؤخذ منى ؟ يا لىَ من مسكينة ! لن يَعْمُرَ قلبى شىءٌ بعد الآن . ولن تعيش فيه إلا أنقاضٌ أرزح تحتها . وخاويةً ستصبح حياتى فى ظل قلبى الخاوى . وخراباً سأراها من خلال هذا الخراب . فيا بئْسَ ما صرتُ إليه وصارتْ حياتى ! ويا نِعْمَ ما تفعلُ يا موتُ إنْ أنت أرحتَنى !

وراحت تبكى وتنتحب ، ومختارٌ واقف أمامها يتجلد ، وفى كل لحظة يكاد لسانه يفلت بالحقيقة .

وكانت وهى تبكى تحس لأول مرة فى حياتها بأن كبرياءها قد جُرحت . وبأن الذى جرحها مختار . مختارٌ الذى عبدها ذات يوم . ألا بئس الذنبُ الكفرُ بعد الإيمان !

وللحال وثب إلى ذهنها محرز ، كمنقذها الوحيد من هذه المحنة ، الذى سيضع المرهم على جرحها . فرفعتْ

وجهها إلى مختار وقالت له :

— حسبك الله ، يا من سرقت تمثالى وخربت معبدى ! ولكن اذهب به إلى غير رجعة ، فما عادت بى حاجة إليه . غداً سأقيم بصدرى تمثالاً خيراً منه . تمثالاً لا ينسل صاحبه هارباً به كما انسللت أنت . تمثالا لا ينوء إلـهه بعبء اضطلعت به امرأة مثلى . لله أنت يا محرز ! على الرغم من صدى لك لم تنسنى ! ولا تنحتك عن حبى العقبات ! غداً سيهبط معبدى تمثال لك . فى حفل باهر وسط التراتيل والطقوس . وسأجعل منه صنمى المعبود .

ثم رمته بنظرة ازدراء ، وغادرت الحجرة وتركته وهو يكاد يموت قهرا . كان يمثل أنطق صورة لمظلوم . وكان إلى هذا ذلك الحبيب الذى لسعته الغيرة بنارها ، فأصبح وكل عضو فيه يستغيث .

وإذ كان ما زال عليه أن يؤدى حسابا عن مدى نجاحه فى سحق نفسه ، فقد راح يزف بشرى محنته إلى شريفة هانم . فلما لقيها هتف :

— مثّلت دورى يا عمتى بنجاح ، وآتى ثمره . لن ترفض محرزاً زينات .

ثم أخذ يروى لها ماحدث ، وهى تنصت إليه معجبة ومشفقة .

فلما انتهى من حديثه قال لها :

— ولكنْ لا تفاتحيها الآن . واتركى لها بعض يومٍ تستجمُ فيه .

وشد على يدها وانصرف .

. . .

وبعد أيام لبست السيدة ثوب الفرحة ، وهرولت تستقبل به رأى ابنتها الجديد . ولكنّ البنيَّة رفضت وأصرت على الرفض ، وإذا بالأم ترجع وقد انقلبت أذيالُ فرْحتها أغلالا تتعثر فيها .

ذلك أن زيناتَ كانت عندما خلتْ إلى نفسها وتذكرت محرزا ، لم تلبث أن نفرت منه وطردته من ذهنها . على حين أخذ يتعالى صدرُها بوجيبٍ مُدَوٍّ عجبتْ له . فلما تحسستْ موضعه شهقت وانثنت تهتف فى ضنى :

— ويلاه ! ماذا لمسَتْ يدى ؟ مختاراً ؟ نعَم ، هذا تمثالهُ ، يا لله لمْ يتحطم ! وإن كان قد تدثَّر برداء أسودَ حجب عنى قسَماته ! ولكنه باق ! باقٍ لا يريد أن يتزحزح لغيره ! لقد حسبتُه ذهب بأحزانه ! ليته فعَل ، فما عدت أطيقه من خلال هذا السواد !

ولكنها لم تلبث أن استدركت :

— رباه ، ماذا قُلت ؟ لقد كَفَرْتُ بصنمى ، وما ينبغى . نسيتُ عباداتى الماضيات له . ونسيتُ نِعَمه علىَّ . أيها الصنم لَأنت معبودى رضيتُ أو غضبتُ وأنا أنا كاهنتك . اغفرْ لى ! ودعْنى أُطَوِّفْ بك وأُنشِدِ التراتيل . وأتحسسْك بيدِى وألمسْ بركاتك . ثم . . . ثم أجثو عند قدميك وأعبدْك .

وهكذا أيقنَت أنه من المستحيل أن تَنسى حبها الأول ، لتتفتح لحبٍّ جديد . لقد كان حبًّا واحداً ذلك الذى نَبَتَ فى قلبها ، وإنها لَتؤْثر أن تحتفظ بزهره الذابل الذى يحْمل عطر الماضى ، على أن تستبدل به ألْفَ زهرةٍ ناضرةٍ وزهرة ، لا تنفحها بهذا العطر . وكان

نجماً واحداً ذلك الذى طلع فى سماء حياتها ، وإنه لَمَا يزال على رغم الغيوم يَبعث إليها ببصيصه من وراء السحب ، كأغلى — بما يحمل من طيف السنين — مِن شعاع أسطع كوكب . فعادت ترفع الغطاء عن زهرها القديم وتشم عبيره الواهن . وترنو لكوكبها الخابى من خلال الغيوم الملبدة . وكلما اشتد بها الوجد بكت على قسْمتها .

. . .

وكان إصرارها على رفض محرزٍ مفاجأةً لوالدتها جعلتها تسيء الظن بمختار . فلما أقسم لها على صدق روايته ، ودلل على ذلك بازورار الفتاة عنه ، اطمأن بالها وقالت له :

— إذَن ما ينبغى أن نقنط ، فما كان حبُّ أعوامٍ لِيُنْسَى بين يومٍ وليلة . فابقَ على موقفك منها . ولئن رفضَت اليوم محرزاً فقد تقْبل غداً سواه .

. . .

ومنذ ذلك اليوم قلّت زيارات مختارٍ لمنزل عمه ، واتسمت نظراته وكلماته لزينات بطابع الجفاء . فكان

لهذا المسلك الجديد من جانبه نحوها ، صداه التائح فى قلبها المشبوب ، مما ضاعف شجنها وجعلها بالشفقة أحرى .

. . .

أما محرزٌ فما إنْ يئس منها حتى نقل سكنه من جوارها لعله يلقَى فى البعد عنها السلوان . وكانت دريةُ لا تفتأ تمنِّـيه بنسيانٍ وشيك ، ما دام أن حبل الأمـل الذى يربط الحب قد انقطع . وتـضرب لذلك مثَـلاً نفـسَها إذ نَسيتْ مختاراً بعد أن تزوج .

الفصل الحادى والعشرون

مرت السنون وزينات ملتزمة عزلتها ، باقية عند رأيها فى أن لا تتزوج ، حتى فاتتها سن الزواج وأصبحت عانِسا .

وما إن صحت من غفلتها على هذه الحقيقة ، ورأت شبابها ينحدر إلى المغيب وجمالها يذبل ، حتى ساورها القلق على نفسها ، وبدأت تندم على ذنبٍ اقترفته فى حق هذا الشباب ، ولم تكن مخيرة فى اقترافه . ولا عجب إن حنت لجمالها زاهدة . فما كان الزاهدون لِينسَوْا الدنيا وإن بادلوها قطيعةً بقطيعة . لهذا كانت كثيرا ما تنظر فى المرآة وتناجى نفسها وتقول :

— أيتها الزهرة التى وهبتْ عطرها للرياح ! ها قد انقضت أيامك ، فمن ذا حمل من عطرك الجميل غيرُ ريحِ النسيان ؟ هل قدمْتِه لعابرِ سبيلٍ جاء يقطفك فى الصباح ؟ هل مزجتِ أنفاسك بأنفاسه وذبتما معاً فى

هـذا المزيج ؟ وارحمتاه للزهور العوانس ! اللواتى قضين شبابهن وحيدات ، وعندما ذبلن نسين ! حدثى القوم عنا غداً يا رياح ، وأخبريهم أنه كان لنا عطر وذهب ، وسناً على أوراقنا مات . طوبى لأزهار البكور ! اللواتى لم ينسين بعد ! اللواتى يرقبن القاطفين وكلهن أمل !

ثم تخنقها العبرات فتبكى .

. . .

وكان مما يزيد فى شقائها بقاؤها على حب مختار . فلكم حاولت أن تسلوه متذرعة بينها وبين نفسها بما بدر منه فما كانت تفلح . ولعل ذلك كان يرجع إلى اعتقادها بأنه ما نسيها غدراً منه ، وإنما لأنها أماتت قلبه ، فنسى فى سباته كل شىء ، ونسيها فيما نسى . فكانت لا تكاد تصل إلى هذه النتيجة حتى تأخذها الشفقة عليه ، وتعاتب نفسها على أنها تسببت فى هدم حياته عتاباً تخرج منه مثقلة الضمير .

وإذ كانت برغم ما شاب علاقتهما من جفاء ، ترقب

تطوراته من بعيد مدفوعة بحبها له ، لم يكن ليغيب عنها كلما رأت وجهه الذى بدأ يتغضن وشعره الذى راح يتخلله الشيب ، أنه قد أدركه مثلُ المصير الذى أدركها ، وأنهما يسيران إلى النهاية جنباً إلى جنب ، كورقتَىْ غصنٍ جرفهما تيارٌ واحد ، ليلقى بهما إلى شاطىء الفناء . وعندئذ ما تلبث أن تذوب حسرة عليه كما ذابت على نفسها من قبل .

وهكذا كان كل شىء فى الحياة ضد زينات . حتى مختارٌ نفسه ، كانت رؤيته تثير شجنها ، وتذكّرها بصباه الذاهب الذى فتنها ذات يوم . حتى وجهُها الذى كان يلازمها دَوْما ، كانت ترى فيه حُطَام جمالها القديم . فوجدت أن كل ما كانت تعتز به ، قد تحول إلى ذكرياتٍ نائية ، تفصلها عنها هوةٌ سحيقة من الزمن ، كلما حاولت أن تعْبرها إليها سقطت فيها وتحطمت روحها .

ومن ثم ازدادت إيماناً بالفكرة التى انتهت إليها من قبل ، وهى أن خير وسيلة للتخلص من آلام الحياة ، هى نسيانُ هذه الحياة وإغراق كل شىء معها . وهو

ما لا يكون إلا بالتحصن منها فى كهف بعيد ، أو التطوع للعمل فى ملجأ أو مستشفى تتركها عند بابه وتغلق الأبواب . ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذه الفكرة ؟ ذلك ما كانت تعوزها الإجابة عنه ، فترتد يائسة . مسكينة زينات ! حتى النسيان الذى يلحق الإنسان بالأموات ، بات عزيزاً عليها .

. . .

وكأنما لم تقنع الأقدار بما أحدثته فى قلبها من جراح ، فسددت إليه طعنة جديدة بأن خطفت منها أباها المحبوب . كان هذا الأب مذ جنى على مصطفى يعيش سقيم الوجدان . وكان إلى جانب ذلك فريسة للهم من جراء ما طرأ على زينات من تحول هدم حياتها وحار فى تعليله . ومما زاد من كربه أنه كان يعد نفسه مسئولا عن نكبتها . كان يظن أن ما أصابها ما هو إلا انتقام صبه الله عليه فى شخص ابنته ليثأر لمصطفى ، جرياً وراء تلك العقيدة التى تقول بأن الإنسان يعيش مرة أخرى فى أولاده ، ومن ثم فأعماله تبقى لهم فى حياته ومن بعده .

ولم يكن يعقد الهدنة بينه وبين ضميره ، إلا عمله مخلصاً لخير الشباب البائس ، وشعوره بلذاذة التكفير وهو يضطلع بهذا العبء الشاق . ذلك أنه كان قد وصل إلى مركز فى الحكومة من شأنه أن يضع مقاليد الأمور فى يديه ، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق الإصلاحات التى طافت بذهنه عقب أن غبَن مصطفى فشعر بالعطف على الجائعين .

وبدأ العمل بأن جمَع حوله طائفة من الأنصار ، من بينهم الكثيرون من ذوى الألسنة الذَّرِبَة من الخطباء ، والأقلام الجهيرة من الكتاب . فكانوا يمهدون بالدعاية لكل خطوة يزمع أن يخطوها ، ثم ينبرون للدفاع عنها بعد أن تتم ، ليقضوا على تخرُّصات المغرضين الذين كانوا لا يكفُّون عن السعى بالوقيعة بينه وبين الشعب .

ولكم عانى من عنَت أولئك الجشعين الذين يهمهم أن يَبقَى الماء عكراً ليصيدوا فيه ، ولكنه كان دائماً يتغلب عليهم بدهائه ولباقته . على أن عَضُده الأكبر كان عدالةَ الفكرة التى أخذ نفسه بالعمل على نصرتها ،

وتأييد الرأى العام الذى جاءت رسالة الباشا معبرة عن أمانيه .

ولما كان هدفه الأول هو أن يفسح فى مجال العمل لكل راغب فيه ، فقد كانت باكورة إصلاحاته أن زاد عدد وظائف الحكومة ، بعد أن دبر المال اللازم لذلك مما اقتصده من المرتبات الكبيرة . كما حَظَرَ الجمع بين أكثر من طريق واحد للكسب ، لئلا يكون تكدُّس الأرزاق فى أيدى البعض سبباً فى حرمان الآخرين .

وكان سنده فى ذلك أن العمل وهو وليدُ تضامن الجميع ، يجب أن يقسَّم على الجميع ، فإن وَفَّى بحاجاتهم فيها ، وإلا فمن مقتضى التضامن أن يستوى الكلُّ فى تحمل التبعة .

ومن هنا جاء قوله :

— كما أن على الفرد واجباً هو أن يتقدم للعمل ، فإن على الجماعة واجباً هو أن تتقبل منه ذلك ، ما دام الربح لا يوزَّع إلا على من يعمل ، وما دام الفرد بحاجة إليه ليعيش .

وقوله :

— لو أن الفرد تُـرِكَ وشأنه ولم ينضم إلى جماعة ، لأصاب الـكَـفَـافَ على الأقل بمحض جهده ، ومن ثم لا يمكن أن يكون قد تضامن معها لتجيعه .

ثم كلمته المأثورة :

— إن الناس ما تضامنوا إلا ليعيشوا ، فيجب أن نـكفل لهم العيش ليظلوا متضامنين .

وكلمته التي كانت فصْل الخطاب :

— إن من حق الجميع أن يعملوا تمهيداً لأن يأ كلوا .

ولقد تساءل ذات مرة قائلا :

— لست أدرى لمَ تَحْـمِى الجماعاتُ المـالَ وتغْـفل طرائقَ كسْـبه ؟ ألا يجدر بها بدلاً من أن تَقنع بالظهور فى منتصف الطريق ، أن تَبدأ تدخُّـلها حيث يَبدأ الحق ، فتنظِّـم توزيع فرص العمل قبل أن تتحول إلى نقود ؟ أفلا يُعتبر اغتصاب هذه الفرص اغتصاباً للأرباح التى تتمخض عنها ، ومن ثم تصبح حمايةُ الثانية لَغْـواً ما لم تسبقها

حماية الأولى ؟

وكان يضيف :

— ومن مزايا زيادة العمال تخفيض ساعات العمل ، وبذا يتاح للفرد أن ينعم بفراغ أوسع . والفراغ هو الغاية من العمل ، لأن الإنسان بعد أن يكفل حياته من ثمرات ما يُنتج ، يحتاج إلى استجمام يشعر فيه بها . وبدون هذا الشعور لا يكون قد عاش فى نفسه . ومن لم يعش فى نفسه خرج وجودُه من يده . إن الذين يستغرق الجهدُ يومَهم يعبرون الحياة كما يعبرون حلماً مهوّشاً لا يصحون منه إلا على دقات ناقوس عزرائيل . فهُم فى سبيل الجشع يجمعون ما لن يهنأوا به .

وعندما أخذ عليه خصومه أنه فى سبيل أن يطعم الجياع يضرب الفقر على الجميع ، أجابهم :

— ليكنْ ، فلَأنْ يأكل الجميعُ خبزاً فقط ، خيرٌ من أن يأكل بعضُهم حلوى ويبيت الآخرون على الطوى .

فلما واجهوه بأن المصلحة العامة تقتضى إيجاد طبقة

ممتازة تأخذ بيد الجماعة وتصعد بها معها ، قال لهم :

— لا ريب أنه جميلٌ أن نصْعد ، على أن لا يكون ذلك على أشْلاء نفرٍ منا . لست أسلِّم بوجود طائفة تكون بمثابة مِخْلب القط ، وأخرى بمثابة من يَسحب به أبا فروةَ من النار . كما أننى لا أفهم الجماعة إلا على أنها وسيلة لخدمة الفرد لا لتسخيره ، لأنه من غير المعقول أن يكون قد خلقها لتبيده .

على أنه راح يحقق الرخاء لا من طريق تكديس أقوات الشعب فى يد فئة منه ، ولكن من طريق إنعاش الإنتاج بزيادة وسائله . وتدرَّع إلى ذلك بإثقال الموسرين بالضرائب ، ففرَضها عليهم تصاعديةً تزداد نسْبتها كلما زاد الدخل .

وكان يسوِّغ عمله بأنه ليس من العدل أن تَقنع الدولة من المُتْخَم بما تقنع به من الجائع . وفى ذلك قال :

— إنما الحرمة للرغيف الأول . وكلما بعُدتْ الأداة عن دائرة القوت ضعفت حرْمتها بضَعف الحاجة إليها . يجب أن يدفع الأغنياءُ ما برِحَ الدفع لا يؤدى بهم إلى

الجوع . وبدون هذا لا نكون قد أخذنا منهم بل أعطيناهم . أعطيناهم ما كان يجب أن نأخذه . على حين نكون قد أخذنا من الفقير . وما ينبغى أن نعطِىَ مَن عنده ، ومَن ليس عنده نَأخذ منه . فذلك الكفَاف حقٌ يجب احترامه ، قبل السماح للنهمين بمَلء بطونهم . حقٌ يولَد للمرء مع المرء ، ما دام أنّا نولَد لنواصل البقاء ، لا لنموت فى مهدنا .

فما إن أيقن الطغاةُ أنْ لا مَفَر ، حتى توسلوا إليه قائلين :

— لا تفعلْ ونحن نتبرعُ من فضلنا للفقراء . لن نرقد على أموالنا منذ اليوم كأنها بيْضٌ بضناه . ولن نوصد آذاننا دون سماع صرخات الجياع .

غير أنه صاح فيهم :

— حاشا أن آخذ حق أمّتى صدقات ، وأجعل من بنيها شحاذين . بل ستدفعون ما حَقَّ عليكم لها ضرائب .

ونفَّذ فيهم قانونه . فدفعوا ودفع معهم وقد كان منهم . وبذا كان أحد أولئك القليلين الذين عملوا ضد

مصلحتهم ليحققوا الحق .

وكانت زينات التى أحبت الفقر ذات يوم فى شخص العاشقين اللذين اعتادا المرور بها فى السنين الخالية ، عندما رأته وهو يطل من ثيابهما الوديعة كملاك رحمة ، لا تفتأ تشجع أباها كلما هب ليأخذ بيده ويخفف عنه بعض أثقاله ، ضنًا به أن يزهق مع حامليه فتفقد الدنيا وجهاً من أجمل وجوهها . وكذلك طالما شجعته على عمله شريفة هانم ذات الضمير الحى والطبع الأصيل . فكانت كل خطوة جديدة يخطوها المصلح للترفيه عنه ، تكون لديهما بمثابة يوم عيد .

وهكذا مضى الباشا فى رسالته يدفعه شبح مصطفى وتشجعه زوجته وزينات ، حتى آتت ثمرها وشبع قوم عندما خلقهم الله خلق معهم رزقهم . وحينئذ هتفت له الجماهير طويلا ونقش التاريخ اسمه فى لوحه بحروف من ذهب . وما كان الفضل إلا لذلك الجندى المجهول مصطفى ، الذى شاءت الأقدار أن تضحى به لتنقذ ضمير قاتله .

فلما تم للمصلح ما أراد وكللت مساعيه بالنجاح ،

ركع لحظةً أمام قبر الجندىّ المجهول ، ثم نام ساعةَ حضرتْه الوفاة مطمئن النفس ، إلا من جرحٍ عزّ على الشفاء ، هو ألمه على زينبَ الشقية . فكان هذا الجرح بقية الانتقام الذى يتعقب الإنسان إلى القبر ، ليستوفيه ما بقِىَ فى ذمته من تكفير .

. . .

وحزنت زينبُ على أبيها حزناً جمّاً . وكانت من فرط حزنها تقصد إلى قبره وحدها كل صباح ، حيث تضع عليه طاقات الزهر ، وتجدُ فى أحجاره المَبْكَى العذب الذى تجود فوقه بعصارة روحها . ولعل هذا الحزن البالغ ، كان نتيجة لرقة حسها الذى طالما أرهفته الآلام .

ولكنها كانت ما تكاد تعود أدراجها وتستقبلها الحياة بيسمتها المرحة ، حتى تزداد مقتاً لها . إن هذه الحياة التى لا تعترف بالحزن ولا ترعى المحزونين ، تأبى أن تفارق ثغرَها بسْمتُه الأبدية ، فكلما أرادت أن تفرغ لحزنها خلف أثواب الحداد السود ، نفَذَت خلالها بهذه

البسمة البغيضة ، وراحت تنتهك حرمة الحزن الثاوى تحتها . وعندئذ لا تملك المحزونة إلا أن تهتف فى حنق :

— تبا لك أيتها الحياة ! لا بد أن أفر من وجهك إلى صومعة نائية تحجبك عن عينى . ولم يبقَ ما يمنعنى من ذلك . فخلفدانُ التى كنت أخشى أن تكشف السر ، قد قَدُم على زواجها العهد ، فلن تجد صلة بينه وبين فرارى . وأبى الذى كنت أحسب حسابه ، لم يَعُدْ له وا أسفا ظلٌ أخشاه . لقد تخلى عن كل شىء ، وأصبح فى ذمة العجز الأبدى الذى لا يستطيع معه أن يملى إرادته على أحد . ليته عاش ، وظل يقضى فى أمرى ويُبْرم ! أما أمى ، أمى المسكينة ، فقد يئستْ منى تركتْ لى الحبل على الغارب ، وانثنت إلى نفسها تندب حظها فىَّ . فما أحسب أن بُعدى عنها سيضيف إليها كارثة جديدة ، إذ ما الضرر من طعن الميّت مَثْنَى وثُلاثَ وأكثر ؟

وهكذا اعتزمت زينباتُ هجران الحياة ، ولم يبقَ إلا أن تبحث عن منفى . ووفّقت بقليل من الجهد إلى مشغلٍ لليتامى وجدت فيه ضالتها المنشودة ، فدخلته

بعد أن عانت بعض الصعوبة فى إقناع ذويها ، وكثيراً من التجلد لتركها البقاع التى تحتضن مختارا . وبذا تم لها أن تحقق الأمل الذى بقيت تصبو إليه زهاء عشرة أعوام . الأملَ الذى لا يفكر فيه الإنسان إلا بعد أن ينفضْ يده من كل أمل . فى أصيل أحد الأيام ، ودَّعت أهلها وألقت على مواطن ذكرياتها نظرة عابرة ، ثم حملت الحقيبة التى تحتوى ملابس الزهد ، واتجهت صوب المكان الذى اعتزمت أن تقضى بقية عمرها فيه . وعندما بلغته ، قرعتْ بابه الخشبيَّ الكبير ، الذى أغلقتْه بعدئذ فى وجه الحياة .

. . .

كان هذا المشغل لا يكاد يختلف عن الدير فى شيء . فقد كان بقيةً لمَبْنًى قديمٍ عَدَا عليه الزمن ، يقوم على سفحِ تلٍّ ناءٍ فى نهاية طريقٍ مهجور ، ولا تحيط به إلا صخورٌ صمَّاءُ وأتربةٌ لا تنبس ببنت شَفَة ، طغَت على جانبٍ منه فدفنتْه مع أيامه . وكان الماضى الصريع لا يفتأ يطل واهناً من كل ثقب من جدرانه . كما تتناوح

الحادثاتُ التى جرت فيه فى العهود الخوالى ، مع صفير الرياح التى تعبْره من نافذة لنافذة . وكان لفرط ما يسُوده من وحشة ، يبدو خاوياً وهو آهلٌ وخراباً وهو معمور . إلا من أشباح سكانه البائدين ، التى كان يخيل لمن دخله ، أنها تمرح فى دهاليزه كأنها عفاريت . وكأنما أبت الجوارحُ إلا أن تعتبره خَرِبَة ، فراحت تعشش فى حوائطه الغربانُ والبوم ، وبين وقتٍ ووقتٍ تنعاه من جديد بنعيقها ونعيبها .

كذلك كان كل من أوين إليه يشْبهن الراهبات . إذ كنَّ ممن نُكبن فى الحياة ، فآثرن تركها إلى حيث يعشن فى عزلة ، بعيداتٍ عن كل ما ينبش الجراح . فمن زوجةٍ فَقدت بعْلها وما يفتأ ما حولها يذكرها به . إلى عذراءَ خابت فى حبها فأضحى يثير شجَنها الطرب . إلى عانسٍ تؤلمها رؤية شمسها وهى تغيب . أو دميمةٍ لم تكن لها شمسٌ فكرهت الضوء . وهكذا كن كلهن جريحاتٍ ، أردن أن يضعن على جراحهن بلسم النسيان فأوين إلى ذلك العالم المنسى .

ولما كان الشقاء يؤلف بين ذويه ، فقد وَجدن السلوة الكبرى فى خدمة اليتامى والحَدَب عليهن . كما نشأ بينهن عطفٌ متبادل ، كان يُلاحظ فى نظراتهن عندما تلتقى ، وفى تلك النبرة الحنون التى كانت تغشَى أصواتهن كلما نادى بعضُهن بعضاً قائلاتٍ : أختى !

وكانت جميع الأسباب فى هذا المشغل مهيئة للنسيان الذى ينشدنه . فقد كان معدًّا لمبيتهن وإطعامهن ، بحيث لا يحتجن إلى مبارحته والعودة إلى لقاء الحياة . فكُنَّ إذا ما صحون من النوم ، اجتمعن فى ثيابهن البيض الطويلة التى تشبه الأكفان ، وتلك الأقنعةِ التى تلثِّم معظم وجوههن ، وجلسن يغْزلن ويطرِّزن وهن صامتات ، لا يتحدثن إلا ليَسألن عن أمر هام ، أو يجبْن فى اقتضاب عن سؤال وجِّه إليهن . حتى إذا ما حان وقت الطعام ، تناولن غذاء خشناً غالباً ما يكون من البَقْل أو الخُضَر المسلوقة . فإذا فرغن من عملهن مع انحدار النهار ، عمدت كل منهن إلى كتاب تقرأ فيه ، أو قامت تصلى وتسبِّح لله .

وكان الناظر إليهن لا يلبث أن تتملكه الرهبة . فقد كن جامدات صامتات لا تعبّر ملامحهن عن شىء ، إلا عن ألم دفين بردت حرقته ، فترك آثاره فى تلك الكآبة التى تسود وجوههن ، كما يترك الجمرُ الرمادَ الذى ينمّ عليه . وكان فى نظراتهن نسيانٌ وغربة . كأنما أُسدل بينهن وبين الماضى ستار ، فانقطعت صلتهن بتاريخهن وما جرى فيه من أحداث وعاش من وجوه . أو كأنهن مخلوقاتٌ هبطت إلى الأرض من كوكبٍ آخرَ فاستوحشت .

وبهذا المكان الذى يوحى كل ما فيه بالموت والنسيان ، لاذت زيناتُ لتَنْسَى .

الفصل الثانى والعشرون

انقضت ثلاثة أعوام وزينات ملازمة المشغل ، لا تبرحه إلا فى فترات متباعدة ، لتزور ذويها زيارة قصيرة ، ثم تقفل راجعة إليه . وبدا عليها أنها بدأت تنسى . فكنتَ إذا نظرت إلى عينيها ، لمحتَ فيهما بوادر تلك الغربة ، التى ارتسمت على أعين رفيقاتها اللاتى سبقنها إلى هناك . ذلك أن بُعدها عن الحياة ، مكّن للنسيان من أن ينسج على ماضيها خيوطه . فصارت لا تراه من خلال هذه الخيوط ، إلا كما ترى حلماً غابراً نَصَلَتْ أشباحه ، أو رَبْعاً عَفَا فلم تبقَ منه غير أطلال . وحتى مختارٌ الذى تبدّل شكله ، لم تعد تنبش رؤيتُه هذا الماضى . فقد كانت تحتاج إلى سفرٍ طويل على أجنحة تأملاتها ، خلال الأعوام التى تراكمتْ فوقه ، فحجبت شعره الفاحم وعينيه الملتمعتين ببريق الشباب ، قبل أن تصل إلى ذلك العهد الذى كان فيه مختاراً الحبيب .

وهو ما كانت تتجنبه بإغراق نفسها فى عمل المشغل ، وفى جو النسيان السائد فيه . فكانت كلما رأت هذا الحبيب القديم ، وقفت رؤيتها عند حد مختار الكهل زوج جلفدان ، ولم تحاول النفوذ إلى أعماقه لترى الصورة الأخرى الثاوية فيها . بل إنها كادت تنسى أنه جرح قلبها مرة عندما جفاها ، وما لبثت أن عفت عما سلف منه .

. . .

وكانت تثير اهتمامها بنوع خاص وتستدر عطفها ، فتاةٌ وفدت حديثاً على المشغل ، تنمُّ ملامحها عن جمالٍ غابر ، وعيناها على أنهما تطويان ماضياً أليما . وكان مما يزيد من تعلقها بها ، شعورها بأنها ليست غريبة عنها ، وإنْ كانت لم تدرِ شيئاً عن كنه هذه الألفة المبهمة .

فذات يوم خلَت بها وسألتها عن الريح التى قَذفتْ بها إلى هذا البَلْقَع ، وهى الحمامة التى مكانها الخمائل . وشرعت الفتاة تقص قصتها قالت :

— منذ ثلاثة عشر عاما ، أيامَ بسمتْ لى الدنيا ، أحببتُ جاراً لى وأحبنى .

وهتفت زينات تعلق على الحديث :

— سبحانك يا ربى ! إنه الحب دائماً ، هو الذى يأتى بنا إلى هنا .

— إى والله الحب . وماذا غيره يشرد الآمنين ؟

ومضت تسترسل فى حديثها وزينات تنصت إليها فى اهتمام ، وبين وقت وآخر تستحثها على الكلام قائلة :

— هيه يا عفاف .

إلى أن قالت هذه :

— وبارح دارى على أنه سيلحق بعمل فى الريف ، ولكنه اختفى وانقطعت عنى أنباؤه .

وهنا هتفت صاحبتها :

— اختفى ؟

— نعم . وظل مختفياً حتى صادفته ذات يوم فى الطريق فلم أكد أصدق عينى . أتعرفين ماذا كان يفعل أيتها الأخت ؟ كان يبيع أوراق النصيب . ولهذا اختفى . لقد خجل واكبداه منى .

وصرخت زينات :

— أوراق النصيب ؟

— أجل ، أول فرقته يبيع النصيب لأنه فقير ، على حين يتربع من يليه من أبناء ذوى الجاه على المناصب وتُعْقَد لهم السيادة فوقها .

ومرت لحظة كانت زينات ُ فيها لا تفتأ تردّد :

— يا عدالةَ السماء ! يا عدالة السماء !

كانت بالرغم من أنها من طبقة الموسرين ، تمقت الظلم الذى يتَّصف به السواد من أبناء طبقتها .

ثم عادت تسأل :

— وبَعْدُ أيتها الأخت ؟

وتأوهت عفافُ وقالت :

— ليتك تعفينى من ذكر البقية يا أختاه ! لقد سوَّل الحقدُ للتعس أن يَقتل ظالمه .

— أوه ! وقتَله ؟

— كلا . شاء لطف الله أن تطيش الطعنة . وإلا لكان الآن فى عداد الآثمين ، ولَفَقَدَ آخرته كما فقد دنياه .

— وماذا فعلوا به ؟

— حكَم القضاء عليه بالحبس ثلاث سنين .

— مسكين !

— ولم يطق وهو الأبىُّ عار السجن ، ولا رطوبة حجراته وفظاظة سجانيه ، وكانت الأحداث إلى جانب ذلك قد أضعفتْ من مقاومته ، فمرض بالسل .

— يا إلٰهى ! كل هذا ؟

واستطردت عفاف :

— ونُـقل إلى المصحة . وهناك كنت أتردد عليه فى مواعيد الزيارة ، وأرقب الداء وهو ينهش فى شبابه الغض ، فأرثى لمصيره ومصيرى ، ثم أخرج من عنده باكية .

وأردفت :

— وذات يوم وأنا هناك ، دخل علينا رجلٌ مهيب الطلعة قـدّم لى نفسه باسم رمزىّ باشا . ولم يكن إلا ذلك الرجل الذى ظلم حبيبى .

وغمغمت زيناتُ فى ريبة :

— رمزىّ باشا !

— نعم « عُـمَرُ رمزى » باشا » ، على ما أذكر .

— ماذا ؟ وتقولين إن هذه الحادثة وقعت منذ ثلاث عشرة سنة ؟

— تقريبا .

وغاص قلب زينات . أيكون الرجل أباها ؟ هو ذلك . فالاسم اسمه . والخاطب الذى كان قد تقدم لجلفدانَ كان حديث عهد بالتعيين فى المصلحة التى يرأسها . وكان ذلك منذ ثلاث عشرة سنة . إذَن فهو أبوها بعينه . وازدادت اهتماما بمعرفة الخاتمة . فسألت عفافَ التى كانت قد توقفت ترقب دهشتها فى بلاهة :

— وفيمَ كان مجىء هذا الباشا ؟

— كان ذا ضمير فشاء أن يكفّر عن ذنبه . جاء ينفحه بمبلغ من المـال حمله له معه ، ويَعِـدُه بوظيفة إن أبَلْ .

وبكت عفاف ، ثم عادت تتكلم وقد تهـدّج صوتها فقالت :

— ولـكنْ ، فى الوقت الذى جاء فيه هذا الرجل

النبيل يأخذ بيدِ مصطفى ، كان مصطفى قد مات منذ ساعة ونُـقل إلى حجرة الموتى بالمصحة .

وصرخت زينات :

— مات ؟

— مات أيتها الأخت . وانحدر إلى الفناء كما تنحدر الشمس ، وتركنى أذبل فى شعاع مَغيبه الأصفر . أواه يا مصطفى ! لمَ غافلْـتَنى وذهبت ؟ لمَ لمْ تأخذنى معك ؟

واستسلمت الفتاتان للبكاء لحظة ، ثم عادت عفافُ تواصل حديثها قالت :

— ومُـنذ مالَ ميْلَةَ الشمس نخضَّـبَ أفقَ حياتى بجراح ذكراه ، ثم غاب غيْبَـتَها فدثَّـر كَـوْنى بالظلام ، أقسمتُ لا يطلعُ فى سمائى بَعده كوكب ، فـكلُّ نجمٍ سواهُ واللهِ كابى الضياء ، وكل قمرٍ غيره لا ينـوِّر ، فـكنتُ إذا ضقتُ ذرعاً بالدجى ، نَـقَبْـتُ فى ليل زمانى طاقةً وجلستُ أشـرِفُ منها على نهارى الراحل ، وبين حينٍ وحينٍ أنـدِّى بدمعى فَجْـرَه ، أو أُطْـلق روحى حمامةً على أيْـكِهِ تنُـوح .

وزفَرت زفرةً حَرَّى واستطردت :

— وهكذا أخذتْ أيامى تمرّ ، وأنا أُرقب شبابى وهو ينسلُّ من بين يدىّ ، والدنيا تنسلُّ من أمام عينىّ معه وتبتعد ، كما تبتعد سفينةٌ أقلعتْ إلى شاطىء غير معلوم ، إلى أن ذبلتْ آخرُ ورقة فى شبابى وأصبحتُ عانساً فى العانسات . نعم ، مَن كانت له حيًّا لمَ لا تكون له وهو ميّت ؟ ألِأنه أصبح مغْمَضاً لا يَرى وأخرسَ لا يتكلم ، أخون غمْضه وأقسو على عجزه ؟

— أختاه ! لا تلمسى جُرحى . أنت أيضا قضَّيت عمركِ عانسا ؟

— نعم أيتها الأخت . كلانا زهرةٌ عاشت مهجورة . ضاع هباءً عمرها . أسَفًا لنا ! مات شذانا ، وما عطَّر أيامنا . وذبلنا ، وما تحلَّى صدرٌ بنا . ليتنا ! ليتنا رَفَّ بالقطف حسنُنا ! ليتنا بالهَصْر تَضَوَّع عطرُنا !

فقالت زينبُ وهى كاسفة :

— وهل أتيتِ إلى هنا لتَنْسَىْ ؟

— ليس جرحِىَ يُنسَى . إنما جئتُ لأصون وجهى

عن أن يُبتذل فى طلب الرزق . فإن أمى قد قضَت نحْبها منذ عام ، ولحِق بها منذ أيام أبى . فأصبحتُ ولا عائلَ لىِ ، ولا إنسانَ يؤنس وحدتى .

وسادت بين الفتاتين فترة صمت ، قالت بعدها زينات :

— إذَن فقد كان هذا الباشا سبب نكبتك ؟

— ألم يَضع أول مسمارٍ فى نعش خاطبى ؟

— ومع ذلك تصفينه فى حديثك بأنه نبيل !

— أجل نبيلٌ لأنه نَدِم وجاء يصلح خطأه ، وقليلٌ من الناس من يندمون . إن منهم من يجرح الفريسة ، ثم يجهز عليها ليتخلص من لعناتها . ليت كل سراتنا كانوا كرمزىّ باشا ! إذ ليس العيب أن يخطىء الإنسان ، ولكنْ أن لا تأخذه من ربه خشية . من نَدِمَ تاب ولكنْ من استهان تمادَى . لله ما أنبله ! وما أروع طلعته الجليلة ، التى عليها سِمات الأبرار !

— أأفهم من هذا أنك صفحت عنه ؟

— وعلام اهتمامك بشأنه ؟ أتعرفينه ؟

— إنه أبى .

— أبوك ؟

واستطردت وهى مأخوذة :

— ولكنك لن تكونى تلك التى خُطبت لعاكف . إنك رائعة الحسن ، بعكس ما يشيعون عن الأخرى .

— كلا ، لم تكن إياى .

— إذَن فأنت صُغْرَى بنتيه . نعم أنت بعينك . يا لله ! لطالما حدثتْنى نفسى بأنى رأيتك من قبل . فلما قلتِ لى الآن إن الباشا أبوك لم يبقَ عندى شك .

— رأيتنى ؟

— نعم . وتبادلْنا السلام .

— أين ؟

— فى حديقة منزلك . حين كنا نمر بها أنا وخاطبى .

وراحت زينباتُ تشحذ ذهنها . على حين استطردت عفاف :

— ألا تذكرين ؟ ذَيْنِكِ الفتى والفتاةَ اللذين كنتِ تومئين لهما وتبْسمين ؟

وضربت زينات صدرها وهتفت :

— وهل كنتما هذين ؟ يا حرام ! ما كان أجملكما !

— نعم نحن بعيننا .

— هو ذلك . لكثيراً ما ساءلت نفسي أين رأيتك ؟

— وها يتضح أن بيننا تعارفاً قديما .

— أجَل ، وها نحن تان نلتقي بعد ثلاثة عشر عاما .

وأطرقت في أسَى ثم عادت تقول :

— ولكنْ هل نلتقي كما التقينا إذ ذاك ؟

— إذ ذاك ؟ آ ه ، تلك أيامٌ مضت أيتها الأخت .

— سلامُ الله عليها !

وشرد لبها . ثم هزت رأسها وقالت تتوجع :

— واأسفاه لك يا أبى ! ما كنت أعلم أنك كَبَوْتَ هذه الكبوة . ولكنْ يشفعُ لكَ السببُ الذى ورَّطك . فى سبيل الحنان ما جنيتَ يا أبى .

— اطمئنى أيتها الأخت فلقد سامحتُه . نحن اللواتى طهَّرهن الألم ، لم يَعُدْ للحقد فى نفوسنا مكان .

واستطردت زينات :

— أمِن أجل هذا حاربتَ الجوع يا أبى ؟ أشعرتَ بذنبك حينئذ ، ورحتَ تُكفِّر ؟

— ماذا تقولين ؟ أحاربَ هو الجوع ؟

— وقَضى عليه . وما كان ذلك إلا بفضلك ، وفضل خاطبك المرحوم .

وأخذت تقص عليها جهوده فى ذلك . فلما فرغتْ من كلامها هتفت عفاف :

— لله دره ! لا تؤاخذينى ، فقد جنحتُ إلى عزلتى وأنا أجهل ما يحدث فى هذا الوطن . يميناً بالله لقد شوقتِنى إلى أن أراه لأحيِّى فيه هذه البطولة .

وقلَّبت زيناتُ كفيها وقالت :

— تَرينه ؟ أواه أيتها الأخت ، لم يَعُدْ ذلك فى الإمكان ! إنه أصبح فى ذمة الموت . إى والله فى ذمة الموت .

وغمغمت عفافُ بحزن :

— يا رَحِمَهُ الله ! رفهى عن نفسك يا أختى .

— أجل ، اسألى الغفران له يا عفاف ، فلقد كان رحيماً طيب القلب . وما كان من شيمته الظلم ولكنْ لكل شىء سبب . ولو قدّرتِ وعورة الصخرة التى ارتطم بها قبل أن تَزِلَّ به القدم ، لعذرته وأشفقت عليه .

— لقد أدركتُ ذلك يوم جاءنى نادما ، وأنَّ القَدَر الذى ما ينفكُّ يَنْصِبُ فِخَاخَه للأبرياء ، قد وَضَع تحت قدميه شَرَكاً فَزَلْ .

وراحت تستمطر الرحَمات على روحه ، ثم قالت لزينات :

— وأنتِ ما قصتك أيتها الأخت ؟ ما هذا الشجن الراقد فى زوايا جفونك ، وماذا رماكِ زهرةً فى هذا القفر ؟

— رمانى الذى يرمى الجوهرةَ أحيانا فى التراب ، واللؤلؤةَ فى مستنقع . رمانى القَدَر الذى طالما يَرمى .

— وكيف ذلك ؟ هلاّ حدثتِنى ؟

— لا بأس فإن الحديث ذو شجون ، وليس أحَبَّ إلىّ من أن أثير أشجانى بعد ما طال بىَ العهدُ على

نسيانها ، وأعودَ بروحي إلى أعزّ مواطنها ، وإنْ كنتُ سأجتاز ظلمات عِدَّة ، وأعْبُر بحوراً من دموع ، قبل أن أهبط هذا الوادي المقمر ، وادي أحلامي الماضية .

وراحت تقص قصتها قالت :

— كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً ، حين كنتُ صبيةً في الثالثة عشرة من عمري . وكان القلب لم يزل خَلِيًا والأمل يملأ جوانب النفس ، فيعصر بسماته على أيامي .

وتوقفتْ ريثما تتنهد ، ثم واصلت حديثها قائلة :

— وكان يقطن معنا ابن عمي الشاب ، وكنا قد احتضناه رضيعاً بعد أن مات أبواه . وبالرغم من أنني لم أكن يومئذ أدري ما الهوى حتى أحبه ، فقد كنت أشعر بعبير هذا الحب كشيء مبهم يَطُوف بروحي فيسكرها ، دون أن أعرف كُنْه هذه السكْرة ، ولا من أية زهرة يهبُّ العطر الذي أشرب كأسه . ومن ثم فقد كانت الأيام التي قضَيناها معاً في عهد الطفولة ، على ما لَثَّمَ قلبي فيها من غمْض ، أحلى أيام مرت بي .

وبدت كمن أخذت تحلم ، وترقب صور هذا الحلم وهى تتتابع فى الغيب ، وقد رَكِبَتْ مَتْنَ السحُب التى كانت تلُوح لها من النافذة وهى تسير سيرها الوئيد . ثم عادت تقول :

— وهَا هى ذى تلك الأيام التى ثوَت فى ضمير الزمن ، تطلُّ علىّ من نافذة الماضى ، فيصِلُ إلىّ ضوؤها الباسم عَبْرَ السنين . ولكنه لا يصل إلىّ ساطعاً كعهدى به ، لأن سبعة عشر عاماً يجتازها تُوهِنُه ، فلا يبْلغنى إلا وقد خامره ذلك الأسى الذى يخامر كل شىء لفَّه البعدُ فى ضبابه .

واستطردت وقد بدأ صوتها يتهدَّج :

— وهأنذا أقرأ فى هـذا الضوء الشاحب سطوراً كانت فى حِينها لامعة . فأذكر كيف كنت أجول مع فتاى فى الحديقة ، ثم نعود وقد ملأنا سلالنا بالزهر ، فنجلس نصففه على العشب الأخضر . وكيف كنا نقف بغدرانها الملتوية ، حيث الزنابقُ تسْبح غافيةً على السطح ، والحشائشُ على الضفاف ترتعش . أو نعْبر قناطرها

التى تتشابك فوقها الأفنان ، وقد تدلّت منها عناقيدُ كالثريّا ، تضىء إما سقطت عليها أشعة الشمس . أو نخوض حافيَيْن ماءَ بِرْكتها ، ومن حولنا أسرابُ الإوزّ تروح وتجىء ، وهى تلتقط بمناقيرها أوراق النباتات النامية فيه ، وبين وقت وآخرَ تصفّق فوقه حمامة ، أو يغطس عصفورٌ ويروح ينتفض .

— استمرى أيتها الأخت .

— وأذكر كيف كنا نستَبِقُ على الظل ضُحىً وفى الأصيل . ونتبارى فى تسلق الأشجار الباسقة ، أو صيْد الفَرَاش المذهَّب الجناح . فمن كسب الرهان فاز من غريمه بكيس من الحلوى ، أو راح يأمر فى المغلوب وينهى .

— يا حبَّبكما !

— وأذكر يومَ سافر مغترباً فى طلب العلم فشعرتُ بالوحشة دون أن أدرى السبب ، إذ كان قلبى كما قلت لكِ كالبرعم مغلقاً على سره . ثم كيف غمرنى الفرح حين زفوا إلىّ نبأ عودته بعد غيبةِ أربعة أعوامٍ فلم أذق النومَ ليلتى . حتى إذا ما انبَلَجَ الصبح ألفيتُنى وقد فقدتُ نصف

ذاكرتى فى أيدى الساعات التى سهرتُها ، وفى نشوة الفرحة التى أغرقتْ لبّى عندئذ ، فكنتُ إذا لقيتُ القومَ لقيتُهم ساهمة ، أو حاولتُ أن أذكر أمسِى لم أفلح .

وتغرْغرت عيناها بالدموع ثم عادت تقول :

— وأذكر كيف أخذ قلبى بعدئذ يتفتح ويَحكى لى أسراره ، فلم يَبقَ عندى شك فى أننى أهواه . حتى إذا ما عاد والتقت عينانا على جوى ، أدركتُ أن ما عنده مثل ما عندى وأكثر . وأذكر كيف خلا بى فى الشرفة ليلةَ رقصْنا وكاشفنى بالحب فأسمعنى أحلى كلمة فى الوجود . ثم وعدنى فوضع بين يدىّ دنيا هيّبها الأحلامَ أوّلت أو هبتها الفراديس .

واستطردت وقد أخذ جسمها يرتجف :

— وأذكر كيف أنه حينما قالها لى : « أحبك » ، فكأنما سقطت قطرةٌ على زهرة . فارتعشتُ وقتئذ رعشةَ الزهرة بُلّلتْ ، واشرأببْتُ بعنق أطلب المزيد .

واستطردت وقد زادت رجفتها :

— آه وأذكر ، نعم أذكر ، كيف زالت من طريق زواجنا الأشواك فأضحى وردا ، وأوشكنا أن نقبض على طائر الأمل ونحبسه فى قفص من ذهب ، لولا أنه اتضح فى آخر لحظة أن هناك من تحبه وتوشك أن تهلك من أجله ، وعندئذ صفق الطائر تصفيقة ارتفع على أثرها إلى أجواز الفضاء وغاب بين السحب .

ولم تكمل زينات قصتها لأنها سقطت مغشيا عليها .

الفصل الثالث والعشرون

عندما أُغمى على زينات ، استدعت إدارةُ المشغل طبيبا أسعفها حتى أفاقت ، ثم نصح بنقلها إلى بيتها ريثما تبلّ من أثر الصدمة . فتم ذلك على الفور ورافقتها إلى هناك عفاف .

وحالما وصلا إلى المنزل ، وجدا به جلفدانَ ومختارا ، وكانا قد قَدِما فى زيارة لشريفةَ هانم . وجزع القوم عندما علموا بما حل بابنتهم ، ورأوها تتهافت على السرير بادية الإعياء .

وبينما كان مختارٌ منكبا عليها يفحصها ، مالت جلفدانُ على الضيفة تستوضحها الأمر . ولما كانت أحاديث الحب لا تُذكر فى حضرة الأمهات ، فقد أومأت إليها هذه أن تتْبعها إلى حجرة أخرى .

. . .

وعندما تهيأت لهما الخلوة ، شرعتْ فتاة المشغل تروى

ما حدث ، مبتدءة بقصتها مع مصطفى ، جاهلة أنها إنما تحدث جلفدان ، منذ رأت فيها زوجة للطبيب لا لعا كف كما كانت تعلم من قبل .

وما إن تبين لجلفدان من الحديث سر خطبة عا كف لها فى أول الأمر ، حتى شعرت بأن الأقدار كانت تهينها . كما أحست برعدة تسرى فى جسدها ، عندما ألفت نفسها فجأة أمام إنسانة نكبت بسببها يوما ما ، وأنشأت تتساءل :

— ترى ماذا يصبح موقفها منى إن عرفت من أنا ؟ وبأى وجه ألقاها حينئذ ؟ ألا يا أرض انشقى وابلعينى !

وكانت عفاف قد انتقلت إلى سرد فاجعة زينات ، وهى لا تدرى أن مختاراً هو حبيبها المقصود ، وأن للماثلة أمامها دوراً فى القصة التى أغمى على البطلة قبل أن تتم سردها ، وتبلغ الحلقة التى تظهر فيها أختها على المسرح . فأخذت جلفدان تصغى إليها وهى متوجسة ، حتى إذا ما طالعتها الفتاة بما كان من حب زينات لابن عمها ،

كانت مفاجأة غاص لها قلبها .

وتابعت عفافُ حديثها قالت :

— وراحت زيناتُ تَصِفُ لى حبهما الطفل وهما غَرِيرَان ، وكيف نَبَتَ له ريشٌ بعدئذ وكَبُر ، حتى إذا ما شرع يغنِّى فيُسمعهما من نغم الخلود ، الذى له فى السمع وقْع نقَرات النَدى ، وفى الأوصال رعشةُ الزهر رَفَّ تحتها ، علمتْ فى آخر لحظة بأن هناك من تحب فتاها وتوشك أن تَهلك من أجله .

واستطردت :

— إلى أن وصلتْ عافاها الله إلى الجملة التى قالت فيها ما معناه : « وعندئذ ذُعِرَ الطائر وفرَّ إلى حيث قَبَعَ وحيداً على غصنٍ ذابل وجعل ينُوح » ، فلم تكْمل كلامها وهوت من فرعها .

وهنا صعقت جلفدانُ إذ فهمت كل شىء . وراحت تحدِّث نفسها وتقول :

— إذَن فما زيناتُ ومختارٌ إلا حبيبان . وما كان بينهما وبين المنى إلا مثل ما بين الشفَة والكأس ،

لولا أنهما كشفا حبي وأنه يوشك أن يودي بي .
ولكن كيف توصلا لمعرفة هذا السر ، وقد حرصت على أن أغلق صدري عليه وأحكم الرتاج ؟ وأي أعين تلك التي استطاعت أن تخترق حجب قلبي وترى الكوكب الخافق في حبته ؟

وراحت تفكر . ثم ما لبثت أن لطمت جبينها وأنشأت تقول :

— آه ، الآن تذكرت . ألم تفاجئني يوماً ممسكة بصورته أناجيها وألثمها ، فسارعت إلى إخفائها وظننت عندئذ أنها لم ترني ؟ هو ذلك ، ولكن ها قد خاب ظني ورأتني . ألا ما أغباني ! كان يجب أن أفطن لهذا أو أتوقعه على الأقل . وكان يجب أن لا أصدق مختاراً عندما جاء يضع قلبه بين يدي ، إذ كيف يعقل أن يحبني إنسان فضلاً عن مختار الجميل ؟ ثم بم أفسر خلواتهما حدثين ، خلوات وإن جهلا مغزاها ليست فوق التهم ؟ آه ، أضلني الحب وقد يورث الحب الخبل ! ولكن ها هي ذي الكوارث تدق في أذني كالنواقيس وتعيد

صوابى إلىّ . رباه ! كانت كأساً وأفقتُ منها . كان حُلْماً وَسَطا عليه الصباح . وكأنى بصوتٍ يدوّى الآن من اليقظة ويقول : كان زواجك بتدبيرهما لينقذاك . كانت حياتك أكاذيبَ فواخَجَلاَه !

وأنّت أنيناً موجعا ثم عادت تحدث نفسها :

— ويا ليت أن الأمر اقتصر على ذلك ، ولم يجعل منى بومةً نَعبتْ على خراب عشّ غَرِدَيْن ! فهذه زيناتُ مَضْرب الأمثال فى الحسن ، يذوق جمالُها اليُتْم بسببى ، ثم يكون مآلها الدفن حيةً فى مَشغل . وهذا فتاها النضير كزهرة ، تهصره الأشواك التى قُضِيَ عليه أن يحتضنها فى شخصى . أواه ! كيف يا ربى يطيب لىَ العيش بعد أن كستْنى الأكاذيبُ هذا العار ؟ وبعد أن كشفتُ أنى لم أكن غير كوكبٍ نحْس ؟

وما إن قادها التفكير إلى هاتين الحقيقتين المُرتين ، اللتين تكفى إحداهما لقتل إنسان ، حتى تقلص وجهها واصفرّ ، وبدت كمن تقدّم بها العمر سنين ، حتى إن عفافَ أجفلتْ عندما رأتها تتطور هذا التطور السريع ،

وذهبت بها الظنون كل مذهب . إذ راحت تسائل نفسها وتقول :

— لِمَ رُوِّعت هذه السيدة عندما أخبرتُها بقصة حب الفتاة لابن عمها ، كما لو كانت هى ذلك الغريم الذى شاركها هواها له ؟

على أن الذى لم يخطر لعفافَ على بال — لأن زينباتَ لم تكن قد أفضت به إليها بعد — هو أن الأمر انتهى بالحبيبين إلى تقديم حبهما قرباناً لهذا الدخيل ، الذى أصبح فيما بعد زوجا لأحدهما .

وفجأة التفتت جلفدانُ لعفافَ وقالت لها فى أسى :

— اسمعى أيتها الأخت . الآن فقط ، وقفتُ على حقيقة هائلة ، ظللتُ طول عمرى أجهلها . حقيقة تخالينها من عجَبها خرافة ، كتلك الخرافات التى تُحكَى فى الأساطير . ولكنها مع ذلك وقعت .

وفزعت عفاف ، إذ طالعتْها من صوت محدِّثتها رهبة .

وراحت جلفدانُ تستطرد :

— وهأنذا سأكمل لك القصة التى لم تتمها زينات . وستعلمين منها أننى أنا التى شاركتها حبها لفتاها وأنا أجهل ما بينهما . وأنهما عندما علما بأنى هالكة صبابة ، باعا نفسيهما واشترياني بأن تزوجنى بتدبيرهما الحبيب . ثم ظلا يكتمان عنى نبأ هذه التضحية ، إلى أن أتانى بالخبر من لم أزوده وعلمتُ به الآن منك .

وارتعشت عفافُ أمام هذا الفداء المخيف . وأكبرتْ زينات ، وودت لو جثت عند قدميها وراحت تمجد فيها نبلها . وفى الوقت نفسه وجفتْ عندما رأت أن الأقدار غافلتْها وسخّرت لسانها ليميط اللثام عن سرٍّ بقى فى طى الخفاء سنين .

وأخذت جلفدانُ تقص القصة من أولها : مذ خطبت لعا كفٍ إلى أن تزوجت مختارا .

وامتقعت عفاف ، إذ عرفت لأول مرة أن الواقفةَ أمامها لم تكن إلا ابنة الباشا الكبرى ، التى حفرت قبر مصطفى منذ ثلاثة عشر عاما . فراحت تخاطب نفسها وتقول :

— رباه ! أتجمعنى الأقدار أخيراً بمن جلبتْ نحْسى ؟ وهل أكون قد انتقمتُ منها وأنا لا أدرى ، حين وقفتُها على سر أختها ؟ ولكنْ ، ما ذنب المسكينة ؟

وأدركتْ خطَر ما تورطتْ فيه . وبدأ يلوح لها شبح فاجعة توشك أن تنقضَّ على البيت وتدكَّه على من فيه .

وإنها لَغارقة فى هذا التفكير ، إذ استطردت جلفدانُ قائلة فى ذلّة :

— والآن ، لعلك أدركتِ أننى أنا السبب فى نكبتك ، ونكبة أختى ومختارٍ الذى أحببْت .

واغرورقت عيناها بالدموع .

ووقفت عفافُ تنظر إليها فى رثاء ، وهى لا تدرى ماذا تقول . ثم ما راعها إلا أن رأتها وقد أخذ فمُها يرتجف ، وفجأة يميل رأسها وتغْمض .

واستغاثت الفتاة . نخفَّ إليها مختارٌ وشريفةُ هانم على الأثر . وتبعتهما زيناتُ تتحامل على نفسها . وما كادت ترى أختها على هذه الحال حتى صرخت :

— أختي !

وارتمت عليها تهزها وتناديها .

وسمعت المحتضرة من الغيب صوت أختها وعرفته .

وكأنما أرادت أن تعود لتشكر صاحبته ، إذ ما لبثتْ أن فتّحت عينيها وهمستْ :

— شكراً لك يا زينات !

ووقع نظرها على مختارٍ فردّدَتْ :

— ولك يا مختار .

واستطردت والعاشقان يتبادلان نظرات الدهشة :

— لكما الله ! أية تضحية ! والآن ، عُودَا حبيباً لحبيب .

وصرخت زيناتُ وقد أدركت أنها ألمّت بالسر :

— كلا كلا لن نعود . مختارٌ لك وإن شَطَّ المَزَار .

وعادت من كانت نصف ميّتة تقول :

— عُودَا بعضُكما لبعض . واعْمُرَا عُشًّا صفَّرتْ فيه الريحُ بسببي ونَسَجَ العنكبوت . وأما

جلفدانُ فدخيلة . وهى راحلةٌ وشيكاً ولكنما لكما البقاء ،
ومِنْ بَعْدُ تمثالٌ على كفِّ الزمان بنبلكما يُشيد .
وانطبق فمها . وكاد القوم يسقطون صرعى حولها .
وبعد لحظة تمتمت بصوت كأنه ينحدر من بعيد :
— عُوداً لأملكما .
فهتفت زينات :
— تباركتَ يا ألله ! ما تزال بها أنفاس .
غير أن هذه الأنفاس لم تلبث أن خمدت إلى الأبد .

. . .

وتناوحتْ فى الدار أصواتُ الباكين . وكانت زيناتُ لا تفتأ تَنْشُج وترثى الميّتة بكلماتٍ تفتت الأكباد . فلما هدأتْ ثائرتها التفتت إلى عفافَ وسألتها :
— كيف وقفت المرحومةُ على السر ؟ أأنبأتْك بشىء فى خلوتكما ؟
وأجابت عفافُ التى كانت قد انثنت إلى نفسها تلعنها :
— بل أنا التى أنبأتُها . بل أنا التى أنبأتُها .

وذهلت زينات وهتفت :

— وكيف لعمرك ؟

— رحماك أختاه وعفوك ! ما كان تدبيري ولكن تدبير القدر . عندما سألتني عن سبب إغمائك ، أعدت عليها ما دار بيننا من حديث وأنا أجهل صلتها به ، فأحاطت بما قيل واستنتجت ما بقي ، ثم راحت تقص عليّ القصة كاملة ، حتى إذا ما بلغت نهايتها وقع لها ما وقع .

وضربت زينات صدرها وقالت :

— تبًا لي ! لماذا بحت لك ؟ لماذا بحت ؟

وبدا الحرج على صديقتها ، فقالت وهي توارى وجهها خجلا :

— قدّرى موقفى . فإن جهلى لبقية القصة ، فوّت عليّ أن أفطن إلى أن بداءتها ليس مما ينبغى أن يحكى لأختك . آه ، ما أتعسنى !

وانكبت تبكى وتمزق ثوبها .

واستطردت زينات فى لوعة :

— قَتَلَ أبى فتاكِ وثأرتِ منه فى شخص أختى . وما قتلْتماها ولكنْ قتلهما القدر . يأثم الدهرُ ثم يُجرِى عدالته فينا . لا تُرَوَّعى أختاهُ فكل شىء مكتوب . وأنت بريئةٌ من دمِ جلفدان .

ثم عادت ترثى الميتة .

الفصل الرابع والعشرون

بعد أن ماتت جلفدان ، خلعت زينات مسوح الزهد فجأة . فلم تعد إلى المشغل تدفن فيه أحزانها كما كان يُنتظر ، ولا سيما حزنها الجديد على أختها المحبوبة ، ولكنها آثرت الإقامة فى بيت أبيها .

وراحت تُلقى بنفسها فى خِضَمّ الحياة مرة أخرى . فصارت تلبس أفخر الثياب وتتحلى بأنفس الجواهر ، وتطيل الوقوف إلى المرآة تصفف شعرها وتطلى وجهها بالمساحيق . كما عادت بعد عزلة دامت سنين ، تزور صديقاتها وتستقبلهن ، وترتاد الملاهى والحفلات .

وإذ كانت قد شعرت بميل شديد إلى عفاف ، وبأن فى عنقها لها ديناً خلّفه لها أبوها وتود أن تؤديه ، اقترحتْ عليها أن تترك المشغل وتقيم معها بقية العمر . ولم تمانع الفتاة فأفردتْ لمُقامها فى القصر حجرة خاصة ، وفسَحت لها فيه كما لو كانت واحدة من أهله . ومنذ

ذلك الوقت صارت عفافُ لها بمثابة الأخت ، وكثيراً ما كانت تحضر مجالسها وتصحبها فى تنقلاتها .

وهكذا انقضت حقبةٌ من حياة زينات قضتها فى المشغل . وأصبحت من كانت من عهدٍ قريب ناسكة ، فتاةً متأنقة مرحة ، يظن من يراها أنها وثنيةٌ فى نظرتها إلى الحياة ، لا تقيم وزناً إلا لمسراتها ، ولا تحيا إلا للساعة التى هى فيها .

فماذا دهى الفتاة ؟ وكيف تبدلت فى غمضة عين ؟ هل انصدع قلبها لكثرة ما دهمها من خطوبٍ فتبلَّد ؟ ولكنّ القلب عندما يموت يموت أيضا عن المرَح . أم أنها عادت تتفتح للأمل بعد أن خلا لها الجو بموت جلفدان ؟ ولكنّ مختاراً لن يكون لها بعد أن هجرها . فهل كانت تطمع فى أن يستيقظ فى قلبه الحب ، بعد أن زالت من سمائه الغيوم التى كانت جاثمة فوقه ؟ ولكنْ كيف ترضَى أن تقيم هناءها على أشلاء أختها وهى التى طالما رفضت ذلك ؟

أسئلةٌ حار فى الإجابة عنها من حولها .

ولكنّ مختاراً الذى كان أول من اهتم لتطور حبيبته ، لم يَعْنِه من الأمر إلا أن زينات عادت تعقد الصلح بينها وبين الحياة ، وإن كان قد راح يتساءل عن جدوى ذلك ، وهذا الصلح لم يعدْ معقوداً بين الفتاة وبينه ، ثم يقلِّب كفيه فى حسرة ويقول :

— ليتنى لم أصغِ لشريفةَ هانم ، عندما أوعزت إلىّ أن أُبدى لزيناتَ الجفاء ! إذَن لعادت الأسبابُ اليوم مهيأة لطلب يدها ، وبعْث الأمل الذى مات من رقدته .

ولكنه ما عتم أن قال :

— ولكنْ لمَ أيئس ؟ إن حجتى معى . لماذا لا أُفضى لها بالحقيقة ، وهى كفيلةٌ بأن تشفع لى عندها ، بل تجعلها تُكبِر موقفى ؟

واستطرد فى قوله :

— ولكنْ ، أما تزال فى عروق المحَبة فى قلبها بقيةٌ من حياة ، فى وسْع كلماتى أن تعيد إليها نضرتها ، وتجعلها تُورِقُ من جديد ؟ سأرى على أى حال .

ثم عقد ما بين حاجبيه . لقد تذكر أنها قطعت على

نفسها عهداً لجلفدانَ وهى فى النزع ، أن لا تتزوجه بَعدها . إلا أنه غمغم :

— ما يزال الأمر لا يدعو إلى اليأس . فزينات عندما أقسمَتْ لا تتزوجُ بى ، كانت متأثرة بالحزن . ومن عادة المرء إذا تأثر أن يسرف . وفضلا عن ذلك فقسَمٌ كهذا لم تطلبه جلفدان . بل إنه لن يعنيها أمره ، ما دام أن الموتَى فى شُغْلٍ بموتهم عن شئون الأحياء . بَرَّتْ بقَسَمها زينات أم حنثتْ ، فلن تعيد جلفدانَ إلى الحياة أو تزيدها موتا .

. . .

وجعل وجْهته منزل زينات . وخلا بها لأول مرة مذ تجافيا . فقال لها بعد أن لبث بعض وقتٍ لا يدرى ماذا يقول :

— زينات ! إنى جئت أسألك الصفح .

ونظرت إليه فى تأثر وقالت :

— وفيم الصفح ولم يَعُدْ بيننا ما يوجب العتاب ؟

وعاد يقول :

— رحماك زينات وتمهّلي ! لو علمتِ الحقيقة لشكرتِني .

فهتفت في مرارة :

— وعَلامَ ؟ أعلى أنك سلوتني ؟

— ما سلوتك علِمَ الله .

— وصدُّك عني عشرة أعوام ؟ ونعيُك لي حبَّك ، يومَ جئتَ تسألني الزواجَ من محرز ؟

— ما نعيتُ إلا هنائي .

— ولكنك نعيتني في قلبك .

— بل أرجفتُ يومئذ لأنقذ من كانت في خطر .

— ومَن كانت في خطر ؟

— أنتِ . أسرفتِ في لبس مسوح الزاهدات ، وتحتها شبابٌ يتطلع للحرير . فلما وجدتُ أنك تالفة ، زعمتُ أني سلوت لتنسيني ، وقدّمتُ إليك غريمي بيدي .

وذهلت لهذه المفاجأة . غير أنها بدت كمن ترتاب . فهتف :

— ما لك تتشككين ؟ لمْ يكن عجيباً أن أفعل .

إنه درسٌ علّمتِنيه من قبْل . مَن كان ضحّى بالأكثر لسواك ، أفلا يضحّي لك بالأقلّ ؟ سَلي عينيّ إنْ كذّبْتِني . وقلبي ، هذه الحمامة الرفرافة . وسلي فراش الضنى ، سلي الأشواك . بل سلي عقلك كيف مَن سَلا يعتذر ؟ وأخيراً سلي أمك تنْبئك .

— وما دَخْلُ أمي ؟

— أقنعتْني بأن أجْفُوكِ فجفوت .

فقالت وما تزال بها بقية شك :

— ولِمَ لم تقلع بعد أن رأيتَ إصراري ؟

— حسبتُ أن الزمن كفيلٌ بأن يحولك عن رأيك .

فراحت تحدّق في عينيه . كانت تريد أن تقرأ الحقيقة فيهما . ولمْ تلبث أن قرأتها واضحة ، تسْبح في بحور الضنى .

فأكبرتْ شأنه . وانكبت على يديه تقبّلهما وتبكي ، ودمعها يتساقط فوقهما ، حاملاً في قطراته الدافئة آثار تباريحَ عفَتْ وبعثتْها الذكرى من جديد .

وسألها مختار :

— والآن ، لِمَ لا نتزوج ؟ إننا إنْ فعلْنا فلن نتسبب فى شقاء أحد ، ولن نثْقل ضميرنا بتبعةٍ ما .

وشعرت بأنه بهذه الجملة ، عاد يداعب أوتار أملها القديم . ولـكنها انتظرت علّها تَسمعها تنغّم ، فلم تسمع شيئا . فوقفت على الحقيقة المرة . وبدأت تفهم نفسها ، وتنظر لمرحها الطارئ كأنه أكذوبة . فلم تزد على أن ابتسمت بسْمة صفراء .

وعاد مختارٌ يسألها :

— ماذا يمنعك يا زينات ؟ لعله الوعد الذى أعطيتِه للمرحومة وهى تموت ؟ ولـكن . . .

وتوقّـف . لقد لاحظ أنها اكتأبت لسيرة أختها . فندم على أنه نبش حزنها الثاوى .

أما هى فراحت تقول وقد عاودتْها بسمتها الـكسيفة :

— كلا كلا . وهل يغار الأموات ؟ ليتهم يهتمون لشئوننا ! إذَن لَمَا ضننّا عليهم بالروح . إنما العيب منا يا مختار . لقد وهنت حيلتنا وولّى زماننا . لم يَعُدْ فى وسعنا أن نبتهج .

وتنهدت ثم استطردت قائلة :

— بنفسى لو نستطيع ، ولكنّ الوقت فات . فلا الحياةُ عادت الحياة ، ولا نحن عدنا كما كنا . لقد تبدّل ثوبُ الزمن ، فسقطت أوراقٌ ونبتتْ أخرى ، كما ذبلتْ زهورٌ وتفتحت زهور . ودَرَجَت الحياةُ على سُنَنّها فنسيتْ ما عَفَا لِتَفْرغَ لضيوفها الجُدُد . إن طير السماء لا يغرد للّيل الراحل ، ولكنه يغنّى للأشعة المبكّرة . والفَرَاشَ لا يهجر الربيع المُونق ، ليذهب فى أثر الخريف الذى أدْبَر . انظرْ ! أين الزنابق التى كانت هنا ، طافيةً على البِرْكة ، فى العهود الخوالى من صبانا ؟ أين شجرة الياسمين التى كانت تكلل الخميلة ، والتى شهدتْ قديماً حبّنا ؟ وأين منها زهورٌ بيض ، كأنجمٍ ترنو فى دُجُنّة ؟ إنها ذبلتْ . والقيامةُ التى كان يُقيمها جمالُها ، تقوم الآن فى رياضٍ جديدة ، من زهورٍ جديدة . ثم أين أبى الذى كان يملأ وجودُه البيتَ بركة ؟ وجلفدانُ أختى وبهجةُ روحى ؟ أين كل ما كان يحيط بنا منذ ثلاثة عشر عاما ؟ لا شىءَ منه باقٍ الآن .

ونحن أيضاً كل ما فينا تبدّل . ففقدْنا القلبَ الذى يتفتح للدنيا ، والعينَ التى تبصرها حلوة . فهذا أنتَ قد وَخَطَ شَعرَكَ الشيب ، وهذا جمالى قد دالت دولته . أين من عينىّ سحْرُهما الماضى ، ومن أجفانى حافاتُها المخْمَلِيّة ؟ أين من أهدابى ظِلُّها الممدود ، الذى كان يكحّلنى بلا مِرْوَد ؟ ومِن شَعرى ليلُه الحالك ، يُطِلُّ وجهى من دُجاه ؟ أين من شفتىّ فصّا العقيق ، ومن ثناياىَ حبّاتُ اللؤلؤ ؟ أين من وجنتىّ وردُهما ، ومن جبينى ياسمينُه ؟ أين كلُّ ما جَعَل قلبَك افتتن ؟ لا شىءَ إلا أن الياسمين اصفرّ والورد ذَبُل . وأنّ الردَى لَحِقَ الفِتَن الأُخَر . لقد ذهبتْ أيامنا يا مختار ، والإنسان أيامه فإنْ ذهبت ذهب . وغدونا فى زماننا مغتربيْن ، ولَيْتَ شِعرى كيف تطيب الحياة للغريب ؟ لا تَقُل لى تزوج يا مختار ، ولكنْ قُل لى شُدّى رِحالك ، وهيّا نذهبْ فى أثر أيامنا ، هناك فى البقاع القصيّة ، حيث ذهبت واختفت .

ووجم مختار ، عندما أزاحت زينبُ الغطاء عن

حقيقة حياتهما ، فإذا بها مَيْتٌ مسجّى ، وإذا بآمالها تموت عليه كما تموت الأنفاس . على حين استطردت صاحبته :

— أواه ! إن رغبة الموت لتدبُّ فيّ وتستحثني أن أذهب فى أثر ما فقدْت . وإنى لَملبيةُ النداء أردتُ أو لم أرِد . إذ لا شيءَ يشدُّنا للحياة غير أملٍ نعيش من أجله . فإذا ما انقطع هذا الحبل ، فتوقَّعْ انطلاق أرواحنا كما ينطلق طائرٌ فكّ وثاقه . ولقد تقطَّع بنا الأمل يا مختار ، بتقطُّع أسبابه منا . لم يَعُدْ فى وسع قلبنا المنهوك أن ينهض به . فماذا أمامنا سوى أن نرحل ؟ كل شيء لِنَوانا تهيأ . ولن يكون ذلك بطعنة خنجر ، ولكنْ بإيعازٍ من نفسنا . بسمٍّ تنْفثه الأعماقُ فيُرْدينا . ذلك أن الغريزة لا بد أن تنْشط للعمل ، فإذا لم تجِدْ ما تعمله ، استدارت على نفسها فأزهقتْها . وهذا هو الإيحاء بالموت . وكل الناس يوحون لأنفسهم بالموت وهُمْ لا يدرون ، عندما لا يبقَى أمامهم إلا أن يموتوا .

وكانت رهبة الفكرة قد تملكتها فتابعت كلامها

بصوتٍ منبعث من القرار . قالت :

– أنا يا مختارُ من تسير إلى الموت ولم يبقَ أمامها طويلٌ فى الطريق ، فكيف تطلب منى وأنا الراحلة عما قليل ، أن أرتبط بعلاقةٍ تفترض التريُّث إلى أمَد ؟ أنا ضيفةٌ عَرَّجَتْ عليكم لتقيم بعض يوم ، وهى فى طريقها من مَشْغل اليتامى إلى القبر ، فما لِمثْلِى وإنْ عزَّ عليك ، أن يطمع إلا فى المُتَع الخاطفة ، التى لا تستبقيه طويلا ولا تترك بعدها أثراً فى ذهنه . حسْبنا إذَن أن نتحدث حديثاً ما يلبث أن يتبدد فى الهواء . أو نُنشد أغنيةً يَذهب صداها فى أعقابها . أو إنْ شئتَ نأخذْ كفِّى فى يديك ، ولْنحلمْ حلماً قصيرا سرعان ما تسرقه اليقظةُ منا . وما أحسب أن هذا الغَزَل البرىء ما زال حراما علينا ، بعد ما ذقنا من حرمانٍ وسنذوق .

ومدت له يدها وهى تقول :

– ها كها . ولكنْ لا يلمسْها فمك ، لأننى لن أبتذل نفسى فى كهولتى بعد أن صنتُها شابة . فَلَبِئْس المرء يتعفف وهو جميل ، فإذا ولَّى حسنه خلَع العذار .

وأما الزواج فلا تفكر فيه ، لأنى قطعتُ على نفسى عهداً أن أذهب عذراءَ إلى القبر ، كما ذهبتْ عذارَى إليه آمالى . وهناك سأشهد أحجاره ، على أنى عشتُ حياتى رمزاً للتضحية والحرمان .

وقال وهو يتناول كفها :

— ولكنّ حسنها لم يذهب يا زينات . ما زال بِلَّوْرها يُشِعُّ بالضياء . وما برِح حريرها ناعم الملمس .

فتحسرت وقالت :

— ولكنه ضياءٌ واهن ، تَركَ أَلِيقَه مع الأيام . وحريرٌ منهوك ، يَرسُفُ فى أكداس السنين . إنها بقايا حسنٍ غابر .

ومع ذلك راح يضغط يدها ويحس فى قلبه دبيبَ حنانٍ خافت . كانت تُطالعه منها بقيةٌ من حسْن ، راح يتملاها ببصرٍ كَليل . كانت محاولاتٍ يائسة ، لحُطَامٍ لا حيلةَ له .

فانحدرت الدموع من عينيه ، حاملةً فى لألائها

الكابى فلولَ آمالٍ تتعثر . ولمسَت الفتاةُ فى قطرها العليل بقيةَ دِفْء راحت تنساب على كفها ، فهتفت :

— علامَ تبكى يا مختار ؟ أعلَى هذا الحلم الجديد الذى وُلد ميِّتا ؟ إنه لا يستحق البكاء . أفبَعْدَ ما بَكينا أحلامنا الماضية ، وبَعد ما بكينا شبابنا وأهلنا ، نجد ما نبكى عليه ؟ ألا اضحكْ يا مختار . اضحكْ تلك الضحكة الصفراء الساخرة ، ما دامت قد فَرغتْ منا أسبابُ البكاء . اضحكْ ضحكة المفجوع أذْهلَه الخطْب ، أو ضحكة الموتى حسَرَ البِلَى شفاهَهم عن أسنانهم .

وأخذت تضحك ، ولكنها ما لبثت أن صرخت مذعورة . كانت قد رَوَّعَتْها ضحِكاتٌ منها كقهقهاتِ شيطان .

وأحست بالإعياء فاستأذنتْ من صاحبها وأوت إلى مخدعها .

وراح مختارٌ يقول وقد خلا إلى نفسه :

— أتلك حالنا يا زينات ؟ نعيش لنشيِّع جنازة أيامنا ؟ فيم مرحك إذَن ؟ وما ذلك الخداع الكبير ؟

أجَل ، ما هذا مَرَح ، فماذا يكون ؟ أهو التأهب للموت إذا ما أحستْ الغريزةُ بدنو الأجل ، فراحت تتزود من متَع الحياة لدهور الحرمان المقبلة ؟ إن بعض الناس يشاهَدون وقد أقبلوا فجأة على الحياة واندفعوا يستمتعون بها فى جنونٍ ويأس ، وبعد قليل يموتون . فهل ذلك الذى بك يا حبيبتى هو صحوة الموت ، ونذير الغمض الأبدى ؟

واستطرد يتوجع :

— أجَل ، ما هو ببعثٍ صحْوك ، ولكنْ نذيرُ سُبات . يقظةُ النفس صحَتْ وقد أوذِنَتْ برحيل ، تحاول أن تَشبع من الدنيا وهيهات . حتى إذا ما عاجَلها النذير ، ثَوَتْ والمنى بين رُفاتها حية . فوافجيعتى فيك يا زينات !

ثم عمَد رأسه بيديه وأطرق يفكر ، وقد أخذتْ تلطم أذنيه ريحٌ موحشة ، حاملةً فى صفيرها همَساتِ عالمهما الراهن كما تمثَّلاه كأنها أصداء . فازداد يقيناً بأن هذا العالم ليس إلا بقايا عالَمٍ فَنِى .

الفصل الخامس والعشرون

وانسلخت أيامٌ وزيناتُ عا كفةٌ على مرحها الزائف. كان مَنْ يرى عينيها يلْمح فيهما نسياناً وزَيْغا. نسياناَ من ينظر إلى الشيء الذي سينفّض يديه منه، فلا يحاول أن يستبقيه فى ذهنه. فكانت تسمح للأشياء بأن تمر أمام عينيها ثم تموت عليهما، دون أن تمكّنها من قلبها. كانت لا تقبض يدَها على ما تستمتع به، ولكن ترخيها ليفلت منها كما تفلت العصافير، قانعةً بأن تشيّعه ببصرها لحظة، ثم تستدير إلى غيره. وكانت لا تأسَى على فرصة فاتتها، لأنها تعلم أنها متخليةٌ عنها عما قليل. ولا ترجئُ أمراً إلى الغد، لعلْمها أنه ليس لها غد. كانت كالمسافر طافَ مودّعا، فهو يلقِى نظرةً على كل ركن، ولا يقف عند ركنٍ بعينه. كانت تنسى كل شىء، لأنها لن تبقَ لشىء، ولن تأخذ شيئاً معها. فكان مرحها مريراً، وبسْمتها صفراء، وسرورها بلا بهجة. وكان

بعثها إلى الحياة فوق ذلك أكذوبة .

حتى كئوس الخلوة التي كانت ترشفها مع مختار ، كانت تُقطِّر فيها من مرارة نفسها ، فلا تحسوها إلا ممزوجة بالعلقم . وكانت كلما رفعت إلى فمها كأساً منها ، أفرغتها في جوفها دفعةً واحدة ، ثم ألقت بها إلى الأرض محطمة ، شأنَ من لا يتذوق طعمها أو لا يُبْقِي عليها . فكانت كلما دعاها مختارٌ إلى لقاء ، لبت الدعوة غير متمنعة ، ثم ذهبت في لهوها معه كل مذهب . على أنها وإن كانت قد دأبت على أن تشرب كئوسها حتى القرارة ، فقد حرصت على أن لا تملأها إلا بالخمر الحلال ، إذ بقيت على ما عاهدت نفسها عليه من تَبَتُّل .

. . .

تلك كانت زينات بعد أن أحست بدنو الأجل ، ففتحت نافذة معبدها لتلقي نظرة أخيرة على الحياة ، خلال سحابة النسيان التي كانت ما تزال تغشى بصرها ، فلا تُريها من الأشياء إلا أشباحاً ماحلة ، ولا تُسمعها من الأصوات إلا أصداء .

يقظةٌ لا بد منها قبل الرقاد ، لنفث رغبات نمت بالنفس خلال حقب وأجيال ، وهى رهنُ الغيب بعد . فى نفثها راحةٌ كبرى ، وضجعةُ الموت بها تشقى العظام .

. . .

ولكنّ صحوة الموت لا تطول . فهى ومضةٌ خاطفة لا أكثر ، تحشد فيها الروحُ كل أضوائها ثم تجود بها دفعة واحدة . ذلك أن زينات لم تلبث أن عافت اللهو ، وقفلت راجعة إلى عالم زهدها الذى كانت قد هجرته إلى أمدٍ لتقوم بسياحة فى الحياة . فعادت تعيش فى معبدها مع أرواح آمالها التى قضت نحبها من زمن ، وأرواح الألى باتوا من رفاقها فى ذمة الموت . وجددت صلتها بروح أبيها ، واتصلت لأول مرة بروح جلفدان ، وأرواح اللواتى قضين من لداتها بالمشغل . وكانت كثيراً ما تغلق على نفسها الأبواب ، وتحلّق بأجنحة الضنى فى أثير السنين التى مضت ، حيث تبصر تحتها ظلال ربوعٍ أدركها العفاء ، وأطيافَ هاتيك الوجوه التى طواها الزمان لمّا انطوى . وعندئذ لا تملك إلا أن تقلّب يدَ

الحسرة ، وتروح تناجى مَـوْتاها وتقول ودموعها تسيل لـكل كلمة تنطقها :

— فى ذمة الله رفاقٌ ذَهبَ الموتُ بريحهم ! وفى ذمة الله زمانٌ غاب بصورهم ! كانوا وكنا وللـرَّدَى سبقونا ! فواحسرتاه على أهلٍ خلَـتْ من رَوحاتهم الدار ! وعلى أناسٍ مثـلنا غـدَوْا أرواحا ! أين راحوا ، كيف صاروا ، يُـبَحُّ صوتى ولا مجيب !

ثم تخر منهوكة القوى .

وهكذا آثرتْ زيناتُ أخيرا أن تحيا مع الموتى . فهل كان هذا لأنها موشكة أن تتخذ مكانها بينهم ؟

. . .

وإنها لَعـلَى هذه الحال ، إذ ظهرت عليها دلائل انحلال الأعصاب . فكساها الهزال بين عشيةٍ وضحاها ودبَّ فى هيكلها الوهَـن . وأصبحت تلهث لأقل مجهود وتـبْرم بأخفت صوت . وكان يبدو من أطوارها أنها تتوجس خيفة من المستقبل ، وتفزع من أشياءَ لا وجودَ لها . كأنما كانت تشعر بأن الأقدار تتربص بها ، أو كأنها

كانت تَرى هذه الأقدار وقد أخذت تتمثل لها فى صورة أسدٍ أقْـعَى ليتحفز للوثبة الـكبرى .

وكان الأرق لا يفتأ ينتابها فتقضى ليلها فى فراشها تتقلب . فإذا أغفتْ فنومٌ متقطع مضطرب ، تـكتنفه الأحلام المزعجة التى تَهبُّ على أثرها مفـزَّعة . مِن رُؤًى تَـرَى فيها نفسَها مغبَّرةً بالتراب ، وأخرى تَراها فيها تسقط فى حفرة . وكثيراً ما كان يحْـضرها طيفُ أبيها أو جلفدان ، فيأخذها من بين الحضور ويسير بها فى بقاع مجهولة . فـكانت إذا أفاقت وأوَّلت ما رأت ، أيقنتْ أن وقت الرحيل قد أزف ، وأن قبْرها بات يطالعها من الغيب ، والله يدعوها ويَبعث إليها برُسُله من الأموات الذين سبقوها إليه . كانت رغبةُ الموت قد فعلتْ فعْلها فيها ووصلت إلى آخر مراحلها . وكانت من جانبها قد أتمت جولتها التى طافت فيها بالحياة مودِّعة . وإذَن فلقد تَهيأ كل شىء ، ولم يبقَ إلا أن تموت .

الفصل السادس والعشرون

وطال المرض بزينات . ولم تزدها الأيام إلا دنـوًّا من القبر . فلما أصبحتْ وكأنها ميتٌ يسير على قدميه ، ألقت بنفسها فى فراشها قليلة الحيلة ، ولازمتْـه ليلَ نهار .

وفى هذه البقعة المحدودة ، التى ينتهى إليها عادةً مَطَـافُ المرء بالحياة قبل أن يتركها ، تمددت العليلةُ ترَقب حَيْـنَها خلال الساعاتِ التى كانت تمر فوقها بطيئةً مملة .

واشتد القلق بمختار . وذهبت عبثاً جهوده فى إنقاذها . فنعاها — إلا حبَّها — إلى نفسه . وكان كلما خرج من لَـدُنْـها يائسا ، أغلق على نفسه باب إحدى الحُـجَر ، وجعل يبكيها ويرثيها حية .

. . .

وتعاقبت أيام . وعَـوَتْ بالحىِّ ذئابٌ ونَـعَبَتْ بوم . فكان ذلك بمثابة الأجراس التى تنذر بدنو الأجل . ثم بدأ يطوف بها ساقِ المنون ، ويذيقها من الموت

سكرات . إذ أخذت تهذى فى يقظتها ، أو تغيب فى غفوات طوال .

عندئذ وجم القوم ينتظرون الفاجعة . وجثم على البيت صمت مخيف ، لم يكن يقطعه إلا نحيبهم المكتوم ، كلما خانهم الجلد فانتحوا جانباً يبكون .

. . .

وفى ذات ليلة ممطرة عاصفة الرياح ، كأن الطبيعة كانت تبكى فيها وتنوح ، على زهرة من زهورها الحسان أخذ يحلق فوقها طائر الموت ، اعترت زينات غيبوبة طويلة ، لثمها فيها الغمض ساعات .

وبالرغم من ذلك الهدوء الذى كان يسود ملامحها ، ليس يدرى غير من مات ، أية معركة كانت تنشب فى الأعماق بين الحياة والموت ، جعلت أنفاسها تسرع وعرقها يتصبب ؟

وكأنما تلقت أثناء غشيتها رسالة من الغيب بأنها مزمعة الرحيل ، إذ لم تكد تفيق حتى نادت عفاف ، فلما دنت منها تناولت يدها وراحت تخاطبها قائلة :

— أىْ عفاف ! اغفرى لى ولأبى . جنَى أبى ، وجنيتُ عاقبةَ بَغْيه . وقديماً أُخِذَتْ بذنوب الأهل الأبناء . لقد شاء بالبغى أن يزوجنا ، فما تزوجتْ أختى بمن جلبه لها ، وبقيتُ عمرى عانسا . لا شىءَ حرامَ يُرْبِى على غاصبِه . فاللقمة التى انتزعَها من فمك ، وقفتْ شجىً فى حلقه وحلق جلفدانَ وحلق . مسكينٌ كُتِبَ عليه الإثم فَأثِم ! ولقد يُطْغينا الدهر لنشقَى ، أو يبتلينا بمن ينكّل بنا . تنوعَت الأسبابُ وشقاؤنا الغاية . فكأنى بأبى قبْل أن يظلمك كان يعاقَب عن ذنوبٍ لم يجْنها . وإلا فعلامَ رُزِءَ بجلفدانَ وبى ؟ ولمَ ذاب علينا من قَبْل أن يَأْثم حسرة ؟ فلا يَنْقِمْ عليه فؤادك فما كان إلا مسخَّرا . هبيه لم يظلمك أفَكنتِ تنجيْن من جَوْر القَدَر ؟ كلنا جئنا لنعذَّب هنا . المذنب منا والبرىء . إذ ماذا جنيتُ أو جنَى مختار ، أو جلفدانُ التى وُلِدَ معها نحْسُها ؟ بل ماذا جنيتِ أنت أو جنَى مصطفى ؟ عَلِمَ الله لم نكنْ باغِينَ ولا تنكّبْنا الصواب . فهل تُرَى نكفّر عن ذنوبِ

نجهلها ، اقترفناها فى عوالِمَ سابقة ، وعاشت فينا خلال حَيَوَاتٍ ومَوْتاتٍ عِدَّة ، حتى إذا ما آن أن نتطهر منها ، انتهى بنا المَطَاف إلى هذا المبْكَى لنغتسل عليه ؟ وهل تُرَى تذهب بالتكفير بُرَحَاؤُنا ، ويكون الرمس بَدْءَ عهدِ سلام ؟ فإذا ما المُوجَع أَلْقَى بجنبه فيه ونام ، كفَّت عن وخْزه آلامه ، وأحسَّ فى الغمْض لَذاذَةَ النسيان ؟

وكأن لسانها قد ثقل فعجزت عن الكلام . ثم انطبقت جفونها وأخذت تحشرج حشرجةً راح لها صدرها يتزلزل كأنما تهبُّ فيه أعاصير . وإنْ هى إلا لحظةٌ حتى بدأ لونها يفرُّ مع روحها التى كانت تنسلُّ من جسدها وتنساب فى السماء .

وتجمَّع القومُ حول سرير المحتضرة وقد حبسوا أنفاسهم وخنقوا عبراتهم ، ليرَوْها لآخر مرة وهى حية ، قبل أن يَهْرب وجودُها ذلك الهرب المبهم الذى حيَّر الخليقة ، فلا يعودوا يرونها إلا أطيافاً شاخصةً فى الخيال ، أو زائرةً فى الرؤَى بين حين وحين .

وفتَّحت زينات عينيها مرة أخرى . وكانتا هذه المرة تتألقان أكثر من ذى قبل . ذلك أنها كانت قد جمَّعت فيهما الذَّماء لتسكبه دفعةً واحدة فى نهر العدم ، كما يجمِّع المصباح فَرَغَ زيتِه فلُولَ لهبه ليلفظها فى الظلام .

ودنا منها مختارٌ وأخذ يحدِّق فيها قبل أن يعاودها الغمض . ولكنَّ عينيها تجاهلتاه . فناداها ، ولكنَّ مِسْمعها أنكره . وهل كان ما طالَعها منه إلا أضغاثَ أحلام ، أو كان إلا أصداءً ما سمعتْ من صوته ، حتى تعرفه أو تجيبه ؟

وعاد يناديها ويكرر النداء . فاختلج جفنها وبدا أنها بدأت تعى . ولكنها نظرت إليه ولم تجب ، وكأنها تقول : كم أحاول ولا أقْدر !

فهتف بها فى لوعة اليائس :

— زينات ! ألاَ أفيق ! زينات ، أيتها الحبيبة ! هل تعرفيننى ؟ من أنا ؟

وبعد جهدٍ استطاع لسانها أن يفوه ، فراحت تجيبه

فى لهجة متقطعة :

— أنت . . . أنت مختارُ الحبيب .

واستطردت :

— لم أنْسَكَ بَعْد . ولكننى سأنساك وشيكا ، عندما أنسى كل شىء . هات يدك ، وضَعها على صدرى . وتحسَّسْ قلبى الذى أَحَبك ، وبارِكْه قبل أن يَسكت خفقُه .

وانحدرت من عينيها دمعتان ، سالتا على خديها الغائرين ، ثم اختفتا وراء أذنيها .

ووضع مختارُ يدَه على صدرها ، فطافت بفمِها بسمةٌ هادئة ، خُيِّل معها للقوم أنها شعرت بالراحة ، وأن السلام أخذ يَمطر قلبَها ويُغْرقه .

ثم أجالت بصرها فى الحجرة ، فلما لمحت أمها همست :

— أماه ! لهفى عليك ! كلنا ذهَبْنا ، وتركناكِ هنا وحدك ! مَن لى بِمَن يخْبرنى بأنك ستحتملين بجَلَدٍ أيام الفراق ؟ وبأن التأسّى سيكفكف دمعَك ؟ — حتى أغمض جفنىَّ راضية .

ولم تدرِ الأم ماذا تقول . وما زادت على أن مالت على جبين ابنتها وعبراتها تنهمر ، فقبّلته قبلة أودعتها كل رمقها ، ثم نهضت بعدها وهى تكاد تكون بلا حياة .

وتنهدت زينات ُ ملءَ صدرها ، ثم راحت تقول وقد بدا أنها تنظر إلى شىء بعيد :

— آه ! الآن أتركك يا دنيا ! وأشهد أنى لستُ آسَى على ما فاتنى منك ، ولا أنا على ما ذقتُ فيكِ مِن مِحَنٍ آسفة . فكأنى بربى وقد شاء أن لا ألقاه إلا نقية ، سلّط على قلبى النارَ لتحرق أوضاره ، وعلى روحى الدموعَ لتغسل أكدارها . فظللتُ أكتوى آونةً وآونةً أغتسل ، إلى أن زال رَيْبى وشفَّ منى الجسدُ وخَف ، حتى لكأنما أصبحَ من نورٍ أو نَبتتْ له أجنحة ، وإذا بى أغدو فى الأناسىّ قدّيسة ، وفى الموتى من المقربين . فشكراً لك يا ألله على ما أعددت إلىّ من نقاء ، وما أنتَ بسبيل ردّه علىّ من غربة .

وشهقت شهقة من الأعماق ، عادت تتكلم بعدها بهمسٍ شأنَ مسلوب الروح ، فقالت :

— طوبَى لكِ يا نفس ! فهذه ليالي التكفير المظلمة قد مضت ، ولاح للعين فجرُ أيام الدَّعة . ويا زينباتُ نامى مطمئنةً ، فلقد آن لجسدكِ المضنَى أن يستريح . الوداع !

وما إن أتمت جملتها ، حتى أخذ نورُ حَدَقَتَيها يَغِيض كما يغيض الماء فى مَنابعه ، وفجأة تقلّص وجهها وبدا أنها تعانى ألمًا مُوجِعا ، كمن تَسُلُّ من جسدها شوكا .

وبعد لحظة ساد فيها الصمت ، كأنما حطَّتْ على رأس البَرِيَّة طير ، فَتحتْ فمَها ولفظتْ بمرارةٍ ذلك القَبَسَ غيرَ المنظور ، الذى تنطبق بَعده الأفواه إلى الأبد .

. . .

وصاح القوم :

— ماتت ؟ رحمها الله !

ثم انثَنَوْا على الجثمان المسَجّى يبكونه وينادونه بأحَبّ الأسماء ، والجثمان المسَجّى صامتٌ لا يجيب . على حين كانت تجُوز الفضاءَ فراشةٌ مُنَوَّرة ، فى

طريقها إلى عرش الخلود .

. . .

وانكبَّ مختارٌ على حبيبته وراح يرمقها ، فلما رآها لا تتحرك صرخ كمن أصابه مسٌّ :

— زينات !

وكانت أولَ مرة ينطق فيها بهذا الاسم وصاحبته ميتة . فأحس بتبدُّل كبير طرأ على الحياة . بل أحس بأن وجه التاريخ كله قد تغير ، وبأن اللحظة الحاسمة التي مرت به من فورها قد فَصَلتْ بين عهدين متباينين ، بل بين عالَمين بينهما هوَّةٌ سحيقة : العالمِ الذى كانت فيه زيناتُ حية ، والعالم الحاضر الخالى منها .

. . .

وظلت الميِّتة طول الليل ممددةً فى فراشها وذووها من حولها يندبونها ، ويكادون من حرقة الحزن أن يشقُّوا الثياب ويمزقوا الوجوه .

وكان من ينظر إليها وهى مسجَّاة يخالها حيةً ولكنها

أدركتها سنة . ذلك أن سكينة الموت كانت قد ردّت عليها جمالها ، كما زادها بهاءً ذلك اللألاء الذى غمر وجهها ، لألاءُ من شملهم الله برضوانه .

. . .

وفى الصباح ، سار موكبها الذى زُفّت فيه إلى القبر ، بعد أن لم يُتَح لها أن تُزَف إلى حبيب .

ثم دُفنت إلى جوار أختها تلبيةً لرغبةٍ أبدتْها قبل أن تموت . وهكذا جاورتْ فى الموت من أحبتها فى الحياة ، وضحّت من أجلها بأثمن ما يضحّى به حى .

فلما تمَّ لها أن تضع جنبها ، كانت قد انتهت آلامُ إنسانةٍ عَبَرَت بالحياة ذات يوم كما عَبَر بها غيرها ، لتكفّر عن ذنوبٍ تجهلها ولا تدرى متى ارتكبتْها ولا أين ، ولكنها تلمس آيتَها كما نلمسها أجمعين ، فى ذلك الضَّرَمِ الذى لا يفتأ يجرى مع دمائنا حاملاً فى موكبه النارى عصبةً من الشياطين ، نحسبُ أنها صحبتْه من عوالمَ مبهمة قد سبقتْ لنا فيها حياة ، وليس يخلّصنا منها إلا هذه الآلام التى يضعها القدر

فى طريقنا على غير اتفاق ، فما تلبث أن تلتهم حرقتُها نيرانَ تلك المَرَدَة ، حتى إذا ما أتت عليها أحسسنا وكأنما قد انزاح عن صدورنا كابوسٌ ثقيل ، هو كابوس تلك الشهوات التى تحمل الذنوب فى أطوائها ، وإذا بنا نبدو فى صفاء أشعة النجم ، وفى مثْل خفة الأثير وأكثر .

وكذلك رقدتْ زيناتُ رقْدتها الأخيرة ، بعد أن انتهت أيامُ تكفيرها وتطهرتْ مما علِق بها من أوشاب . ولكنْ كانت على مقربةٍ منها — وبَعْد اجتياز مدينة الأموات — حياةٌ صاخبة بها أناسٌ ما زالوا يكفِّرون .

الفصل السابع والعشرون

وعاد مختارٌ الصَّدِيعُ إلى الحياة ، بعد أن وارى التراب حبيبتَه . ولكنها كانت حياةً أخرى ، وأرضاً أخرى ، غير التى ألفها . كان أينما تلفَّت لا يبصر إلا صحارى مقْفرة ، لا طيرَ يجتازها ولا زرعَ ينبت فيها ، ولا قطْرَ ينَدِّيها ولا عينَ ماء . ولكنْ رمالاً فى رمال ، وكهوفاً فاغرةً أفواهها وتلالاً رابضةً كالضوارى ، وفضاءً فسيحاً لا تدرك العينُ منتهاه ، وتأخذ القلبَ من سعَتِه رهبة . صمتٌ متواصلٌ وخرابٌ ليس يشْبهه خراب . فهل تُرَى قذفت به الأقدار إلى كوكبٍ غير مأهولٍ أو بادَ سكانه ؟ أم أنه أُسدل بينه وبين الدنيا ستار ، فما أصبح يَرى سوى العالم الفانى الذى يعيش فى نفسه ؟

ولكنه كان لا يفتأ يلْمح فى الفيافى شيئاً يلُوح كأنه معلَّق فى الفضاء من فرْط ما طوَّح به البعد ،

وقد نَسجت عليه المسافاتُ أكْداسَها . فكان يحسبه واحةً وسرعان ما يقصد إليه ويسرع الخطا . ولكنه كان كلما دنا منه نأى ، حتى لَيخال نفسه واقفاً وهو يسير ، وأخيراً يوقن أنه سراب . كان هذا الشيء زينات ، وإنها مذ قضَت لَسراب . أفتكون إلا الفراغ الذى تركْته ، ظَل ينْضح بطيفها ؟ والصمتَ الذى خلَّفته ، بَقِىَ يردِّد صداها ؟

وعندئذ لا يملك إلا أن ينكمش فى عالمه الحرب ، ويظل يَبكى ويبكى ، وهو لا يدرى ماذا جنى وعمَّ يكفِّر ، إلا أن يكون العجز ذنباً وكان يكفِّر عن عجزه عن ردها .

. . .

وذات يوم زاره أستاذُ زيناتَ القديم . وكان قد قَدِمَ من الريف بعد غيبة أعوام .

وسأله عنها وحمَّله إليها السلام . وأهاج السؤالُ شجنَ الحبيب . وذكَّره مَرْأى المربِّى العهودَ الخالية . أيامَ كان وزيناتَ فى روضة عمه بُرْعُمَيْن . يسقيهما الطلُّ فيرتعشان ، ويحمِّيهما الضوءُ فيضحكان . أيامَ

هَشَّت لها الأنداء ، وبَشَّ لها الشعاعُ الباكر . أيامَ كانت حياتهما فى فجرها ، والعمرُ منهما وليد . وكانت نديةَ الأصْبَاحِ أيامُهما مقمرةَ الأمَاسيِ . فما يبصران من الدنيا غير جانبها الحلو ، ولا يعرفان من الهموم إلا اسمها .

فأجاب وأدمعه تفيض :

— أعَنْ زيناتَ تسألنى ؟ زيناتُ ذهبت ولن تعود . زيناتُ لن تَشْهدها الروضاتُ بَعْد ، ولن تردّد صوتَها النسَمات . زيناتُ لا أنفاسَ لها اليومَ ولا ظِل . زيناتُ ماتت والموتُ نسيان .

وهكذا كان يثور شجنه ، كلما هبت نسمةٌ تحْمل عطر زيناتَ القديم . وما أكثر الأنسام التى كانت تحمل عطرها المائت ! حتى إذا ما رقدتْ مؤقتاً هذه الأنسام ، انطوت نفسُه على ألمها الكَظِيم ، فبدا هادئاً والثورةُ فيه .

. . .

وفى بقعةٍ أخرى ومنزلٍ آخر ، كانت هناك شريفةُ هانم تكفّر التكفير نفسه ، ولسبب تجهله هى الأخرى .

فقد كانت مذ عادت من دفن ابنتها وصرخت في وجه الجدران التي استقبلتها خاوية : « أيتها الجدران لم يَعُدْ فيك إلا أنا ! » ، وهي فريسة لمرض الشلل ، فلم تكن لتبرح حجرتها إلا محمولة ، لتزور قبور موتاها في المواسم أو حين إلحاح الشوق .

. . .

أما عفافُ فمع أن زينات كانت قد أوصت لها بجميع ثروتها ، فقد آثرت أن تهبها الجهات البر ، إذ لم تعدْ بها للمال حاجة مذ لم تعد لها في الحياة رغبة . ثم سحبت عكازها وتلثمت بالخمار الأبيض ، وقفلت راجعة إلى المشغل . أجل ، ثابت إليه لتكفّر أيضاً كما يكفّر مختارٌ وشريفةُ هانم . وكما كفّر مصطفى من قبلُ وكفّرت زيناتُ وأبوها وأختها ، وكما كفّر وسيكفّر كل من هبط الأرض أو سيهبطها ، عن ذنوبٍ يحسبونهم حملوها من عالمٍ آخر ، ثم جاءوا ليذيبوها في الدمع على هذا المبكى .

. . .

وكان بين يوم ويوم يشاهَد رجلٌ يرتدي السواد ويَضرب في القفار ، وقد أمسك بيده طاقةً من الزهر ، حتى إذا ما بلغ السفح الذي تقوم عليه مدينة الأموات ، وضعها على نُصْبٍ جديدٍ فيه ، ثم انحنى فوقه ينتحب ، كما ينتحب العابد فوق هيكله .

كان هذا الرجل مختارا ، يزور في الفَتَرات قبر حبيبته ، ليبكِي ويكفّر . . . عن ذنوبٍ لمْ يَجْنِها .

[تمت]

استدراك

فى ص ٥٣ س ١٣ كلمة « تنقمين » وحقيقتها « تنكرين » . وفى ص ٥٤ س ١٠ « سيسخطه » وحقيقتها « سيمسخه » . وفى ص ١١٨ س ٥ « ولو » وحقيقتها « لو » . وفى ص ١٧٧ س ٩ « عفى » وحقيقتها « عفا » . والكلمات الآتية حقيقتها كالآتى : ص ٦ س ٥ « سحرية » . وص ١١ س ٧ « وصامت » . وص ١٦ س ١ « نحس » . وص ٢١ س ١٧ « يستدرجهم » . وص ٢٢ س ٣ « غير » . وص ٨٥ س ١ « وأضمخ » . وص ٩٧ س ٧ « ليتهم » . وص ٢٣٧ س ١١ « لينفرطُ » . وص ٢٣٩ س ١٢ « قينات ٍ » .

كتب المؤلف

زينات	رواية . فازت فى مسابقة وزارة المعارف للقصة .
وحيد	رواية . اشترت حق تمثيلها الفرقة القومية . وأقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
سهير	رواية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
العبير	مقطوعات من الشعر المنثور .
الأغنية	مقطوعات من الشعر المنثور .
البلبل	مقطوعات من الشعر المنثور .
الزنبقة	مقطوعات من الشعر المنثور . أقرته وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
مناجاة	مقطوعات من الشعر المنثور .
البطالة	بحث اجتماعى .

تطلب من ناشرتها
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

قريبا
الطبعة الثانية
من كتاب

منـــــاجاة

شعر منثور للمؤلف
مزيدة ومنقحة

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 073835330